شارون وحماتي

مكتبة

مذكّرات رام اللّه

سعاد العامري

ترجمة: عمر سعيد الأيوبي

دار الآداب

شارون وحماتي

مذكرات رام اللّه

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

الإهداء

إلى سليم

سعاد العامري

شارون وحماتي

مذكرات رام اللّه

رواية

ترجمة: عمر الأيوبي

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب - بيروت

شارون وحماتي

مذكّرات رام الله

سعاد العامري/ معماريّة وكاتبة فلسطينيّة

الطبعة الأولى عام 2007

الطبعة الثانية عام 2012

ISBN 978-9953-89-243-6

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة

t.me/soramnqraa

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 795135 (01)

(03) 861632

فاكس: 009611861633

e-mail:rana.adab@hotmail.com

Website: www.daraladab.com

facebook: Dar Al Adab

مقدّمة

لم أتمكّن يومًا من فهم والديّ، أو مئات الآلاف من الفلسطينيّين الذين هجروا بيوتهم عام ١٩٤٨، أو أسامحهم على ذلك، إلى أن هربت أنا وزوجي من بيتنا في رام الله في ١٨ تشرين الثاني ٢٠٠١. فعلى أثر احتلال الجيش الإسرائيليّ حيّ المصايف الذي نقيم فيه، اضطررنا إلى إخلائه والتوجّه للإقامة في منزل صديقينا إصلاح وصالح في البيرة.

أخبرتني حماتي التي تركت بيتها في يافا في عام ١٩٤٨ وتعيش الآن في رام الله قرب المقاطعة (مقرّ قيادة عرفات)، 'شهدت الجحيم هنا؛ لم يكن الأمر أقلّ سوءاً عمّا شهدناه في يافا عام ١٩٤٨، لكنّنا تعلّمنا هذه المرّة: مهما حصل، علينا أن نبقى في بيوتنا وأن لا نهرب من بلادنا... يِقْطَعْهُم من يوم ما إجو إجت

الشواشر معهم (عليهم اللعنة، لقد جلبوا المشاكل معهم منذ مجيئهم)'.

قرّرت العمل بنصيحتها وعدت إلى بيتي، ولكي أبعدها عن الجحيم، أحضرتها لتقيم معنا.

بدأت كتابة مذكّراتي الشخصيّة عن الحرب، القسم الثاني من هذا الكتاب، كشكل من أشكال العلاج في أثناء هذه الفترة (١٧ تشرين الثاني ٢٠٠١ إلى ٢٦ أيلول ٢٠٠٢). فغالبًا ما كنت أجلس في وقت متأخّر من الليل لأرسل رسائل إلكترونيّة إلى الأصدقاء والأقرباء المتلهّفين إلى معرفة شكل الحياة التي أحياها في هذه الأوقات الرهيبة. وكانت الكتابة محاولة لتنفيس التوتّر الذي سبّبه وفاقمه أريبل شارون وحماتي. وبعد تردّد كبير تشاركت هذه المذكرات مع بعض صديقاتي الحميمات.

لم أدرك مقدار الدعم الذي تقدّمه صديقاتي (بمن فيهنّ حماتي ماري جبجي) إلا بعد أن غزا الإسرائيليّون رام الله. في البداية، اطّلعت ابنة أختي ديالا، وصديقتاي، ريما حمامي وفيرا نوفل، على ما أكتب فطالبن بالمزيد، وكذا فعل زوجي سليم. وفي وقت لاحق طالت القائمة وضمّت لويزا مورغانتيني، وميخال آفي آد، وليلى شهيد، وبيني جونسون، وتانيا ناصر تماري، وفيرا تماري، وأنيتا ثيورِل، وإليزابيث تايلور، وروشيل ديفيس، وماري كريستين

أولاس، وتيسير حزبون. ولم تُثر قضيّة النشر إلا في صيف ٢٠٠٢، عندما التقيت بالكاتبة المغربيّة فاطمة مرنيسي في ستوكهولم. وكانت صديقاتي، ثانية، هنّ اللواتي اتخذن المبادرة وأسرعن بالمخطوطة إلى الناشرين (لقد فقدت في الواقع بعض ما كتبت، واضطررت إلى أن استرجعه من صناديق الوارد في برامج البريد الإلكترونيّ لدى صديقاتي). حملت دفنا غولان المخطوطة إلى دار بابل للنشر في تل أبيب، ولويزا مورغانتيني وماريا نادوتّي إلى ألبرتو رولو في دار نشر فلترينيلي في ميلانو، وأنيتا ثيورِل إلى ناشر سويديّ. ومنذ ذلك الوقت، حصل كتاب «شارون وحماتي» على حياة خاصّة به، حياة لا أكاد أستطيع مجاراتها.

تبدأ اليوميّات التي تمتد بين ١٩٨١ و٢٠٠٤ برحلتي بعيداً عن أمّي وعمّان، المدينة التي نشأت فيها وعشت معظم سنيّ حياتي حتى ذلك الوقت، إلى رام الله، المدينة الخاضعة للاحتلال الإسرائيليّ. لكن رحلة الستّة أشهر، تحوّلت إلى رحلة عمر. فقد عشت في رام الله، وعملت، وأحببت، وتزوّجت، وحصلت على حماتي.

تقع اليوميّات ـ وهي تضمّ روايات عن حياتي اليوميّة تحت الاحتلال ومواجهاتي المتكرّرة مع «موظفي الإدارة المدنيّة» والجنود الإسرائيليّين ـ في أثناء الأحداث السياسيّة الرئيسيّة التي أحاطت بالفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة في العشرين سنة الأخيرة: الغزو

الإسرائيليّ للبنان في سنة ١٩٨٢؛ والانتفاضة الفلسطينيّة الأولى في الفترة ١٩٨٧-١٩٩٣؛ وحرب الخليج الأولى في سنة ١٩٩١؛ وفترة الهدوء النسبيّ التي أعقبت اتفاقات أوسلو في سنة ١٩٩٣؛ واندلاع الانتفاضة الثانية في أيلول ٢٠٠٠؛ والغزو الإسرائيليّ العسكريّ للمدن والبلدات الفلسطينيّة الرئيسيّة؛ وأخيراً إنشاء جدار الفصل الذي بدأ في سنة ٢٠٠٣.

في أثناء عبور الحدود السوريّة الأردنيّة المفرطة الازدحام والفوضى، علّمني أحد أصدقائي الأعزّاء، بلال حماد، كيف أخرج من الإطار الذي أوجد فيه وألاحظ انعدام معنى اللحظة. وعندما كرّت السنون، أصبح ذلك آليّة دفاع قيّمة في وجه الاحتلال الإسرائيليّ الذي يقبض على حياتنا وأرواحنا.

ومن خلال هذا «الانتحاء جانبًا خارج إطار الحياة» فقط، تمكّنت من ملاحظة عبثيّة حياتي وحياة الآخرين وروايتها.

سعاد العامري

شباط ٢٠٠٧

القسم الأول

- ١ -

لم يكن مزاجي رائقًا

مكتبة
t.me/soramnqraa

صيف ١٩٩٥

'طردتمونا من يافا، ثم تتساءلون كيف وُلدنا في مكان آخر'!.

كانت هذه أولى الكلمات التي خرجت من فمي عندما فتحته لأجيب عن أوّل سؤال في لائحة طويلة من الأسئلة التي طرحها عليّ ضابط الأمن الإسرائيليّ في مطار اللدّ (تل أبيب).

لم يكن مزاجي رائقًا.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف صباحًا في يوم صيفيّ حارّ في سنة ١٩٩٥. فقد أنهكتني رحلة الطيران التي

استغرقت نحو خمس ساعات من لندن، وكل ما أريده هو الإسراع في الخروج من المطار لملاقاة إبراهيم الذي تجشّم عناء القدوم من رام الله لنقلي في هذه الساعة المبكّرة جداً.

ازداد انزعاجي وضيقي عندما دسّت الشابة التي تعمل في مراقبة جوازات السفر بطاقة زهريّة اللون في جواز سفري الفلسطينيّ. ليس لديّ مشكلة بالطبع مع اللون الزهريّ أو مع كوني فلسطينيّة. لكن كل ما أردته في تلك اللحظة هو الحصول على بطاقة بيضاء. فالبطاقة الزهريّة، كما جرّبت مرّات عديدة من قبل، تعني تلقائيًّا قضاء ساعة إضافيّة مع رجال الأمن في المطار.

آه... كم كنت أريد الحصول على بطاقة بيضاء هذه المرّة! فمزاجي لم يكن رائقًا.

'كيف ولدت في دمشق'؟ سألني الضابط، ولم يكن بالطبع مسروراً من ردّي الطائش أو راضياً عنه.

لم يكن مزاجي رائقًا لأخبر ضابط الأمن أنّ قلب والدي، الذي قدم من يافا إلى بيروت في سنة ١٩٤٠، خفق لحظة رؤيته أمّي الدمشقيّة. كانت في الثامنة عشرة من العمر، وهو في الثالثة والثلاثين. وكان قد تخرّج من الجامعة الأميركيّة في بيروت قبل اثنتي عشرة سنة، فيما هي لا تزال طالبة في الكليّة السوريّة البريطانيّة.

ما إن وطأت قدما والدي فناء منزل عائلتها الفخم في البلدة القديمة بدمشق، وأدرك مقدار ثراء والدها التاجر، حتى أحسّ بتلاشي حلمه بالزواج من هذه الفتاة الطويلة الرائعة الجمال ذات العينين الخضراوين. وفي النهاية تحقّق هذا الحلم بالذات، لكن تحطّمت العديد من الأحلام الأخرى، وعاشا حياة معذّبة معًا.

في كانون الأول ١٩٧٨، توفّي والدي إثر تعرّضه لنوبة قلبيّة في براغ في أثناء حضوره مؤتمرًا للكتّاب. وكان الكاتب الفلسطينيّ الشهير إميل حبيبي آخر من رآه حيًّا وقضى الليل معه.

لم يكن مزاجي رائقًا لأخبر ضابط الأمن الإسرائيليّ أنّه كلّما حملت والدتي كانت تتوجّه إلى دمشق لكي تلد هناك. وهكذا في السنوات ١٩٤٣ و١٩٤٤ و١٩٤٩، سافرت أمي بين القدس ودمشق لتلد شقيقتيّ أروى (عالمة نفس تعيش في عمّان الآن)، وعنان (عالمة اجتماع تعيش في أميركا الآن)، وبعد فترة طويلة، شقيقي أيمن (دبلوماسيّ). وسافرتْ أيضًا بين عمّان ودمشق لتلدني بعد ذلك بعامين. لم أشأ أن أعترف بذلك إذ إنّه سيعقّد الأمور ويزيد حتمًا من مخاوف الضابط على أمن إسرائيل، ما يدفعه بالتالي إلى إطالة الاستجواب.

سأل: 'هل عشت في دمشق من قبل'؟

'لا'، أجبته باقتضاب.

لم يكن مزاجي رائقًا لأخبر الضابط أنّ والدتي المدمنة على العمل، كانت تمتلك داراً للنشر والطباعة، ودأبت حتى بلوغي الثامنة عشرة من العمر، عندما غادرت عمّان لدراسة العمارة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، على التخلّص من أطفالها الأربعة كل صيف. كانت ترسلنا في الأسبوع الأوّل من عطلتنا الصيفيّة إلى منزل والديها في دمشق أو إلى أقاربها في بيروت. وكنت أنا وشقيقي أيمن نسعد أيّما سعادة بقضاء قسم من العطلة الصيفيّة مع خالتينا غير المتزوّجتين، ناهدة وسعاد (سمّيتُ باسمها) اللتين كانتا تدلّلاننا وشقيقتيّ المراهقتين. كانتا تأخذاننا لقطف الكرز من بيت خالتي فريزة في مصيف الزبدانيّ السوريّ. وفي أيّام الجمعة، كنّا نساعد خالتيّ في توضيب الطعام والبطّيخ استعداداً للنزهة في أحد المطاعم العديدة المنتشرة على طول نهر برَدى (الذي يمتلئ بالبطّيخ البارد)، في منطقة دمّر الفخمة. وكان معرض دمشق الدوليّ من أبرز المحطّات في عطلتنا الصيفيّة، حيث تشتري لنا خالتي ناهدة دائمًا ما كانت تعتقد أنّه أحدث المنتجات الروسيّة: مجموعة من الدمى الخشبيّة الروسيّة (ماتريوشكا) لي، وسيّارات وطيّارات خشبيّة لأيمن. وعندما تنضب عندها الأفكار، كانت تأخذنا لنمشي في سوق الحميديّة، حيث نطفئ ظمأنا بالبوظة العربيّة بالفستق والمِسكة (المصطكى) العربية من محلّ بكداش. ولا أزال أذكر بعد نحو

أربعين سنة طعم المِسكة. وعند العصر، عندما تأخذ خالتاي القيلولة، كنّا نلعب ونركض مع أبناء أخوالي الكثر حول النافورة الكبيرة وسط الديار. لكنّ إجازتنا الصيفيّة لا تكتمل بدون زيارة بيروت. فبعد بضعة أيام من الإلحاح المتواصل، كانت خالتاي توافقان على اصطحابنا، أو أحيانًا إرسالنا لوحدنا، للإقامة عند خالي ممدوح وخالتي فردوس في حيّ زقاق البلاط.

ولتجنّب خالي ممدوح السيّئ المزاج، كنّا نمضي معظم النهار في السباحة على الشواطئ المزدحمة ببيروت الرطبة والحارّة. وفي نهاية الإجازة التي تمتدّ ثلاثة أشهر، وقبل يوم أو اثنين من بدء المدرسة، كنّا نصل إلى عمّان وأوّل ما تشكو منه أمّي لون بشرتنا الداكن. فالدمشقيّات مهووسات بالبياض، ولا يتقبّلن فكرة السمرة الشائعة.

’هل لديك أقارب في سوريا‘؟

’لا‘. انتهى الحوار.

لم يكن مزاجي رائقًا لأبلغ ضابط الأمن في مطار تل أبيب بأنّ أمّي أصغر أفراد عائلتها المكوّنة من أحد عشر شخصًا، وأنّ هذه العائلة هي أسرتها النوويّة فقط. ولم أشأ أن أخيفه بالقول إنّ لي أربع خالات وأربعة أخوال، وأكثر من عشرين ابن خال وخالة. وأنّهم وعائلاتهم جميعًا يعيشون في دمشق.

ومنذ سنة ١٩٥٠، تتسلّم والدتي بقالتها أسبوعيًّا من دمشق. ومن المستحيل إقناعها بأنّه يوجد في عمّان لحم أو خُضَر أو فاكهة جيّدة. وكانت الحال كذلك عندما أقامت في السلط والقدس. وكانت المرّة الوحيدة التي اشترت فيها منتجات محليّة في سنة ١٩٦٨، عندما كنّا نعيش في القاهرة. وغالبًا ما كانت تشكو من أنّ طيّاري شركة الطيران المصريّة غير متعاونين مثل سائقي سيّارات الأجرة بين دمشق وعمّان.

لم يكن مزاجي رائقًا لأبلغ الضابط الإسرائيليّ بأنّ دمشق ليست، كما يُهيّأ له، قاعدة عسكريّة كبيرة مليئة بصواريخ سام ١ وسام ٢، وإنّما مدينة تضجّ بالحيويّة والنشاط، وبخاصّة حيّنا في البلدة القديمة حيث يوجد منزل جدّي.

كان من الصعب عليّ أن أشرح له بأنّني طالما حسدت والديّ، وحتى أجدادي، لأنّهم عاشوا في زمن لم يكن المقام في مدن المنطقة الجميلة، أو التنقّل بينها، شأنًا كبيرًا ولم يتطلّب تدقيقًا أمنيًّا. وطالما كان يثور اهتمامي وفضولي عندما يصف والدي رحلاته بين يافا وبيروت، ومن ضمنها تناول الغداء في مطعم على شاطئ البحر في مدينة صيدا. بل إنّني شعرت باهتمام أشدّ عندما وصفت لي والدتي كيف زارت في سنة ١٩٢٦، وكانت آنذاك طفلة في الرابعة، عائلة والدتها، عبد الهادي، في قرية عرّابة بفلسطين. وطالما فتنتني الطريق التي سلكوها بين دمشق

وعرّابة حيث مرّوا في وادي اليرموك عبر سهول مرج ابن عامر الجميلة وسهل جنين. كانت والدتي تقول، 'توجّهنا أوّلاً إلى أقاربنا في نابلس، وبعد بضعة أيام ذهبنا على ظهور الجياد إلى عرّابة' . لقد سحر ركوب الجياد والدتي، في حين أنّ أشدّ ما يزعجني الآن تعذّر القيام بمثل هذه الرحلة بين عرّابة ودمشق.

ناول رجل الأمن جواز سفري إلى ضابطة أمن جالسة في غرفة خلف مكتب، ثم توارى عن الأنظار، وتركني معها بمفردي.

قلّبتْ صفحات جواز سفري وسألتْ بنبرة جازمة، 'وماذا كنت تفعلين في لندن' ؟

'ذهبت للرقص' ، أجبتها وأنا أنظر في عينيها مباشرة بوجه تعب خالٍ من التعابير، وصوت أكثر جزمًا من صوتها.

أجابتني بصوت أكثر ارتفاعًا وجدّيّة، 'أتظنّين أنّك مهضومة (مرِحة)' ؟

'لا. وهل أنت ضدّ الرقص' ؟ كان صوتي أقلّ ارتفاعًا الآن وأكثر سخرية.

'ما كان الغرض من زيارتك لندن' ؟

'الرقص' ، أجبت مصرّة على رأيي.

وفيما تكرر السؤال والجواب، بدأت تفقد هدوءها وأخذ النعاس يجافيني.

بعد بضع دقائق، رفعت سمّاعة الهاتف وبدأت ترطن بالعبريّة، لغة لا أفهمها.

'ترقص... ترقص... ترقص...' ـ كانت هذه الكلمة تبرز بالإنكليزيّة من بين جملها العبريّة.

لم يكن مزاجي رائقًا لأبلغ ضابطة الأمن الإسرائيليّة أنّني كنت أمضي إجازة في اسكتلندا مع أصدقاء لم أرهم منذ سنة ١٩٨٣، عندما كنت أدرس في جامعة أدنبره.

ولم أشأ أن أوضح لها من هم هؤلاء الأصدقاء. فلن يجديني نفعًا استعراض أسمائهم واحداً واحداً بل سيعقّد الأمور ويطيل التحقيق بشكل غير محتمل.

كانت صداقاتي مع بعض هؤلاء الأشخاص ترجع إلى السبعينيّات وأيام الدراسة الجامعيّة الذهبيّة في بيروت. ومع أنّني منهكة تمامًا، كان لديّ ما يكفي من الحسّ السليم لأدرك أنّ بيروت كلمة رنّانة بالنسبة إلى رجال الأمن في إسرائيل. وبعض هذه الصداقات، مثل صداقتي لأمل وعطا وسلوى، ترجع إلى الخمسينيّات والستينيّات، إلى سنيّ طفولتي ومراهقتي ونشأتي في عمّان.

عندما دخل رجل أمن طويل وضخم الجثّة (من الواضح أنّه رئيسها) غرفة الاستجواب، أيقنت، أكثر من أي وقت مضى، أنّ

على المرء ألا يخاطر بمزج الصداقة بالمسائل الأمنيّة، لا سيّما إذا كانت تعني أمن دولة إسرائيل.

ازداد قلقي عندما تبادل ضابطا الأمن بضع كلمات بالعبريّة.

سأل الضابط بشكل مرعب وجازم، فيما ينظر إلى عينيّ مباشرة، 'ماذا كنت تفعلين في لندن'؟

'أرقص'، قلت مصرّة على جوابي.

'أتعلمين أنّ عدم التعاون معنا في المسائل الأمنيّة يؤدّي إلى توقيفك'؟

أجبت بسرعة مستسلمة لهذا الحكم المجحف، 'لا بأس، لكن عليّ الخروج وإبلاغ إبراهيم المسكين الذي ينتظر خارج المطار منذ ساعات لكي يقلّني'.

'لا، لا يُسمح لك بالخروج، ومن هو إبراهيم؟ هل هو قريبك'؟

لم يكن مزاجي رائقًا ولم أشأ إبلاغ ضابطي الأمن بأنّ إبراهيم ليس قريبي بالضبط، إذ ليس مسموحًا لأيّ من أقربائي، ولا لزوجي أو أي من أصدقائي في رام الله بالمجيء إلى المطار. وتساءلت إذا كان الضابطان يعرفان أنّني، مثل كثير من الفلسطينيّين الآخرين المقيمين في الأراضي المحتلّة، أحتاج إلى عدّة أنواع من التصاريح

للتنقّل: تصريح لدخول القدس، وآخر للذهاب إلى الأردن، وثالث لدخول إسرائيل، ورابع للعمل في إسرائيل، وتصريح مستحيل لدخول غزّة، وتصريح لمدّة أربع ساعات لاستخدام المطار، ما يتيح لنا ما يكفي من الوقت للوصول إلى هناك إذا لم يثقب دولاب أو يقع حادث، لا سمح الله.

وإبراهيم هو أحد سائقيْ سيّارة أجرة أو ثلاثة في رام الله لديهم سيّارة ذات لوحة صفراء، ما يتيح له جلب المسافرين من المطار.

لم يكن مزاجي رائقًا لإبلاغ الضابط بأنّ أحد أحلامي أنّ يتمكّن زوجي من لقائي من المطار أو على جسر اللنبي عندما أعود من إحدى رحلاتي. لكنّ ذلك امتياز لا يمتلكه أي فلسطينيّ.

'لا يمكنك منعي من الخروج لأبلغ إبراهيم بأن يرحل. فليس من العدل أن يواصل الانتظار، لا سيّما أنّكم ستبقونني هنا مدّة أطول'.

'لا يمكنك الخروج!' صرخ الضابط غاضبًا.

'انظر كيف سأفعل ذلك'، أجبته فيما استدرت وبدأت أمشي خارجة من غرفة الاستجواب إلى قاعة الوصول المليئة بالمسافرين، وكثير منهم قادم للاستمتاع بالشمس وشواطئ إسرائيل الجميلة والهادئة. كان قلبي يخفق بقوّة وأنا أسير نحو بوّابة

الخروج، فيما يسير رجلا أمن بالقرب منّي، واحد على كلّ جانب. واستمر أحدهما يردّد، 'لا تجبرينا على فعل ما لا نحبّ أن نفعله'.

رددت صارخة، 'نعم، اعتقالي أمام هؤلاء السيّاح سيكون مشهداً غير مؤاتٍ للسياحة في إسرائيل. لمَ لا يمكن أن أعامل كأيٍّ من هؤلاء السيّاح'؟

في ذلك الوقت، صرنا نحن الثلاثة واقفين خارج قاعة الوصول، أمام إبراهيم السائق.

'الحمد الله على السلامة دكتورة سعاد، خير انشا الله، إيش في'؟ قال وهو يصافحني بشكل رسميّ، وعيناه مثبتتان على رجلي الأمن.

وأضاف محاولاً أن يعرف قصّتي أنا والرجلين اللذين يصحبانني ويرتديان ملابس مدنيّة والعداء بادٍ على وجهيهما، 'أين حقائبك'؟

'إبراهيم، هذان رجلا أمن. إنّها قصّة طويلة. باختصار، أنا رهن الاعتقال وخرجت لأبلغك ألا تنتظرني مدّة أطول ـ أرجو أن تتصل بسليم وتخبره بأنّني اعتُقلت في المطار'.

'اعتُقلت'؟ سأل إبراهيم مذهولاً.

طمأنته قائلة، 'لا تقلق يا إبراهيم. الأمر ليس خطيرًا. اعتُقلت لأنّني أبلغتهم بأنّني ذهبت إلى لندن لأرقص'.

'ترقصين؟ هل قلت ترقصين'؟ وبدا الذهول التامّ على إبراهيم الآن.

يا الله، هذا كل ما أحتاج إليه. يبدو أنّ إبراهيم أكثر انزعاجًا من رقصي في لندن من ضبّاط الأمن الإسرائيليّين. ماذا يسعني أن أقول؟ طالما اعتقدت أنّ الاحتلال أفسد روح الإسرائيليّين والفلسطينيّين على السواء.

كانت هذه الكلمات الأخيرة التي تبادلتها مع إبراهيم قبل أن يقترب أحد رجلي الأمن منه ويطلب منه مرافقتهما. توارى الرجال الثلاثة المعادون للرقص في الداخل، فيما وقفت خارج المطار بدون جواز سفر أو حقائب.

يكفيك هذا القدر من الطيش يا سعاد، بدأت أوبّخ نفسي.

بعد أقلّ من نصف ساعة، ظهر إبراهيم عبر بوّابات قاعة الوصول الكبيرة، وكان يدفع عربة الحقائب بيد، ويلوّح بجواز سفري في اليد الأخرى. وقال وقد ارتسم على وجهه تعبير الانتصار، 'هيّا بنا نذهب يا سعاد'.

'ماذا حدث يا إبراهيم؟ أخبرني'.

قال متبجّحًا: 'هادا حديث رجال. هيّا يا سعاد لنخرج من هنا. لقد أخبرتهم أنّك غريبة الأطوار إلى حدّ ما'.

’إبراهيم‘، قلت صائحة.

’لكنّني أبلغتهم أيضًا أنّك أستاذة مهمّة في دائرة العمارة بجامعة بيرزيت، و... و... و... وماذا أخبرتهم سوى ذلك‘؟

’توقّف يا إبراهيم. خلص‘! فجأة أدركت مقدار ما يعرفه إبراهيم عن كل من يعيش في رام الله!

الاستماع إلى النميمة في رام الله هو الطريقة الوحيدة التي تجعله يطيق رحلاته المكّوكيّة النهاريّة والليليّة بين رام الله وتل أبيب.

كان أشدّ ما يقلقني هل أفسد إبراهيم الأمور عليّ بطمأنة رجال الأمن في المطار إلى أنّني لم أكن أرقص حقًّا في لندن.

ـ ٢ ـ
الوداع يا أمي

خريف ١٩٨١

كنت أعبر نهر الأردن للمرّة الأولى منذ سنة ١٩٦٧ . كانت تلك بداية خطّتي الطموحة والمثيرة للعيش في رام الله والعمل في جامعة بيرزيت. في ذلك الصباح، شعرت بالتوتّر عندما غادرت عتبة بيتنا في عمّان وسألت أمّي، 'ماما، هل لك أن تشرحي لي كيف يمكنني الوصول إلى بيتنا في يافا' ؟

تنهّدت وقالت، 'سيكون الأمر صعبًا جدًّا إذ إنّك لم تذهبي إلى يافا أو إلى بيتنا البتّة. فقد ولدت أنت وأخيك أيمن بعد ذلك ببضع سنوات' .

أعترف أنّني في حقيقة الأمر شعرت بالانزعاج وبعض المهانة من ملاحظة أمي، لذا أجبت بسرعة، 'صحيح أنّني لم أزر بيتنا في يافا لكنّني أشعر بأنّني أعرفه جيّداً. أليس هو بجوار محطّة القطار في المنشيّة، غير بعيد جداً عن مسجد حسن بيك، وليس بعيداً عن سوق إسكندر عوض؟ إنّه على بعد دقيقتين مشيًا عن البحر، وكان والدي يجتاز الطريق مرتديًا ثياب البحر ومنشفته متدلّية فوق كتفه. كان يسبح كل صباح، شمسًا كان أم مطراً، أليس كذلك؟ إنّه منزل من طبقتين ذو درج على أحد جانبيه. وثمة ثلاثة دكاكين في الطبقة السفليّة، أحدها دكّان حلاق. سأعرفه حتمًا عندما أرى شجرة الليمون الكبيرة عند مدخل البيت. أوليس المنزل العلويّ بيتنا، والمنزل السفليّ بيت عمّتي نعيمة وعمّي عمر؟ هل كانت جدّتي تعيش معنا أم مع عمّي عمر في ذلك الوقت؟ ومتى توفّيت جدّتي بالضبط؟ توفّيت قبل وقت طويل من سنة ١٩٤٨ بالطبع. كانت شقيقتاي أروى وعنان لا تزالان صغيرتين جداً، أليس كذلك؟ أم لم تكن عنان قد ولدت بعد؟ على أي حال يجب أن يكون قريبًا جداً من برج الساعة ـ أذكر أنّ والدي أخبرني كيف استقلّ عربة من هناك عندما ذهب أوّل مرّة للدراسة في الجامعة الأميركيّة في بيروت في خريف سنة ١٩٢١. كان بصحبة جدّه إذ توفّي والده في حادثة وهو لا يزال يافعًا. أتذكرين يا أمّي...'، وتابعت الكلام.

أوقفت أمّي هذا السيل من الكلام بقولها، 'لقد وصل التاكسي يا سعاد' .

عندما رفعت بصري، وجدت أمي منقبضة . كانت تحدّق بي والدموع تترقرق في عينيها المائلتين إلى الخضرة . لم أعرف إذا كانت تبكي لأنّني أعدتها إلى ذكريات يافا ما قبل سنة ١٩٤٨، أو لأنّ لحظة الفراق عن أصغر بناتها التي توشك أن تعبر نهر الأردن (وهي التي أقسمت ألا تعبره ما دام الاحتلال الإسرائيليّ) قد أزفت أخيراً . وربما الاثنان معًا .

يا الله . . . كم يمكن أن أكون بليدة الإحساس في بعض الأحيان . كان يجدر بي أن أدرك أنّ التوقيت سيّئ .

لكنّني كنت شديدة الاضطراب .

'أعتقد أنّه حان وقت الوداع يا أمّي' . بدأ صوتي يختنق .

قبّلت إحدانا الأخرى . وخرجت من الباب بأسرع ما يمكنني . وفيما كنت أفكّر في الالتفات، سمعت صوتها المتهدّج، 'اتّصلي بنمر، ابن عمّ والدك، وسيأخذك إلى هناك' .

فيما تقدّمت السيّارة عبر وادي الأردن نحو جسر أللنبي، بدأت صور فلسطين ١٩٤٨، التي جمعتها من قصص والديّ على مدى الثلاثين سنة الماضية، تومض في رأسي . وتذكّرت أيضًا صوراً ترجع إلى طفولتي . تذكّرت فندق الكازينو على البحر الميّت

بحديقة حيواناته الصغيرة والمثيرة. وتذكّرت بحنان ساشا، القردة الصغيرة التي فقدناها نتيجة لحرب ١٩٦٧. كانت أمّي هي التي أحضرت ساشا من بيروت. وبما أنّنا لم نستطع العثور لها على شريك مناسب في عمّان، أرسِلتْ في شهر عسل إلى حديقة حيوانات فندق الكازينو. وأعتقد أنّ ساشا، مثل العديد من الأزواج حديثي الزواج في ذلك الوقت، استمتعت بهدوء الفندق. كنّا نزورها في أمسيات الخميس، ونمضي الليل هناك. وغالبًا ما لازمتني ذكريات انعكاس البدر على صفحة البحر الميّت.

في وقت مبكّر من صباح يوم الجمعة، كان والدي يقود بنا السيّارة إلى القدس ويأخذنا إلى دكّان حلويّات زلاطيمو في البلدة القديمة. قال لي ذات مرّة فيما كنت أقف مشدوهة أمام عارف وهو يرمي قطعة عجين وراء أخرى مدوّمة في الهواء، 'تذكّري أنّ هذا الدكّان فتحه جدّ عارف في سنة ١٨٧٨، يعني قبل ثمانين عامًا'. وبعد بضع دقائق كانت حلوى المطبّق، المغمورة بالقطر، توضع في صوانٍ نحاسيّة على الطاولات الرخاميّة البيضاء أمامنا. وفيما أغمس أصابعي في المطبّق، كنت أحاول عدّ قطع العجين التي دُوّمت في الهواء منذ أن ابتدأ جدّ عارف هذا السيرك الرائع.

كان صوت أمّي يقاطعني قبل أن أتمكّن من عدّها، 'سوسو، أكملي تناول المطبّق، أو اذهبي لغسل يديك'. وما زلت أتساءل إلى الآن، حتى بعد مرور أكثر من سبعة وثلاثين عامًا.

الآن بعد مرور أربع عشرة سنة على زيارتي الأخيرة للقدس، أشعر بحرج شديد عند الاعتراف بأنّ زلاطيمو هو أكثر ما انطبع في ذاكرتي من كل معالم القدس، أو حتى فلسطين.

كان فندق عودة في رام الله مكانًا آخر يأخذنا والداي إليه. وما زلت أذكر بوضوح أشجار الصنوبر العالية أمامه، والموسيقى الحيّة التي لم أحبّها البتّة، وبخاصّة موسيقى التانغو. لا أعتقد أنّني كنت يومًا رومانسيّة.

'أخرجوا جوازات سفركم وتصاريحكم للتدقيق'.

وضعت تعليمات السائق حدًّا قاطعًا لأحلام اليقظة. دسست يدي بعصبيّة في محفظتي وبدأت أبحث عن التصريح. كنت أعرف أنّه معي، إذ إنّني حدّقت في كلماته العبريّة عدّة مرّات بالفعل. شعرت بانزعاج شديد من حمل وثيقة بالعبريّة تجيز لي دخول فلسطين. وتساءلت عمّا تقوله عنّي. تساءلت إذا كانت تذكر أنّ والدي من يافا، وأملت ذلك.

استغرق إيجاده بضع دقائق، ثمّ سلّمته مع جواز سفري إلى الجنديّ الأردنيّ. وانتظرت ردّ فعله بقلق. وعندما أعادهما إليّ، تنهّدت وعدت بسرعة إلى أحلام اليقظة.

كنت أحاول أن أتآلف مع شيء مجهول ومع ذلك مألوف جدًّا. شعرت بقلق شديد. فمن الصعب عليّ الاعتراف أنّني في الواقع... لا أعرف فلسطين.

كنت في السادسة عشرة عندما وقعت حرب ١٩٦٧. لم يكن لدينا أقارب في الضفّة الغربيّة، لكن كان لوالدي العديد من الأصدقاء المقرّبين هناك. لقد وُلدت في دمشق، ونشأت في عمّان، ودرست في بيروت. وفجأة أدركت أنّ معرفتي بفلسطين جاءت فقط عن طريق استذكارات والديّ وذكريات طفولتي المتفرّقة. وأذكر كم سررت عندما أخبرتني والدتي، في وقت ليس ببعيد، أنّها حملت بي في القدس. يا له من خبر جميل، وبخاصّة إذا جاء الحمل بعد تناول حلويّات زلاطيمو!

حاولتُ جاهدة أن أبدّد خوفي المتنامي من أن أصبح غريبة في فلسطين. لقد بدا كل شيء منطقيًّا عندما حاولت إقناع والدتي بأنّ قراري الذهاب إلى الأراضي المحتلّة والعيش فيها لم يكن ضربًا من الجنون.

وغالبًا ما كنت أقول، 'ولو يا أمي هاي فلسطين!' كان لهذه الجملة الوحيدة مفعول السحر عليها.

طوال حياتها لم تخسر أمّي أي نقاشٍ أو جدال.

يا الله كم افتقدها بالفعل!

لم تتفهّم قراري حقًّا، لكنّني أقدّرها لأنّها لم تحاول إقناعي بخلاف ذلك. بدا لها ذلك الجنون بذاته.

ربما كان يجدر بي أن أدعها تربح هذا الجدل أيضًا.

ـ ٣ ـ

العودة إلى يافا

كنت أنتظر أن تمتلئ سيّارة الأجرة من رام الله إلى بيرزيت بركّاب آخرين عندما جاء رجل أشيب الشعر ذو مظهر مثير للفضول. اقترب منّي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وتهدّلت عيناه وقال بعفويّة، 'اسمي سليم تماري، ما اسمك'؟

'سعاد عامري'. باغتتني قليلاً طريقته المسترخيّة والعفويّة، إذ لم يكن الناس ودودين جدًّا منذ أن وصلت قبل يومين.

'لا بدّ أنّك شقيقة عنان: التقيت بها وبزوجها عابدين في الأسبوع الماضي في بوسطن. وذهبنا معًا لمشاهدة معرض جورجيا أوكيف. أعرف أيضًا شقيقتك أروى ـ هل ما زالت رائعة الجمال؟

كانت جامحة وكنت مفتونًا بها، مثل العديد من الشبّان الآخرين في جامعة بيرزيت في ذلك الوقت. كان ذلك في سنة ١٩٦٤، أو ١٩٦٥...'.

يا لها من طريقة غريبة لبدء الحوار.

جلسنا معًا على المقعد الخلفيّ لسيّارة الأجرة وتابعنا الحديث.

'إنّه يومك الأول في جامعة بيرزيت'؟

'نعم، لقد وصلت من عمّان قبل يومين فقط'.

'رائع، وأين تقيمين'؟

'في إحدى شقق جامعة بيرزيت في شارع القدس'.

'أعرف أين تقع بالضبط'.

'إذًا هل أنت من تماريّي يافا'؟ سألت مع أنّني أعرف أنّ آل تماري من يافا.

'نعم'، أجابني بفخر يافاويّ.

'هذا أمر رائع'. وسألت بتردّد: 'ربما يمكنك أن تساعدني في العثور على بيتنا في يافا'.

'بكلّ سرور'.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، التقيت بسليم في كافتيريا الجامعة وقرّرنا التوجّه معًا إلى يافا يوم الجمعة القادم.

تُرى هل سيكون ذلك موعدنا الأول!

في وقت متأخّر من ليل الخميس، تقلّبت في الفراش ولم أستطعِ النوم. الذهاب إلى يافا لأول مرّة في حياتي مع مثل هذا الشخص غير العاديّ سيكون رائعًا. لكنّني شعرت بتوتّر شديد تجاه الموضوع بأكمله. وبدا عقلي مشوّشًا تمامًا. 'ما الأمر يا سعاد'؟ سألت نفسي بصوت مرتفع فيما مددت يدي في الظلام لأضيء المصباح المجاور للسرير.

انهمرت الدموع من عينيّ.

أدركت أنّني لم أكن مستعدّة نفسيًّا للذهاب إلى بيتنا في يافا بدون والدي الذي توفّي قبل ثلاثة أعوام. وفجأة شعرت بحزن شديد على وفاته، وكأنّه مات للتوّ. وأحسست بغضب غير مبرّر منه، كما لو أنّه خذلني. شعرت بوحشة تامّة. فطالما تصوّرت أنّنا نسير في شوارع يافا يداً بيد، فيما يدلّني على المواقع:

'هذه هي المدرسة العامريّة حيث درست أنا وعمر' و'هنا بالضبط كنت أسبح كل يوم، سواء أكان الطقس مشمساً أم ماطراً'.

وبعد مسيرة طويلة، 'هذه هي المقبرة التي ووري فيها أبي وأمّي'.

تخيّلت بعد ذلك أبي يحدّق بي ووجهه خال من أي تعبير تقريبًا ويقول، 'انتظريني هنا يا سعاد، لن أتأخّر كثيراً'، ثم يرتقي ببطء درجات السلّم الموصلة إلى بيتنا.

مسحت دموعي عن وجنتيّ.

نهضت من الفراش وتوجّهت إلى الحمّام ونظرت إلى وجهي في المرآة.

يا إلهي... ماذا سيقول سليم غداً؟ هل سيغيّر رأيه بأنّني أمتلك أجمل عينين رآهما في حياته؟ أم تراه قال إنّهما أكثر عينين معبّرتين رآهما في حياته. إذا كانت الأخيرة، فلا حاجة بي إلى القلق. لكن عليّ أن أكفّ عن البكاء على أي حال.

تناولت مكعّبين من الثلج وعدت إلى الفراش. وما إن أغمضت عينيّ تحت كمادتي الثلج حتى تدفّقت في رأسي الصور من رحلة والدي الأخيرة إلى منزله في يافا.

تذكّرت كم تألّم واكتأب عندما زار منزله في سنة ١٩٦٨. لم يستطع أن يتحمّل الموقف. لا شكّ في أنّ الأمر كان مؤلمًا جدًّا، وها أنا الآن أدرك ما عناه.

'شعرت بألم شديد وغضب وإحباط عندما لم تسمح لي العائلة اليهوديّة التي تعيش في المنزل بالدخول. ارتعبوا عندما رأوني واقفًا عند باب منزلنا/منزلهم. فما كان منهم إلا أن أغلقوا الباب

واختبأوا. لم يستجيبوا للقرع المتواصل على الباب. كنت آمل أن يفتحوا الباب مرّة ثانية لأشرح لهم بأنّني لا أريد سوى زيارة المنزل، ومحاولة إنعاش ذكرياتي عما كانت عليه الأشياء. كنت أريد أن أعرف إذا كان أي من الأثاث لا يزال موجوداً. كنت أفتقد مكتبتي على وجه الخصوص. لم أكن أعتزم أخذ أي شيء من المنزل. ولو كنت أعتزم ذلك، فإنّني أعرف جيّدًا بأنّهم لن يسمحوا لي. لم أكن أنوي أن أثير جلبة إذ إنّني لا أستطيع احتمال ذلك. وقد درّبت نفسي في الشهر السابق للزيارة على كبت مشاعري، والأهمّ من ذلك ردود أفعالي. فلا المشاعر ولا ردود الأفعال العاديّة مسموح بها، وكل شيء يجب أن يكون خاضعًا للسيطرة القصوى'.

في هذه اللحظة، بدا أنّ والدي يحدّث نفسه بدلاً من أن يحدّثنا.

'فكّرت أنّ الشيء الوحيد الذي سأسمح لنفسي بأن أفعله، بمجرّد سماحهم لي بدخول المنزل، هو السؤال عن صورة والدتي، هل لا تزال معلّقة هناك'.

توقّف والدي طويلاً قبل أن يضيف بنبرة مختلفة قليلاً، 'لم تحبّ والدتكم هذه الصورة قطّ. كانت ترفض أن تكون صورة والدتي معلّقة فوق فراشنا الزوجيّ الأول بدلاً من صورتها. لقد علّقتها هناك قبل أن نتزوّج، وكان يعزّ عليّ كثيرًا أن أرفعها أو استبدل صورة غيرها بها'.

أخذت عينا والدي الصغيرتان الحادّتان تغوران ببطء، ثم أسند ظهره إلى مقعده. وأخفت يداه المتغضّنتان الداكنتان القسم الأسفل من وجهه الذاهل.

وبعد دقيقة أو اثنتين، أضاف بضحكة عصبيّة مرتفعة وعينين دامعتين 'على أي حال نجوت من ردّ فعل والدتكم بعدم السماح لي بدخول منزلنا في يافا'.

لا يمكن أن تنتهي هذه القصّة إلا بملاحظة مجنونة كهذه!

ذهب إلى الفراش مريضًا. ولم يستطع أحد أن يكلّمه في الأيام القليلة التالية.

قدت سيّارتي الصغيرة من طراز فيات ١٢٧ على طريق القدس تل أبيب لأول مرّة في حياتي، فزاد ذلك قلقي المرتفع أصلاً، وهو ما حاولت أن أخفيه بالإفراط في الثرثرة.

'هل ولدت هناك يا سليم'؟ سألت في محاولة ملتوية لمعرفة عمره.

'نعم، كان عمري سنتين ونصف السنة عندما غادر والداي يافا في سنة ١٩٤٨'.

ستّ وثلاثون سنة فقط! إنّه يبدو أكبر بكثير بالتأكيد، لا بدّ أنّ شعره الأشيب هو السبب.

بدأ خوفي يزداد فيما اقتربنا من برج الساعة.

لاحت بلدة يافا القديمة أمامي لأوّل مرّة في حياتي.

يا الله، إنّها رائعة حقًّا!!

انتابت قشعريرة كبيرة جسدي بأكمله.

وبدأت الدموع تنهمر بهدوء على وجنتيّ.

مسحت عينيّ.

أردت أن أعرف إذا كنّا قد اقتربنا من منزلنا في المنشيّة، لكنّني لم أجرؤ على السؤال.

سألت نفسي، هل تريدين حقًّا الذهاب إلى هناك يا سعاد؟

هل تريدين أن ترينه حقًّا؟

هل تريدين حقًّا الالتقاء بالعائلة اليهوديّة التي تعيش هناك؟

هل أنت مستعدّة نفسيًّا أو عاطفيًّا لهذا اللقاء الذي ربما لن تتمكّني من احتماله؟

ماذا لو؟

ماذا لو؟

لاحظ سليم الحالة التي أنا فيها، فلاذ بالصمت.

في وقت لاحق توقّفنا عند صيدليّة فخري جديّ في شارع إسكندر عوض. كان يوجد مع فخري، قريب سليم، رجل مسنّ

بدا كأنّه إنكليزيّ. كان طويلاً أشقر الشعر ذا عينين زرقاوين. وأغرب ما فيه طريقة لبسه: بدلته الكتّانيّة البيضاء، وربطة عنقه الرفيعة الصفراء، وحذاؤه الكلاركس الأبيض والأسود (كان والدي يرتدي حذاء مماثلاً أيضًا)، بالإضافة إلى وقفته، أعادتنا فجأة إلى فترة الانتداب البريطانيّ. ظننت أنّ حجم الشريط الأسود على قبّعته البيضاء مبالغ فيه. كان يعتمر قبّعته مع أنّنا في أواخر تشرين الأول وهو في الداخل بعيداً عن الشمس.

أردت أن أسأل سليم، 'هل تركوه وراءهم إذ كان عليهم الانسحاب على عجل'؟

سرعان ما عُرّفنا عليه. إنّه السنيور ألونزو.

سألت محاولة وضع حدّ لتخيّلاتي المتواصلة عن الموقف، 'هل أنت من يافا يا سنيور ألونزو'؟

أجاب فخري، 'السنيور ألونزو من يافا بالتأكيد، لقد عاشت عائلته، المتحدّرة من إيطاليا في الأصل، مئات السنين هنا. وعائلة ألونزو وعائلتي من بين العائلات اليافاويّة القليلة التي بقيت ولم ترحل في سنة ١٩٤٨. والسنيور ألونزو هو أيضًا القنصل الفخريّ العامّ لإيطاليا'.

القنصل العامّ لأيّ بلد في أي دولة؟ اختلط عليّ الأمر تمامًا لكنّني حافظت على هدوئي. وعندما وقع نظري على سليم، لاحظت أنّه أكثر ارتباكًا وتشوّشًا منّي!

شعرت بضرورة تغيير الموضوع، وعندئذ سأل سليم، 'هل تعرف يا سنيور ألونزو أين كانت تسكن عائلة العامري'؟

'ظننت أنّك تماريّ من العجمي'، قال السنيور ألونزو بلكنة عربيّة غريبة.

'نعم أنا تماريّ، وبيتنا يقع في أعلى التلّ هناك. واليوم يستخدمه الجيش الإسرائيليّ كمركز للتجنيد'.

'هذا صحيح'، ردّ السنيور ألونزو.

'إنّه منزل عائلة سعاد الذي نبحث عنه، آل العامري'، أوضح سليم.

'إمم... آه... عامري، عامري'.

'أجل، عامري'، قلت وأنا أشعر بإثارة وأمل عظيم.

سأل بتردّد، 'هل هي... 'هل هي... إمم... عائلة مسلمة'؟

'نعم'، أجبت بصوت منخفض واعتذاريّ دونما سبب واضح.

'آه... لا بدّ أنّه تحت تحت... تحت'، قال بصوت لا مبالٍ وإيماءة بيده تنمّ عن لامبالاة أكثر.

سألت محاولة أن أنقذ موقفًا يزداد إحراجًا وكافكيّة، 'هل هو في المنشيّة أو قريبًا منها يا سنيور ألونزو'؟

’أجل، أجل، تحت تحت‘، قال بالنبرة نفسها والإيماءة المستعلية نفسها.

كنت مشدودة الأعصاب وأنا أحاول معرفة مكان منزلي، وها هو ذا السنيور ألونزو بلباسه وسلوكه وكأن شيئًا لم يتغيّر - كأنّ الانتداب البريطانيّ لم ينتهِ في سنة ١٩٤٨، وكأنّ المدينة لم تفقد معظم سكّانها العرب بعد حرب ١٩٤٨، وكأنّ دولة إسرائيل لم تقُم قطّ. كما أنّ انحيازاته وعنصريته لا علاقة لها بالزمان والمكان - من الواضح أنّه كان مهتمًّا بطبقتي وديني أكثر من اهتمامه بمساعدتي في إيجاد منزلنا.

النظرات المتبادلة بيني وبين سليم عنت أنّ الوقت ربما أصبح مناسبًا للذهاب.

’سررنا بلقائك يا سيّد ألونزو‘.

أجاب، ’بلّغ تحيّاتي إلى ماري وإدمون‘.

أومأ سليم برأسه، على الرغم من أنّ والده، إدمون، توفي قبل بضع سنوات، وقال، ’إلى اللقاء يا سيّد ألونزو‘.

بعدما خرجنا من الصيدليّة، قال سليم بنبرة اعتذاريّة، ’يا له من إنسان غريب‘!

نظرت إليه بسرعة وقلت، ’لا عليك يا سليم، كان الأمر مسلّيًا‘.

بعد صمت طويل، توقّفت ونظرت إليه ثانية وقلت متردّدة، 'أتريد الحقيقة يا سليم؟ لا أريد حقًّا أن أجد منزلنا في يافا! لا أعتقد أنّني قادرة على احتمال ذلك...'.

انهمرت دموعي.

مشينا على غير هدى في الشوارع. وسمعت أشخاصًا يتحدّثون بالعبريّة، لكنّني لم أنظر إليهم مباشرة. عبرنا الأزقّة الضيّقة لما كانت ذات يوم بلدة عربيّة مزدهرة، وهي اليوم 'مستعمرة للفنّانين الإسرائيليّين'. كيف يمكن أن يكون الفنّانون مرهفي الحسّ إلى هذه الدرجة!

بعد بضع ساعات، كنّا في طريق عودتنا إلى رام الله. وقد سمح الصمت المطبق في السيّارة لأفكاري بالانجراف. ووجدتني ألوم والدي.

'لا يمكنك أن تتخلّى عنّي هكذا، حتى إذا متّ. أعتقد أنّني لن أتحلّى بالشجاعة الكافية لكي أزور منزلنا في يافا بدونك'.

مضت أربع وعشرون سنة بالضبط منذ أن زرت يافا لأول مرّة.

لقد زوّدني لقائي بالسنيور ألونزو بقصّة طريفة أرويها كلّما سئلت إذا زرت يومًا منزلنا هناك.

غالبًا ما يُنهي الضحك القصّة عند هذا الحدّ.

ـ ٤ ـ

هويّتي ملحمة السنوات السبع (١٩٨١ ـ ١٩٨٨)

لم أكن آبه بها .

كنت سئمًا .

دعوتها إلى العشاء .

فاستجابت

كان عشاء مملاً جدًّا .

لم يكن هناك ما يقوله أحدنا للآخر .

طلبت يدها .

فوافقت .

وعشنا معًا منذ ذلك الحين'، أجابني أحد الأصدقاء عندما استفسرت عن زوجته.

لم يكن طلب الزواج بي مختلفًا كثيرًا. ولعلّني لذلك أعجبت بقصّة صديقي التي رواها دون لفّ أو دوران.

خريف سنة ١٩٨١

كنت مغرمة بجنون. وكل ما أريده هو أن أكون بقربه.

كان في رام الله.

وأنا في أدنبره.

وحدها فواتير الهاتف جعلت والدته تشتبه في أنّنا متحابّين.

كانت كل مكالمة هاتفيّة تترك فيّ إحساسًا لا يُطاق بالخواء.

وبعد كل حوار هاتفيّ تبدأ الهلوسات. ماذا لو لم أتمكّن من العودة إلى رام الله؟ وماذا لو رفض الحاكم العسكريّ الإسرائيليّ منحي تصريحًا لزيارة رام الله؟ وماذا لو رفض منح سليم تصريح مغادرة لزيارتي في أدنبره؟ وما شأن الحاكم العسكريّ ليتدخّل في علاقتنا الغراميّة؟

غالبًا ما كان الشوق المتزايد للحبيب وكثرة المخاوف والقلق تُنسيني سبب وجودي في أدنبره.

يا الله، ماذا سيحصل لأطروحتي؟ كيف يمكنني أن أكتب عن العمارة الفلسطينيّة الشعبيّة إذا لم أعد ثانية إلى فلسطين؟ صحيح أنّ شعبيّة تعني عمارة بدون معماريّين، لكنّ ذلك لا يعني شهادة دكتوراه بدون عمل ميدانيّ.

يا الله، أي ورطة أوقعتيني بها يا فلسطين!

ربيع ١٩٨٢

بدأ كل شيء في سنة ١٩٨٢، بعد الغزو الإسرائيليّ للبنان. فقد قدمت من عمّان لأعلّم في جامعة بيرزيت قبل بضعة أشهر. ولا يمكنني الادّعاء بأنّني درّست كثيراً في تلك السنة، لأنّ الجامعة أغلقت بأمر عسكريّ لمدّة سبعة أشهر من العام الدراسيّ الذي يمتد تسعة أشهر. وقد ترك لي ذلك الكثير من الوقت لأقع في غرام أشياء كثيرة.

بعد مرور وقت قصير على الغزو، استدعى الحاكمان العسكريّان لرام الله ونابلس أساتذة من جامعتي بيرزيت والنجاح وخيّراهم بين التوقيع على بيان مضادّ لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة أو إلغاء أذون العمل التي لديهم وإبعادهم عن البلد.

الإبعاد يعني استحالة العودة إلى فلسطين.

ولسوء حظّي، كنت من أساتذة الشتات الذين ليس لديهم هويّة (بطاقة إقامة) تسمح لهم بالعيش في الأراضي المحتلّة.

وما زلت أصاب بالأرق كلّما ذكرت تلك الأيّام المحطّمة للأعصاب.

كان الأمر شبيهًا بالمسلخ. وكنّا جميعًا ننتظر أن نُستدعى، ونرفض (بالطبع) التوقيع على البيان المضادّ لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، ونفقد أعمالنا، وفي حالتي أفقد حبيبًا، ونُبعد في النهاية.

جاء دور الأستاذ محمّد رشيد من جامعة بيرزيت ذات يوم، وفي اليوم التالي الأستاذ إسماعيل علي، وبعد بضعة أسابيع الدكتور منذر صلاح، رئيس جامعة النجاح، وهكذا.

كلّما سمعت عن ترحيل آخر، ارتجفت أوصالي. وشاهدت حياتي وأحلامي تتكسّر أمام عينيّ.

حاولت التفكير في استراتيجيّات بديلة. كنت مولهة لدرجة أنّني فكّرت جدّيًّا فيما لا يمكن تصوّره، التوقيع على البيان.

لمَ لا أكتب إلى عرفات وأشرح له كم أحب بجنون؟ إنّني واثقة من أنّه سيتفهّم ما هو الحبّ. لا شكّ أنّه على علم الآن أنّني طالما دعمت منظّمة التحرير. شقيقتي عنان عضوة في المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ؛ وفي سنة ١٩٧٠، استقال والدي من عمله في الأردن دعمًا لمنظّمة التحرير؛ لا بدّ أن يكون عرفات مطّلعًا على

تاريخ عائلتي وأن يدرك أن توقيعي على بيان ضدّ المنظّمة أمر تكتيكيّ فحسب. على عرفات أن يدرك جنون العشّاق وافتقارهم إلى المبادئ (وفي حالته، عشّاق فلسطين). الكل يعرف أنّ عرفات نفسه وقع في الحبّ غير مرّة. وعرفات هو عرّاب التكتيك. وأنا واثقة من أنّه سيتفهّم.

تواصلت الهلوسات أشهر طويلة.

لم أكن أعرف لمَ لم يستدعني الحاكم العسكريّ بعد. ربما ساعدني كوني امرأة في ألا أؤخذ على محمل الجدّ. وربما وردت قصّة غرامي في أحد تقارير العملاء الفلسطينيّين والحاكم العسكريّ الإسرائيليّ لرام الله على علم بها. لا يستطيع المرء أن يتنبّأ بنقاط ضعف العملاء الفلسطينيّين أو المحتلّين؛ ربما جعلهم وقوعهم في الحبّ يتعاطفون مع المحبّين الآخرين! من يدري.

في الواقع كنت واثقة من أنّ أحد العملاء في حيّنا يميل إليّ. كان في الخامسة عشرة وأنا في الثلاثين. فالحبّ لا يعرف الحدود. تمنّيت أن يكون أحد الشروط التي وضعها عندما وافق على التعاون مع الإسرائيليّين ألا يرحّلوا محبوبته.

كنت تائهة، وأردت أن أصدّق أنّ عرفات وجاري والحاكم العسكريّ الإسرئيليّ متعاطفون جميعًا مع قصّة غرامي.

خريف ١٩٨٢

اتُّخذ القرار: عليّ أن أغادر البلد قبل أن أستَدعى أو أرحّل.

قرّرت السفر للدراسة في أدنبره.

انهمرت الدموع على وجنتيّ عندما نقلني سائق سيّارة الأجرة بعيداً عن رام الله، وبعيداً عن سليم. وقف هناك يلوّح مودّعًا فيما توجّهت سيّارة الأجرة نحو وادي الأردن. وعجزت عن تمالك نفسي لحظة عبور الحافلة نهر الأردن فانفجرت في البكاء.

شعرت بنظرات الأربعين مسافراً، وبعض الجنود الإسرائيليّين والأردنيّين في نقطتي التفتيش المتعاقبتين؛ ولعل بكائي زوّدهم بمادّة يتسلّون فيها.

سيطرت عليّ كآبة شديدة في أثناء إقامتي التي امتدّت عشرين شهراً في أدنبره. ولم يستطع جمال المدينة، وسحرها، وغموضها، ومبانيها التاريخيّة، وجبل مقعد آرثر الرائع إبعادي عن حنيني القويّ لمدينة رام الله الصغيرة الرثّة. ولم تضف أيام شتاء اسكتلندا الطويلة الداكنة سوى الحزن إلى تعاستي. مشيت طوال أيام وأنا أحاول أن أشغل نفسي بأدنبره، لكنّ رام الله المحتلّة تحتلّني.

'توقّفي عن البكاء يا سعاد، لا بدّ من حلّ في نهاية المطاف'، جاء صوت سليم بنبرة استرضائيّة عبر مكالمة هاتفيّة بعيدة. وبعد صمت متقطّع قصير أحيانًا وطويل أحيانًا أخرى، قال 'سأجرّب مرّة

أخرى... سأذهب لمقابلة إيمان على الفور... وأنا واثق من أنّ عمّها سيتمكّن من الحصول على تصريح زيارة لك... وإذا لم ينجح ذلك، سأطلب من المحامي مساعدتي في الحصول على تصريح... وسأرى إذا كانت جودي تستطيع المساعدة - أنا واثق من أنّ أحد أصدقائها سيتمكّن من استغلال نفوذه مع الحاكم العسكريّ... وسأقابل ذلك الرجل في القدس - قيل لي إنّ باستطاعته الحصول على تصريح لك بالزيارة عن طريق الرشوة إذا دفعتُ له مئتي دولار'.

كنت أمسح عينيّ وأنفي بظاهر يدي عندما سمعت كلمات سليم المتردّدة، 'إذا لم أوفّق ساضطر إلى أن أتزوجّك يا سعاد'.

'ماذا قلت يا سليم؟ ...

'هل قلت تتزوّجني؟ ...ستضطر'؟

'إلى اللقاء يا سعاد، ساكلّمك لاحقًا'.

لم أعرف كيف أفسّر كلمات سليم. ولم يسعني سوى الابتسام عندما تذكّرت قصّة عرض الزواج التي رواها صديقي.

سرعان ما امتصّت غيوم اسكتلندا الكثيفة قهقهاتي المرتفعة وصرخاتي المعبّرة عن الفرحة. ولم يحل ذلك دون أن يرمقني الاسكتلنديّون ذوو العيون الزرقاء الخجولة بنظرات جانبيّة سريعة.

صحيح أنّني لست رومانسيّة، لكنّ هذا العرض للزواج لا يقبله عقل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أيار ١٩٨٤

أُنقذ سليم إذ تمكّن عمّ إيمان من الحصول على تصريح زيارة لمدّة شهر من الحاكم الإسرائيليّ لنابلس.

كان عليّ أن أدرك أنّه إذا كانت الذاكرة الإسرائيليّة قادرة على استرجاع الماضي بالعودة ألفي سنة إلى الوراء، فلمَ لا تستطيع العودة عشرين شهراً؟

كان البيان ضدّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة بانتظاري على الجسر.

كنت أحسب أنّ ذلك سيبقى أحد أسراري المكنونة إلى أن كتبت هذه الكلمات.

لم أدرك مدى براغماتيّة عرفات إلا بعد مرورعقد من الزمن تقريبًا، عندما طلبت منّي منظّمة التحرير الفلسطينيّة أن أكون عضوة في محادثات سلام الشرق الأوسط في واشنطن. أو لم أدرك كبر حجم الأنا لديّ - عضوة في وفد منظّمة التحرير الفلسطينيّة على الرغم من عار البيان.

تزوّجنا أنا وسليم في ٢٣ كانون الأول ١٩٨٤، بعد ستّة أشهر على عودتي، وخمسة أشهر على انتهاء تصريح الزيارة. قرّرنا بشجاعة أن نعبر الجسر ونحتفل بالزواج في عمّان، إذ ليس من المعقول أن يطلب عمّ إيمان من الحاكم العسكريّ الإسرائيليّ استصدار تصاريح زيارة لكلّ أقاربي في عمّان ودمشق وبيروت.

قرّرنا أن يكون حفل الزفاف صغيراً، إذ لم يكن أي منّا قادراً على التعامل مع حفل زفاف صاخب. بل لم يكن سليم قادراً على التعامل مع حفل صغير: فقد كان مصاباً بالإنفلونزا ودرجة حرارته ٤١ . كان العريس محمرّ الوجه، ويرتدي بدلة اشتراها قبل نحو ثماني سنوات بمناسبة تخرّجه من الجامعة، وكان بين الحين والآخر يختفي في غرفة نوم والدتي فأتوجّه إلى هناك وأجرّه ليعود ويقابل الأقارب القلائل الذين لاحظوا غياب العريس عن الزفاف.

كانت السعادة تغمر العروسين وهما يعبران الجسر معًا، عندما اقتربت جنديّة إسرائيليّة وأخذت تصريح الزيارة الشهريّ الذي حرصت على استخراجه قبل أن أغادر رام الله إلى عمّان ومزّقته أمام عينيّ. وأمرتني ببرود بالعودة إلى عمّان.

اعترضت قائلة، 'إنّني زوجته الآن، ولا يمكنك أن تردّيني على أعقابي. لديّ الحقّ كزوجة أن أعيش مع زوجي'.

بدا أن كلماتي لم يكن لها وقع يُذكر على أذني الجنديّة الصمّاوتين.

'دعيني أوقّع على البيان ثانية'، توسّلتُ دون جدوى إذ لم تكن هي أو سليم يعرفان ما الذي أشير إليه.

ليس هناك شيء أكثر إحباطًا وإذلالاً من الجدال مع جنديّ إسرائيليّ!

لمَ الجدال في قرار اتخذ مسبقًا؟

ذهب العريس باتجاه.

وقفلت العروس عائدة إلى عمّان.

'إذا لم يمنحني هؤلاء الأوغاد إقامة لكي أعيش مع زوجي، فسأبقى مقيمة «غير قانونيّة» طيلة حياتي'، أبلغت محاميًا صديقًا تمكّن بعد بضعة أسابيع من استصدار تصريح آخر بالزيارة لمدّة شهر لأكون مع سليم في رام الله.

ما من محامٍ يمكن أن ينصح موكّله بأن يخالف القانون. لكنّه لاذ بالصمت مدركًا أنّ القرار بأكمله مجحف.

وأصبحت مقيمة «غير قانونيّة».

لديّ حقوق قانونيّة، مثلي مثل المئة وعشرين ألف زوجة فلسطينيّة (مع أطفالهنّ) الأخريات اللواتي يعشن في الأراضي المحتلّة؛ لكنّنا في الواقع نقيم بصورة غير قانونيّة!

هل يتعذّر عليك فهم ذلك؟ كذلك هو الحال بالنسبة إلينا.

كلّما لمحت جنديًّا إسرائيليًّا عن بعد، كنت أخاطر بالقفز من السيّارة والعودة أدراجي لأختبئ ـ إذ سأبعد تلقائيًّا إذا أمسك بي.

استمرّ الوضع على هذه الحال ثلاث سنوات.

مساكين طلاّبي في بيرزيت ـ لا أعرف إذا تعلّموا كثيراً من معلّمة هاربة من القانون.

صيف ١٩٨٧

بعد ثلاث سنوات رنّ الهاتف.

كان المتكلّم جورج من بلديّة رام الله.

'تهانينا يا سعاد! **اسمك على اللائحة**...'

'ماذا'؟

كادت صيحات الفرح الغامر أن تحطّم كؤوس الشمبانيا الكريستاليّة في خزانة غرفة الطعام. قدت السيّارة كالمسعورة في شوارع رام الله وبيرزيت بحثًا عن سليم. توالت الاحتفالات والرقص والطعام والشراب والشمبانيا والموسيقى الصادحة. ولم يستطع الجيران النوم عدّة أيام فيما كنّا نحتفل بهويّتي الجديدة.

مع الإسرائيليّين، ما من أخبار سارّة دون أن يصحبها أخبار سيّئة. فقد طُلب من كل المحظوظين الذين ظهرت أسماؤهم في اللائحة الاستعداد للاحتفال الكبير مع الحاكم العسكريّ الإسرائيليّ ورئيس بلديّة رام الله المعيّن من قبل الإسرائيليّين.

وكأنّه لا يكفي أن نخرق دعوة الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة إلى مقاطعة كل الاجتماعات (ناهيك عن الاحتفالات) مع

الجنرالات الإسرائيليّين ورؤساء البلديّات الفلسطينيّين الذين عيّنتهم إسرائيل، فقد بُثّ الحدث بأكمله في نشرة أخبار الساعة السابعة باللغة العربيّة على التلفزيون الإسرائيليّ.

كنت أنا وسليم محرجين جدًّا من الكشف عن أمر الاحتفال أمام أيّ من أصدقائنا أو أقاربنا أو معارفنا. ودعونا الله ألا يشاهد أيٌّ منهم الأخبار في تلك الليلة.

جرى الاحتفال قبل يومين من عيد الأضحى. وفي هذا العيد يضحّي المسلمون بالخراف، اما أنا وسليم فقد ضحّينا بموقفنا السياسيّ وسمعتنا.

كنت أشعر بتقلّب سليم في الفراش طوال الليل. شعرت بالأسى لحاله. فقد جلبت مزيداً من القلق إلى حياته المحفوفة بالخوف أصلاً.

مرّت أكثر من سبع سنوات من العذاب المتواصل بشأن إقامتي (وأحبّ الاعتقاد أنّه كان بسبب إقامتي). في السنوات الأربع الأولى من السنوات السبع، حاولت أن أكون «قانونيّة»، وذلك يعني الانتظار ساعات طوالاً في مقرّ الحكم العسكريّ كل ثلاثة أسابيع. ويعني أيضًا دفع مئة دولار شهريًّا، ما يقرب من عُشر المعاش الذي أحصل عليه من جامعة بيرزيت. وكان عليّ كل ثلاثة أشهر أن أتوجّه إلى عمّان والانتظار مدّة أسابيع قبل أن يصل

التصريح. كان أسهل عليّ وأوفر بكثير أن أكون غير قانونيّة في السنوات الثلاث الأخيرة. أسهل على أي حال. فقد كنت أخسر احتمال الحصول على راتب الدكتوراه من الجامعة إذ لم يكن بوسعي السفر إلى أدنبره لمناقشة أطروحة الدكتوراه. كنت بالكاد أذكر موضوع أطروحتي، عندما تمكّنت أخيراً، بعد ثلاث سنوات، من السفر ومناقشتها في صيف عام ١٩٨٨.

في الصباح الباكر كنت أنا وسليم نتهيّأ للحفل. بدّلنا ملابسنا عدّة مرّات، وفي النهاية ارتدينا أكثر الألوان إثارة للسأم والضجر؛ لا أحمر ولا برتقاليّ أو أصفر صارخ!

بدونا كلانا تعيسين في ثيابنا الجنائزيّة.

وسرعان ما كنّا وسط عشرات العائلات السعيدة في مقرّ الحاكم العسكريّ برام الله. كان معظم المحظوظات فلاّحات من القرى المجاورة. وكان الأزواج الشبّان الفرحون، تصحبهم أمّهاتهم غير الفرحات جدًّا، يرتدون بدلات العيد الرسميّة اللامعة المصنوعة من قماش الأكريليك. وبدت ربطات العنق العريضة غير المحكمة الشدّ ملائمة للمناسبة السعيدة. وارتدت بعض النسوة الثياب الفلاّحيّة المطرّزة، في حين ارتدت أخريات جلابيب رماديّة أو بنيّة طويلة وغطّين رؤوسهنّ. ظننت برهة أنّهنّ فعلن ذلك عمداً ليختبئن من كاميرات التلفزيون. وربما كان عليّ أن أفعل ذلك أيضاً.

كان الأطفال السعداء ’غير القانونيّين‘، الذين رافقوا أمّهاتهم ’غير القانونيّات‘ (حتى الآن) يلعبون بحريّة داخل المقرّ العسكريّ.

راقبت كيف كان هؤلاء الأطفال فرحين وغير آبهين في أكثر الظروف حرجًا، فبعث ذلك فيّ أملاً كبيرًا بمستقبل فلسطين. وبين الحين والآخر، كانت الأمّهات القلقات يطلبن من أطفالهنّ الهدوء: ’خلص يمّا، هلّق الجندي بيطخّنا‘.

ساد صمت تامّ عندما ظهر الحاكم العسكريّ الإسرائيليّ بزيّه الرسميّ، يليه على بعد خطوة أو اثنتين رئيس بلديّة رام الله المعيّن. وقفنا جميعًا لمصافحتهما.

’هذا ليس الحاكم العسكريّ‘.

سمعت أحد المسنّين معترضًا، فيما نهض ولفّ العباية البدويّة بحركة سريعة حول جسمه القوي.

وأضاف قائلاً: ’هذا كابتن عمير‘.

لم يكن بوسعي أنا أو سليم التمييز بين الحاكم العسكريّ وكابتن عمير. لكن شعر كلانا بالارتياح إلى حدّ ما. ربما يعني ذلك أنّنا لم نخرق تمامًا المقاطعة التي دعت إليها الحركة الوطنيّة.

جال الرجلان المقاطَعان على الجمع يصافحان أيدي الجميع ويربّتان على رؤوس الصغار. وبدا الأمر أشبه بحملة انتخابات منه

باحتفال منح بطاقات الهويّات. وقد تبع مصوّرو تلفزيون الجيش الإسرائيليّ الرجلين عن كثب. طأطأت أنا وسليم رأسينا احترامًا للمناسبة، حتى لامست ذقن كل منّا صدره.

وقف كابتن عمير أمام الحشد وحيّانا بفخر بعربيّة مكسّرة:

'أودّ في البداية أن أعبّغ عن تمنّياتي وتمنّيات الشعب والحكومة الإسغائيليّين بالعيد. كل عام وأنتم بخير'.

'وأنت بألف خير'، رددنا مثل طلاّب الصفّ الأول في مدرسة ابتدائيّة.

'إنّه عيد مضاعف لكل الحاضرين هنا اليوم. لقد قدّم إلينا رئيس بلديّة رام الله هذه اللائحة، وكبادرة دعم له وافقنا على منحكم الهويّات على أمل أن يكون هناك مزيد من التعاون بين العرب واليهود في المستقبل. مبروك'.

صفّقنا جميعًا بحماسة. ولم يشأ أي منّا معرفة نوع التعاون الذي يخبّئه لنا المستقبل. فتحت الاحتلال لا يعرف المرء ما نوع الثمن الذي يتعيّن أن يدفعه.

وقفت أنا وسليم على أمل أن يكون الحفل قد انتهى. ولم نتوقّع أن يكون لدى رئيس البلديّة المعيّن شيء يضيفه. وفيما هممنا بالذهاب، وقف الرجل المسنّ ذو العباءة السوداء وألقى بحماسة كلمة مكتوبة.

أصغى كابتن عمير ورئيس البلديّة للرجل باهتمام شديد. وأبديا انتباهًا وسرورًا كبيرين بالمديح الذي كاله لهما تحديدًا ولدولة إسرائيل، حتى خيّل إليّ أنّهما كتبا خطابه.

أخذ المصوّرون لقطات قريبة للرجل المسنّ ثمّ لعباءته البدويّة. وعندما غادروا المكان، قال كابتن عمير بصوت جازم، 'حسنًا، انتهى الاحتفال الآن. ستصلكم الهويّات بالبغيد (البريد)'.

'عن أي بريد تتحدّث أيّها الحاكم'؟ صحنا جميعًا هائجين.

وقالت إحدى الأمّهات، 'اجتزنا مسافة طويلة لكي نتسلّم هويّاتنا'.

وصاحت امرأة غاضبة وقد أمسك خمسة صغار بثوبها المطرّز، 'إنّني أنتظر منذ أربع عشرة سنة، وتقولون لنا الآن إنّها في البريد'.

أربع عشرة سنة! إنّني محظوظة. لم تستغرق منّي حتى الآن سوى سبع سنوات.

'ليس اليوم. لاحقًا'، جاءت كلمات كابتن عمير «الربّانيّة» وهو يغادر المكان ويختفي في المقرّ، تاركًا رئيس البلديّة المعيّن يهتمّ بربعه. حاول رئيس البلديّة جاهدًا طمأنتنا أنّنا سنحصل على الهويّات في غضون بضعة أيام.

كيف يمكننا أن نصدّقه ونحن نعرف أنّ الرسالة المرسلة في مكتب بريد رام الله إلى صندوق بريد آخر في مكتب البريد نفسه يستغرق وصولها أكثر من شهر؟

غادرنا جميعًا بعد أن أدركنا عجزه وعجزنا عن عمل أي شيء.

في أثناء هذه الفترة الباعثة على الأمل، تفاءل سليم وقبل عرضًا قديمًا بالتدريس في جامعة مِتْشِغن بآن أربر. أخذت إجازة بدون راتب من جامعة بيرزيت لمرافقته ومناقشة أطروحة الدكتوراه المنسيّة في أدنبره. وكان كلانا يتطلّع إلى قضاء سنة بعيداً عن ملحمة هويّتي السباعيّة.

لكن من قال إنّها انتهت؟

قلت لكم: في التعامل مع الإسرائيليّين، ما من أخبار سارّة دون أخبار سيّئة.

في ٥ أيلول ١٩٨٧، غادر سليم إلى الولايات المتحدة بمفرده.

وفي ٩ كانون الأول ١٩٨٧، اندلعت الانتفاضة الفلسطينيّة(*). ومعها انتهى كل التعاون الإسرائيليّ الفلسطينيّ ولكن ليس التعامل.

---

* ـ في أثناء الانتفاضة الأولى، الانتفاضة الشعبيّة سنة ١٩٨٧، حدثت حركة عصيان مدنيّ أدّت إلى مقاطعة الحكم العسكريّ، المعروف بالإدارة المدنيّة. وشملت أيضًا مقاطعة المنتجات الإسرائيليّة فضلاً عن الامتناع عن دفع الضرائب العامّة.

كنت وحيدة في رام الله وقد تقطّعت بي السبل بدون هويّة، وبدون زوج، وأطروحة، وعمل، وراتب، وبدون أمل بالطبع.

لعل الصور المعكوسة حديثًا: الفلسطينيّون بدور داوود والإسرائيليّون بدور جالوت، هي التي أمدّتني بالشجاعة اللازمة لفكرتي المجنونة بعد ظهر ذلك اليوم.

أم هل بات المستحيل ممكنًا الآن، وأصبح ما لا يمكن تصوّره أمرًا واقعًا مع الإرادة التي لا تُقهر للانتفاضة الجديدة؟

بعد سبع سنوات، قرّرت السيطرة على حياتي.

صار بوسعي الآن أن أفهم كيف يفقد المرء صوابه. وشعرت بالغضب يتصاعد ببطء في داخلي. وتحوّلت السنوات السبع للاختباء من الإسرائيليّين إلى دافع قويّ لمواجهتهم، والتحديق في عيونهم علّهم يدركون حجم سلوكهم المجرم تجاهي وتجاه كل الفلسطينيّين.

كنت أشاهد الفتيان والفتيات الفلسطينيّين الصغار الذين يواجهون أعتى الجيوش بحجر ومقلاع وأشعر بالخجل من صبري.

بدأت أحزم حقيبتي: فرشاة ومعجون أسنان، ومنشفة، وقميص نوم ـ لا، ربما تكون البيجاما أفضل ـ وبعض الملابس الداخليّة، وقميص قطنيّ إضافيّ، وبضع روايات، ودفتر، وقلم رصاص وقلم حبر، وشبشب، وراديو ترانزستور، وبضع علب من السجائر.

عندما كنت أهمّ بإقفال باب البيت خلفي، ظهرت قطّتي عِنَبة، فحملتها واحتضنتها وقبّلتها.

'سامحيني يا عنبة، أعرف أنّك قطّة كبيرة ويمكنك الاهتمام جيّداً بنفسك. عليّ الذهاب الآن'. وضعتها على الأرض بعناية. ماءت وحفّت جسمها الحريريّ بساقي المرتجفة.

بكيت.

'نعم، لديّ موعد مع كابتن يوسي؛ لقد اتصل بي للتوّ وطلب منّي الحضور على الفور'، قلت كاذبة وارتسمت على وجهي ابتسامة وديّة.

ردّ أحد الجنود الإسرائيليّين الذين يحرسون البوّابة الحديديّة الكبيرة لمقرّ الحاكم العسكريّ، 'لكنّ كابتن يوسي لم يبلغنا بأنّ لديه موعداً'.

قلت دون تردّد، 'لعلّه نسي'. شققت طريقي داخل البوّابة نصف المفتوحة الآن بعد أن استجمعت كل الثقة التي يمكنني انتحالها.

'عليّ أن أفتّش حقيبتك'.

'خذ راحتك'.

ظننت أنّ ذلك بحدّ ذاته علامة مشجّعة. تفحّص الجنديّان الشابّان حقيبتي. وكان بوسعي أن أراهما يتبادلان النظرات،

وتخيّلت ما يدور في خلديهما. نعم، التعاون بين اليهود والعرب، لمَ لا.

لم أشأ أن أفسد التمثيليّة الصغيرة التي كنت أؤدّيها أنا والجنديّان بالقول إنّ كابتن يوسي، رئيسكما، هو الضابط الذي يستجوبني. لبث سنوات يستدعيني وسواي من الأساتذة في جامعة بيرزيت. كان ينتحل صوتًا ودودًا لا يُطاق، بلفظه الإسرائيليّ المميّز، ويتّصل بي بمكتبي أو في البيت، 'أنا كابتن يوسي من «الإدارة المدنيّة». هلا تأتين إلى مكتبي في العاشغة (العاشرة) صباحًا لتناول فنجان كهوة'. وما إن أسمع صوت يوسي حتى أتجمّد؛ أحاول أن أتمتم بضع كلمات لكنّني معقودة اللسان.

'أراك في الغد يا سعاد'.

كنت أسرع إلى حمّام السيّدات وأقيء.

رافقني أحد الجنديّين إلى باب كابتن يوسي.

'تفضّلي بالجلوس رجاء. انتظري، إنّه مشغول قليلاً مع زائر آخر'، قال الجنديّ بصوت شديد التهذيب والاحترام.

لم أقابل في حياتي قطّ جنديًّا إسرائيليًّا لديه مثل هذا الصوت العاديّ، ناهيك عن نبرته المهذّبة وغير المستعلية.

لا بدّ أنّ هالتي الجديدة هي التي منحتني الشجاعة التي أحتاج إليها لمتابعة مهمّتي.

لاحظت أنّ سكرتيرة كابتن يوسي لا تريد أن تستفسر عن سبب زيارتي في هذه الساعة الغريبة المتأخّرة ـ فكل المكاتب التي تتعامل مع تصاريح الفلسطينيّين (العمل أو الزيارة أو السفر) تغلق أبوابها عند الظهر على الأكثر.

تجاهلت التعليمات اللطيفة وتقدّمت نحو باب كابتن يوسي، ففتحته ومشيت بقوّة نحو مكتبه.

تفاجأ كابتن يوسي تمامًا، فنهض وكذلك فعل زائره الفلسطينيّ.

'ما الأمر يا سعاد؟ هلاّ تنتظرين في الخارج حتى أفرغ من ضيفي'.

'لن أنتظر أكثر. لقد انتظرت سبع سنوات'.

لا بدّ أن التعبير الشرس الذي ارتسم على وجهي هو الذي دفع الرجل الفلسطينيّ إلى الانسحاب على الفور من مكتب كابتن يوسي. كان بوسعي أن أرى رأس السكرتيرة مائلاً إلى الأمام لتقديم المساعدة، فيما أغلق الزائر الباب بعناية وراءه. 'أحضر لي فنجان قهوة وسيجارة'، أمرت كابتن يوسي وأنا أجلس على الكرسيّ بجوار مكتبه وأضع رجلاً على أخرى. لم يعرف كابتن يوسي كيف يتصرّف مع هذا الانقلاب في العلاقة، فخرج ليعود بعد بضع دقائق ومعه سيجارة مارلبورو وفنجانًا من قهوة الجيش الإسرائيليّ العكرة.

لم أستوعب يومًا كيف يستطيع الإسرائيليّون شرب هذه القوة المقرفة. قيل لي إنّه لا وقت لدى الجيش لغلي الماء والقهوة معًا، لذا يصبّون الماء الساخن على حبوب القهوة ويشربون وحلاً. لا وقت لديهم بالطبع لأنّهم يضايقوننا أربعًا وعشرين ساعة في اليوم. ولو توقّفوا عن ذلك فلربما يتوصّلون إلى حياة أفضل وقهوة جيّدة لا موحلة.

انظروا إلى الإيطاليّين والأتراك والفرنسيّين: أصبح لديهم جميعًا قهوة جيّدة بعد أن أدركوا أنّ من الممكن أن يستمتعوا بعيشة هانئة بدون احتلال الآخرين.

'بماذا أستطيع أن أخدمك يا سعاد'؟ كرّر كابتن يوسي سؤاله وقد ارتسمت الحيرة على وجهه.

قلت، 'أعطني هويّتي'.

سأل قائلاً، 'أي هويّة'؟

'اسمع يا كابتن يوسي، لقد تعاملت طويلاً جدًّا مع سخافاتكم حتى الآن. هل لديك أي فكرة عما كابدته في السنوات السبع الأخيرة بانتظار هويّتي التافهة؟ هل لديك أي فكرة لماذا يشارك كل فلسطينيّ، رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً، في هذه الانتفاضة؟ لأنّنا لم نعد نستطيع أن نتحمّل إجرامكم. هل تعرف ماذا يعني أن تعيش زوجة بعيداً عن عائلتها وزوجها وأطفالها؟ هل

تريد أن تعرف لماذا يخرج الرجال الفلسطينيّون غاضبين ويطعنون الإسرائيليّين في ظهورهم في شارع يافا(*)؟ اسألني فأنا أعرف. أعرف تمامًا ما هو الشعور الناتج عن الدفع نحو حافّة ارتكاب أشياء مجنونة. انظر إليّ يا كابتن يوسي. هل أبدو مجرمة بالنسبة إليك؟ أخبرني'. كان صوتي يزداد ارتفاعًا مع كل كلمة.

أصيب كابتن يوسي بذهول تامّ. ولم يشأ أن يجيب بنعم أو لا. ولم يكن يدري ماذا يفعل مع أستاذة جامعيّة توشك أن تفقد رشدها.

وأضفت قائلة، 'انظر - لقد حزمت حقيبتي استعدادًا للذهاب إلى السجن بعد المحاكمة'.

'عن أي محاكمة تتحدّثين'، قال محاولاً تهدئتي.

'أنتم تدّعون أنّكم الديمقراطيّة الوحيدة في الشرق الأوسط. وتدّعون أنّ لديكم محاكم. ها أنذا. حاكموني، اتّهموني بالجرائم التي ارتكبتها (حتى الآن). إليك حقيبتي'.

فتحتها وبدأت أفرغ الأشياء منها واحدًا بعد الآخر:

'هذا معجون أسناني، وهذا شبشبي، وهذه كتبي، وقميصي، و... و...'.

* - لم يكن هناك مفجّرون انتحاريّون في ذلك الوقت.

كنت أخرج الأشياء من حقيبتي وأرميها كيفما اتفق على أرض مكتبه.

'لن أخرج'. توقّفت لألتقط أنفاسي وتابعت، 'حاكموني إذا كنتم تظنّون أنّني إرهابيّة. لمَ لا تسجنونني؟ تعاملوننا كالإرهابيّين فمن الأولى إذاً أن نتصرّف مثلهم. أعطني هويّتي، هل تسمعني يا كابتن يوسي'؟

كنت أصيح بأعلى صوتي.

'سبع سنوات انقضت وأنا أنتظر هذه الهويّة التافهة، هل يسعدك ذلك؟ هل تريدوننا أن نجنّ؟ ها أنذا. انظر إليّ. هل يجعلك ذلك أكثر سعادة'؟

انفجرت بالبكاء.

تجمّد يوسي في مكانه؛ لم يكن يعرف، على غرار كل الرجال، ما يفعله مع امرأة تبكي.

كنت أعرف أنّه قادر على التعامل مع المتظاهرين الفلسطينيّين والمتمرّدين والطاعنين بالسكاكين والإرهابيّين. وبإمكانه التعامل مع القنابل والديناميت والدبّابات والطائرات المقاتلة والغوّاصات. إنّه مدرّب للتعامل مع كل ذلك.

لكن ليس مع امرأة تبكي.

ولا امرأة فقد صوابها.

راقبت يوسي الذاهل وهو يخرج من مكتبه. وسرعان ما عاد وبيده سيجارة مارلبورو أخرى، وفنجان وحل آخر (شربته هذه المرّة)، وقطعة ورق عليها خرابيش عبريّة زعم أنّها تقول، 'أعطوا هذه المرأة [المجنونة] هويّتها'.

كنت منهوكة القوى، أخذت الورقة منه وخرجت من مكتبه، وقدّمتها إلى كابتن رافي.

قرأ الكابتن رافي مضمونها، ونظر إلي، ثمّ ناولني هويّتي.

أخذتها ومشيت إلى البيت متشبّثة بها.

عليّ الاعتراف بأنّني عندما خرجت من البيت عصر ذلك اليوم، لم يكن لديّ أي فكرة عما أعتزمْ فعله. لن أشغل بالي بذلك الآن ـ لقد حقّقت ما أريد.

حملت عنبة بيد وهويّتي باليد الأخرى.

'أترين يا عنبة كيف يخرجوننا عن طورنا'؟

شددت عليها وقبّلتها ثانية.

ربيع ١٩٩٣

بعد خمس سنوات، رنّ الهاتف

’مرحبًا دكتورة عامري، الصحافيّ يوسي يتكلّم. أودّ أن أجري معك مقابلة عن آخر جولة من المفاوضات الإسرائيليّة الفلسطينيّة في واشنطن من أجل مقالتي في صحيفة «هآرتز». أيمكنك أن تعطيني موعداً‘ ؟

بدون فنجان قهوة هذه المرّة؟ كان ذلك أوّل ما خطر ببالي، لكنّني لم أقل شيئًا.

سرت قشعريرة في كل جسمي عندما سمعت صوت الصحافيّ يوسي (الضابط الذي كان يستجوبني). ’آسفة يا كابتن يوسي. أعتقد أنّني هذه المرّة في موقف يمكّنني من الرفض. ربما تكون قد غيّرت عملك، وأصبحت ناشطًا في حقوق الإنسان وصحافيًّا مستقلاًّ، لكنّك تبقى كابتن يوسي بالنسبة إليّ‘.

على فكرة، لم أقدّم لك شكري على الهويّة.

ـ ٥ ـ

الجريء وغير الجميلة جدًّا

ربيع ١٩٨٤

غالبًا ما كانت تمرّ بجوار الشرفة حاملة كيس قمامة أسود كبيرًا. كنت أراها من بعيد وهي تلوّح به بنشاط لتلقيه في مكبّ النفايات المليء أصلاً. وقد جعلها طيشها وسرورها تبدو وهي تلوّح بأكياس القمامة كأنّها تمارس لعبة بالكرة.

لا بدّ أنّ ساعات العمل الطويلة في شمس الربيع اللطيفة، وأكوام الكتب والأوراق المحيطة بي، هي التي أعطت أم زاهي، جارتي، الانطباع بأنّ الكتابة تسير على ما يرام وأنّ بوسعي أن آخذ استراحات لشرب القهوة بصحبتها.

مرّت شهور متواصلة وأنا أجلس على الشرفة الزجاجية الأمامية لمنزلنا الشتوي في أريحا منهمكة في كتابة أطروحة الدكتوراه. وكنت قد رأيت أنّ من الأفضل أن آخذ إجازة بدون راتب، وأنزع الهاتف وأحبس نفسي في عزلة تامّة. كانت الأطروحة أشبه ما يكون بقرد اعتلى ظهري؛ وأنا أحاول جاهدة رفع يديه ورجليه عنّي، لكن دون جدوى.

لم يكن عبء عملي الجامعيّ وعذاب الانتظار في الصف أمام المقرّ العسكريّ عدّة أيام لتجديد تصاريح الزيارة، ولاحقًا للحصول على هويّتي، يترك لي سوى قليل من الطاقة للاهتمام بالجيران.

على مرّ السنين، تعرّفت جيّداً إلى ابنها الصغير رامي، لا إليها. كان مع رفيقه اللطيف، سمير، يقف خارج جدار الحديقة المنخفض ويراقبني بعينيه البنيّتين الحادّتين وأنا أجزّ العشب. وكنت بين الحين والآخر أنادي على الصبيّين، اللذين يبلغ عمرهما إحدى عشرة سنة واثنتي عشرة سنة، وأسمح لهما بأن يرقصا حول جزّازة العشب. كانا يستمتعان بالرقص كثيراً، وبعد الانتهاء لا أسمح لهما بالاقتراب من العشب حتى تنقضي بضعة أسابيع.

لم أكن أعرف كيف أفسّر تعبير وجه رامي المضطرب. فخلافًا لسمير السمح، كان وجهه يحمل عذاب رجل كبير وقلقه. وغالبًا ما كان رامي يظهر أمام الباب، عندما لا يكون سليم في

الجوار، ضامًّا كتابه إلى صدره ويقول، 'خالتو، أيمكن أن تساعديني في الرياضيّات' ؟

لم يكن توقيته ملائمًا قطّ، لكنّني ساعدته ثلاث سنوات تقريبًا.

وسرعان ما كانت الهدايا الصغيرة (التي يضمّها رامي إلى صدره أيضًا) تُستبدل بكتاب الرياضيّات: سلحفاة صغيرة لا تزال في حديقتي بعد عشرين سنة؛ وحلويّات لذيذة بالتمر تخبزها أمّه في اليوم نفسه؛ ووشاح زهريّ وأصفر زاه اشتراه (أو سرقه من أمّه)؛ ولوحة كهربائيّة لمكّة. وكانت الوردات الحمراء الثلاث هي التي أثارت سليم وجعلته يرسم تعبيرًا ساخرًا على وجهه.

وتبيّن على مرّ السنين أنّ تمارين الرياضيّات كانت أسهل المشاكل حلاً في حياة رامي.

'صباح الخير يا جارتنا'، كانت أم زاهي تقول بنبرة عالية مرحة، وغالبًا بعد أن ترمي كيس القمامة.

فأجيب 'صباح الخير'، بصوت من أنهكتها كتابة الأطروحة، وأحرّك رأسي بطريقة مبالغ بها نحو أوراقي، كما لو أنّني أقوم بعمليّة مضنية لإنتاج رائعة من الروائع العالمية.

كان العمل على أطروحتي مضنيًا.

'صباح الخير يا جارتنا، كيف حالك اليوم' ؟

'صباح الخير يا جارتنا، كيف حالك اليوم؟ كيف شغلك'؟

'صباح الخير يا جارتنا، كيف حالك اليوم؟ كيف شغلك؟ ألم يحن وقت استراحة القهوة'؟

كانت جملها تطول وتطول كل يوم إلى أن استسلمت ذات يوم.

قلت، 'تعالي لنشرب القهوة'.

فدخلت.

كانت حبكات قصصها التي لا تنتهي تزداد طولاً كل يوم، وتستحوذ على انتباهي تمامًا. وقد جعلت قصصها كتابة أطروحتي عن العمارة الفلاحيّة الفلسطينيّة في القرن التاسع عشر تبدو بعيدة مئة عام على الأقلّ.

'تعرفين خالد'؟

أسأل مستفسرة، 'مين خالد'؟

وأقول بعد ذلك بحسد، 'لا، أنت لا تقصدين خالداً ذاك. إنّه وسيم جدًّا'.

فتقول بلهجة مظفّرة، 'نعم هو'.

وتضيف، 'إنّه أصغر من ابني زاهي'.

كان يصعب عليّ أن أعرف إذا كانت تقصد بذلك اعتذاراً أو مباهاة.

مضت فترة طويلة وأنا آخذ قصصها بشيء من التحفّظ.

بل بكثير من التحفّظ.

طالما شعرت، لسبب أو لآخر، بالأسى لحال ربّات البيوت. فكل صباح عندما أقود سيّارتي إلى الجامعة، أرى أمّ سمير على شرفة منزلها تعلّق غسيل صغارها السبعة، وأمّ ماهر تأخذ ولديها المعاقين لتجلس في حديقتها المشمسة، وأم مصطفى تلمّع الدرج الرخاميّ لمنزلها الذي ينمّ عن حداثة النعمة. وحده مشهد أم سعد، التي غالبًا ما تجلس في ظلّ شجرة الجوز العملاقة تطرّز فستانًا جميل الألوان أو تنتف أوراق الزعتر عن عروقها، يجعلني متشككة من إيقاع، إن لم يكن من معنى، نمط عيشنا أنا وسليم الذي ينطوي على دخول المنزل والخروج منه بسرعة بشكل متواصل.

لم أشأ أن أكون فضوليّة بشأن قصّة حبّ أم زاهي. لكنّ تعبير عدم الاقتناع الذي ارتسم على وجهي جعلها تشعر بالتحدّي، وبالتالي طلبت مني أن أراقب الأحداث الشيقة في الصباحات المتأخّرة.

كانت نشاطات الصباح المتأخّر تمنحني استراحة مثيرة بعيداً عن أطروحتي.

كنت كل بضعة أيام ألمح سيّارة بي أم دبليو جديدة تتوقّف في الشارع الرئيسيّ. ومن بعيد أراه يقفل باب السيّارة ويسير دون اكتراث ثم يدخل دكّان بقالة صغيراً في الطبقة الأرضيّة لمنزل أم زاهي. وغالبًا ما تمضي فترة قبل أن يخرج حاملاً كيس تسوّق مليئًا، ويمشي برشاقة إلى أعلى الشارع ويضعه في صندوق سيّارته ثم يقودها مبتعداً.

كنت واثقة من أنّ بعض جاراتنا الأخريات الفضوليّات (وغير المطّلعات) يتساءلن لماذا يحمل مثل هذا الشابّ الوسيم والأنيق الملبس أكياس التسوّق الثقيلة إلى سيّارة متوقّفة بعيداً.

بالإضافة إلى إدارة دكّان البقالة الصغير، كانت أمّ زاهي تدير بيتًا نظيفًا يضمّ سبعة أطفال (معظمهم شبّان الآن) وزوجًا يكبرها بعشرين عامًا. وكان أبو زاهي يعمل مع الإسرائيليّين، كموظّف في الإدارة المدنيّة.

ربيع ١٩٨٧

رنّ الهاتف. إنّه رامي.

'خالتو، أريد أن أتحدّث إليك. هل أستطيع أن أراك الآن'؟

أجبته، 'تعال'.

كان وجهه شاحبًا ويبدو عليه التوتّر أكثر من المعتاد.

قال لي بصوت طائش 'أنا عميل'.

'ماذا'؟ صحت وقد فقدت رباطة جاشي تمامًا.

كرّر القول: 'نعم، أنا أتعامل مع الإسرائيليّين'.

يا الله، ماذا أقول؟ استجمعت أفكاري المبعثرة.

'حبيبي رامي، لماذا'؟ شعرت بخوف شديد وأسف على هذا الصبي الذي لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر.

أجاب: 'إنّني أنتقم من زملائي في الصفّ'.

'تثأر! من زملائك! ما الذي يجري يا رامي'؟

'ظللت أسأل رفاقي في المدرسة إذا كان بوسعي أن أنضمّ إلى الجبهة الشعبيّة، لكنّهم أبلغوني بأنّه ما من حزب يمكن أن يقبل في صفوفه ابن عميل. أبلغتهم أنّ أبي ليس عميلاً - إنّه موظّف في الإدارة المدنيّة. موظّف في الإدارة المدنيّة وعميل - إنّ جرمه مضاعف وصاروا يضحكون. وقالوا إنّهم لن يدعوني أشارك في أنشطتهم السياسيّة'.

كنت لا أزال أختار الكلمات التي سأقولها عندما تابع رامي:

'عندما اعتقل الجيش الإسرائيليّ أخي وليد لأنّه كان يلتقط صورًا قرب مطار اللدّ، ذهبت لزيارته في سجن عسقلان. قال لي

الكابتن الإسرائيليّ هناك، «سينال أخوك حكمين بالسجن مدى الحياة». وعندما أوضح لي ماذا يعني السجن مدى الحياة، بكيت، وبعد ذلك قال الكابتن، «لا تبكِ. إذا تعاونت معنا فسوف نطلق سراح أخيك خلال شهرين». سألت، «لكن كيف يمكنني أن أعمل معكم»؟ قال لي الكابتن الإسرائيليّ، «ما عليك إلا أن تكتب لنا ما يحصل في حيّك ومدرستك». وعندما أبلغته أنّني لا أعرف كيف أكتب التقارير، وأنّني أرسب دائمًا في الكتابة، قال، «لا عليك، يمكنك التحدّث إليّ، اذهب لرؤية الكابتن رافي في رام الله عندما يكون لديك أخبار. إليك أرقام هاتفي وهاتف رافي في البيت والمكتب، وسأكلّم الكابتن رافي لكي يقابلك في رام الله»'.

وجدت نفسي أقاطع رامي وأسأله، 'لديك أرقام هواتف ضبّاط إسرائيليّين! ويمكنك التحدّث إليهم مباشرة'؟

ذلك مثير للإعجاب حقًّا. ذلك وحده يمكن أن يجعلني أتعامل مع أي كان. ألاّ يكون عليّ أن أقف في الصف تحت المطر وتحت شمس الصيف الساطعة... ألاّ يكون عليّ أن أمضي ساعات في محاولة الحصول على مختلف أنواع التصاريح... قاطع صوت رامي أحلام يقظتي، 'نعم، أتصل به متى أريد. ليس هذا فحسب، بل نذهب معًا إلى تل أبيب. وفي زيارتي الأخيرة قضينا وقتًا ممتعًا معًا ـ قدّمني إلى بعض الفتيات الرائعات'.

لا أريد التوقّف عند هذه الموضوع.

وأضاف رامي، 'ولديّ أيضًا حساب مصرفيّ في بنك ديسكونت الإسرائيلي'.

لا يهمّني أمر النساء الجميلات والحساب المصرفيّ. لكنّ رقم الهاتف المباشر أفقدني صوابي.

عدت إلى الواقع.

'رامي، حبيبي، اسمعني جيّداً؛ إنّ ما تقوم به هو أسوأ ما يمكن أن يفعله الإنسان في حياته. التعامل مع العدوّ، مع المحتلّ، مع من سرق أرضنا، ودمّر قرى شعبك وبيوته، واقتلع أشجار الزيتون و... و... سيذهب الاحتلال عاجلاً أم آجلاً، لكن صدّقني يا رامي السمعة السيّئة لا تمحى البتّة. (أردت أن أعطيه والده كمثال، لكنّني لم أفعل). حبيبي رامي، أمامك حياة طويلة وجميلة لتحيا'.

'حيّاة جميلة؟' كرّر من بعدي.

بدت مشاعري وأفكاري مثل الدوّامة.

يا إلهي، إنّه في الخامسة عشرة فقط.

'ذات يوم توجّهت إلى السجن مع الضابط داني واستجوبت زملائي في الصفّ الذين رفضوا السماح لي بالانضمام إلى الجبهة الشعبيّة. غطّيت رأسي بكيس، ولم تبدُ إلا عيناي خلف ثقبين صغيرين. ادّعيت أنّني محقّق إسرائيليّ وواجهتهم ببعض التفاصيل

عن حياتهم التي أعرفها من الصفّ. أصيبوا بصدمة تامّة، وانهار اثنان منهم واعترفوا بما اقترفوه أمام الإسرئيليّين'.

انعقد لساني. كنت خائفة عليه ومنه أيضًا. وغاضبة منه وله أيضًا. يا إلهي، إنّ هذا الصبيّ يخاطر بحياة أصدقائه وبحياته. أردت أن أحميه بإنقاذه من نفسه، ومن أبيه، وأمّه، والإسرائيليّين سيّئي الذكر، وكذلك من انتقام الجناح العسكريّ للمقاومة الفلسطينيّة.

سأل، 'هل خاب أملك فيّ'؟

'سيخيب إذا لم تتوقّف عن التعاون مع الإسرائيليّين'.

فكّرت في أنّ قول ذلك أسهل من تنفيذه.

'خالتو، أرجوك لا تخبري أحداً وأعدك بأن أتوقّف عن مقابلة الكابتن داني والكابتن رافي'.

لم أكن واثقة مَن منّا أكثر سذاجة من الآخر، رامي أم أنا.

لبثت في ذهول تامّ عدّة أيام. ولم تفارقني صور رامي وهو يستجوب زملاءه في الصف طوال شهور، بل سنوات.

وأبقيت فمي مقفلاً عدّة سنوات.

أردت أن أعرف المزيد عن أبي زاهي، والد رامي.

أخبرني أصدقائي الذين يعملون مع المقاومة أكثر مما كنت أريد: والد رامي يتعاون مع الإسرائيليّين وكثيراً ما ساعد الجيش

الإسرائيليّ في تحديد أماكن الناشطين الفلسطينيّين المطلوبين. وما الدكّان الكائن أمام منزله سوى واجهة للتجسّس على حيّنا. ولفتوا انتباهي أيضًا إلى أنّ أبا زاهي هو الشخص الوحيد الذي منحه الإسرائيليّون رخصة لبناء منزل قرب الأرض المصادرة المحيطة بالمقرّ العسكريّ في أريحا. وأخبروني عن شقيقي رامي المدمنين على المخدّرات. ظننت أنّ القصّة مبالغ فيها.

نعم كانوا من المقاومة السريّة، لكنّني اعتقدت أنّه ربما يجب أن آخذ قصّتهم مع بعض التحفّظ.

بقيت على ذلك الاعتقاد بضعة شهور، إلى أن أفاق الحيّ كلّه ذات ليلة على صراخ أمّ تندب موت ابنها: لقد مات كمال، شقيق رامي، من جرعة مفرطة.

عدت للتركيز على أطروحتي؛ كان التعامل مع العمارة الفلاحيّة في القرن التاسع عشر أسهل بكثير.

نادرًا ما رأيت رامي في أثناء انتفاضة سنة ١٩٨٧ التي دامت قرابة ستّ سنوات، فقد كان يمضي معظم وقته بعيدًا عن البيت في إسرائيل. وقد قُتل العديد من العملاء في تلك الفترة.

خريف ١٩٩٧

مضت سنوات.. وذات يوم رنّ الهاتف. كانت أمّ زاهي في الطرف الآخر تشهق بالبكاء.

'ما الأمر يا أمّ زاهي؟ ماذا حدث' ؟ سألتُ خائفة فيما كنت أستجمع أفكاري.

'أرجوك أن تأتي يا سعاد، إنّني بحاجة ماسّة إلى مساعدتك'.

أغلقت الهاتف وأسرعت من الشرفة إلى الباب، وركضت مسافة الثلاثمئة متر التي تفصل بين بيتينا. ولمّا وصلت كنت مقطوعة الأنفاس.

أمام الدكّان وقف رامي وشقيقه الأكبر أحمد. بدا الاثنان كما لو أنّهما ارتكبا جريمة خطيرة، أو على وشك القيام بذلك. أخافني الغضب الذي يعلو وجهيهما وجعلني أتردّد.

ها أنذا أغوص ثانية في حياة أم زاهي ورامي.

'مرحبًا يا رامي'.

لا جواب.

لاحظت فجأة زجاج نافذة الدكّان المحطّم خلف ظهره.

سألت، 'ماذا حدث يا رامي' ؟

لم يجب. تبادل رامي وأحمد النظرات، ثمّ نظرا إليّ مباشرة.

'هل أمّك في البيت' ؟ سألت لأملأ الفراغ الرهيب.

فسأل رامي، 'هل اتّصلت بك'؟

'نعم'، أجبت فيما تجاوزتهما. ومشيت بجانب المنزل المكوّن من طبقتين ودخلت بيت الدرج المؤدّي إلى شقّة أم زاهي.

كان الباب مفتوحًا. وفي غرفة الجلوس، بمقاعدها البنيّة والأرجوانيّة، جلس أبو زاهي ورجل أغبر أشيب الشعر في منتصف العمر. وقف الرجل ورفع بنطلونه فوق بطنه البارز بعد أن نهض ليصافحني.

قال أبو زاهي، 'أهلاً، أهلاً، دكتورة سعاد. يا لها من مفاجأة سعيدة'!

فسألت على الفور، 'أين أم زاهي'؟

قال، 'هناك'، وأشار إلى غرفة النوم في مقابل الصالون مباشرة.

وعندما بدأت أجتاز الصالون باتّجاه مائل نحو غرفة نوم أم زاهي، كان بوسعي سماع صوت أبي زاهي وهو يساوم المتعهّد ثانية في أسعار الإسمنت والحجر والحديد.

'كم قلت تبلغ كلفة متر الحجر'؟

'للأسف، كان يجب أن نضيف طابقًا آخر قبل أوسلو. كانت الأسعار أرخص بكثير في ذلك الوقت، لكنّنا لم نكن نمتلك المال'.

فقال المقاول محاولاً التفوّق على أبي زاهي، 'كيف يمكن أن يكون أرخص عندما لم يكن لديك المال'!

أردت أن أقرع الباب، لكنّ أمّ زاهي كانت واقفة عند باب غرفة نومها المفتوح. كانت عيناها حمراوين قليلاً، لكن ليس بقدر ما كنت أتصوّر.

قالت لي، 'قوليله أنا مش شرموطة'.

شهقت متعجّبة، 'ماذا'؟

كرّرت القول، 'نعم، قوليله أنا مش شرموطة'.

كان ردّ فعلي المباشر أن أدخل الغرفة وأغلق الباب خلفي بأسرع ما يمكن. (لم أكن أعتقد أنّ أسعار المتعهّد للإسمنت والحجارة توفّر الخلفيّة المناسبة لهذه القصّة).

بدأت تنتحب ثانية. أمسكت بيدها وجلست بقربها على السرير.

'هوّني عليك يا أم زاهي، سيكون كل شيء على مايرام'، حاولت أن أواسيها.

لا بدّ أنّ شجاراً حادًّا وقع بينها وبين زوجها. وها هو يتفاوض ببرود مع المقاول، ويخطّط ليبني بيتًا جديدًا؛ لا بدّ أنّه لزوجة جديدة يعتزم الزواج بها؛ لا عجب في أنّها تبكي بحرارة. يا لدناءة الرجال!

أعادتني إلى الواقع بقولها، 'ابن الحرام رامي يتّهمني بأنّني شرموطة'.

'شرموطة؟ رامي'؟ كرّرت من ورائها، محاولة استيعاب الموقف.

'نعم، رامي، هذا ما قاله عندما طلبت منه أن يتوقّف عن العبث مع جميلة'.

'ماذا؟ زوجة أخيه'؟ شهقتُ وأنا لا أكاد أصدّق.

كان ردّ فعلي الفوريّ أنّ عليّ أن أنهي الفصل الثالث من أطروحتي.

'نعم أعرف ذلك على وجه اليقين. إنّه مجنون بحبّ زوجة أحمد، وكلّما توجّه أحمد المسكين للعمل في إسرائيل وبقي هناك ليلاً، عبث رامي معها. وعندما واجهته بذلك، وطلبت منه التوقّف، قال لي، «اهتمّي بشؤونك أيّتها العاهرة»'. وتواصل النحيب.

إنّها نسخة فلسطينيّة من المسلسل التلفزيوني 'الجريء والجميلة'.

بحثت عن ردّ ذي مغزى:

'تصفين ابنك بابن الحرام يا أمّ زاهي؟ وتقولين إنّه يعبث مع امرأة أخيه؟ حتى لو كان ذلك صحيحًا، يجب ألا تنعتي ابنك بابن حرام'. لم أتمكن من استحضار كلمات أكثر بلاغة من هذه.

قالت وهي تمسح دموعها، 'ولدي الأحبّ إلى نفسي يدعوني بالعاهرة'.

حاولت أن أشرح قائلة، 'لكنّه يحاول الردّ عليك'.

توقّف النحيب.

'أتعرفين ماذا أخبرني رامي'؟ قالت بصوت يغلب عليه الحنين. 'قال، «أتظنّين أنّني غبيّ؟ أتذكرين قبل اثني عشر عامًا عندما كنت تعبثين مع عشيقك خالد؟ كنت تعتقدين أنّني ولد صغير غبيّ، أليس كذلك؟ اعتقدت أنّني لم ألاحظ ما الذي يجري؟ نعم كنت صبيًّا حينذاك، لكنّني عرفت كلّ شيء أيّتها العاهرة. وأبقيت فمي مطبقًا طوال كل تلك السنين»'.

أترون التدريب المنضبط الذي يحصل عليه العملاء الفلسطينيّون من إسرائيل؟

دخل رامي غرفة نوم أمّه فيما كانت تخبرني بما حدث. شتّت الباب المفتوح خلفه ذهني أكثر مما شتّته حضوره. فقد ركّزت كمعماريّة على أسعار الإسمنت والحديد. ولا بدّ أنّني كنت قلقة من ألا يعرض المقاول اتفاقًا جيّدًا على أبي زاهي.

'سعاد، ألم تكن أمي تعبث مع خالد قبل نحو اثني عشر عامًا؟ ألم تكن تبكي على كتفك؟ ألم توصليها مرّة إلى بيته'؟

أخذت نفساً عميقاً، وقلت بصوت الخالة الآمر، 'رامي، بالله عليك أن تتوقّف، كفّ عن هذا الهراء؛ إنّها أمّك في النهاية'.

'أي أمّ تكون عندما تتّهمني بأنّني أحبّ زوجة أخي'؟

شاهدت الدموع في عيني رامي.

'لا تستمعي إليها يا سعاد، أرجوك'. أدار ظهره وغادر الغرفة.

كنت أحاول أن آخذ نفَساً عميقاً عندما ظهر أبو زاهي عند الباب. لا يمكنني أن أتعامل مع شخصيّة أخرى في هذا المسلسل العائليّ.

'أمّ زاهي، المقاول يريد ٨٠٠ دولار كدفعة على الحساب. أين المال'؟

'هناك في الخزانة، تحت القمصان المطويّة'، قالت أم زاهي بصوتها المعتاد، دون نشيج. وتوجّه أبو زاهي نحو الخزانة.

'حسناً، ها هو'، قال فيما تناول الدولارات وعاد إلى الصالون.

'عدني بحجر جيّد ذي نوعيّة ممتازة'.

'ولو يا زلمة [رجل] أحسن حجر'.

كنت لا أزال أبحث عن كلمات لاسترضاء أمّ زاهي عندما أشرق وجهها وأخبرتني بنبرة فرحة، 'آه يا سعاد، نسيت أن أخبرك

أنّني سأذهب أنا وأبو زاهي إلى الحجّ هذا الربيع. لقد وافقوا على تسجيل اسمينا هذه السنة، خلافًا للسنة الماضية. أتعلمين كم سيكلّف الحجّ كلاً منّا'؟

كنت آمل أن يكلّف الحجّ أقلّ من ٨٠٠ دولار، كلفة الإسمنت والحجارة.

'مبروك يا أم زاهي، هذا خبر رائع'. وسررت لقولي الكلمات الملائمة في هذه المناسبة.

لم أقدّر الحجّ في حياتي من قبل مثلما قدّرته هذه المرّة.

وفيما عدت إلى البيت، توالت صور زجاج الدكّان المكسور، وتعابير وجهي رامي وأحمد، والعاهرة، وابن الحرام، وأسعار الإسمنت والحجر، وزوجة الأخ جميلة، والموظّف في الإدارة المدنيّة، والعميل، ومدمن المخدّرات، وفرط جرعة المخدّرات، وأخيرًا صورة أمّ زاهي وأبي زاهي وهما يطوفان حول الكعبة في مكّة، جعلني ذلك كله أدرك كم هي مملة دراستي وأطروحتي وربما حياتي أيضًا.

أغرتني الأضواء الحمراء والخضراء البرّاقة التي ترسم كلمتي 'حجّ مبروك'، وترحّب بعودة أمّ زاهي وأبي زاهي من مكّة، بزيارتهما، لكنّني مارست ضبط النفس هذه المرّة.

وبعد ذلك بعدّة أشهر، شاهدت أمّ زاهي من بعيد تسير على الطريق. كانت ترتدي الجلباب والحجاب.

ـ ٦ ـ

حمّى التسوّق استباقًا لصواريخ صدّام

شباط ١٩٩١

حدّقت مليًّا في عينيه.

طالما تملّكتني الرغبة في أن أفعل ذلك، لكنّني كنت خائفة جدًّا ومتردّدة.

لم أستطع أن أرفع عينيّ عنه.

لم يلحظني في البداية، أو لعلّه قرّر أن يتجاهلني.

وكلّما استرق نظرة سريعة في اتجاهي، وجد عينيّ تحدّقان فيه.

كان داخلي يرتجف، على الرغم من مظهري الهادئ.

وكان بوسعي أن أسمع وقع نبضات قلبي.

وكلّما ازداد توتّره، شعرت بمزيد من الرضى.

كنت آخذ بثأر طال انتظاره.

إنّه الأسبوع الثالث من حرب الخليج ١٩٩١. لم يكن لديّ أي فكرة لماذا رفع الجيش الإسرائيليّ منع التجوّل في هذا الوقت الغريب: بين الثالثة والسادسة بعد الظهر. فغالبًا ما يرفع منع التجوّل في الصباح الباكر، أو عند الظهيرة على الأكثر. ربما كان لدى القائد العسكريّ الإسرائيليّ موعد غرامي مع عشيقته في الليلة الماضية. وربما نسي أنه فرض علينا منعًا للتجول في ذلك اليوم، من يدري؟

لا يمكننا أن نعلم علم اليقين مقدار جديّة هذا الاحتلال أو عدمها.

'هل تريدين الذهاب للتسوّق معنا'؟ سأل سليم متردّدًا، وهو يعرف جوابي مسبقًا.

'لا، خذ أمّك واذهب'.

'حسنًا'، جاءت الإجابة السريعة والمستسلمة.

'لمَ لا تريدين الذهاب معنا'؟ سمعت صوت حماتي الحشريّ من غرفة نومها، حيث ترتدي ملابسها، مستفسرة. فقد قدمت للإقامة عندنا عندما بدأت الحرب وبقيت إلى أن رفع منع التجوّل.

'ألم تسأمي وتتعبي من البقاء في البيت؟ إنّنا عالقون تحت منع التجوّل منذ ثلاثة أسابيع. الله أعلم، ربما يمتدّ إلى ثلاثة أشهر أخرى... وربما أكثر. حرام عليكِ يا سعاد، تعالي شمّي شويّة هوا'.

'هل أنت واثقة أنّه هواء منعش يا أم سليم؟ ربما أطلق صدّام صواريخ سكود كيمياويّة عصر هذا اليوم فيما أنت في الخارج تتسوّقين'! قلت مازحة.

ردّت عليّ بنبرة شبه جادّة، 'لكنّ الإسرئيليّين أبناء الحرام لم يكلّفوا أنفسهم عناء إعطائنا أقنعة واقية من الغازات، فما الفرق إذًا سواء أكنت داخل البيت أم خارجه'؟

'لا يا أمّ سليم، أنا أمزح'.

كرّرت القول، 'يللا تعالي'.

'لا، لا بأس يا حماتي، إنا بخير. اذهبي مع سليم وحاولي أن تعودي باكرًا ـ لقد وعدنا جورج ولميا بزيارتهما'.

'يللا ماما'، صاح سليم من السيّارة بعد أن ملّ الانتظار.

'أعتقد أنّ عليك أن تأتي'، غمغمت فيما أغلقت الباب وراءها.

وغمغمت أنا وراءها متنهّدة، 'وأعتقد أنّ عليك أن تذهبي'.

كنت مكتئبة تمامًا.

ربما كان يجدر بي أن أخرج، لكن ما من طاقة لديّ وما من مزاج.

ذهبت إلى شرفة المطبخ وبدأت أحاول إيجاد حيّز إضافيّ، تحسّبًا لمخزون كميّات الغذاء الجديد الذي سيصل عمّا قريب. وازداد اكتئابي بمجرّد التفكير في ذلك.

كلّما رُفع منع التجوّل، أسرعت الحشود المضطربة إلى الخروج وإفراغ محتويات كل سوبر ماركت ومتجر ومخبز في رام الله والبيرة.

وسرعان ما يحلّ إفراغ الأرفف محلّ الخوف من الجوع والخوف من منع التجوّل الدائم. وتصبح كل متاجر الغذاء مثل مستشفيات المجانين؛ عليك أن تكون لاعب كرة سلّة لكي تتسوّق بنجاح. في الأسبوع الماضي، في متجر زبانة، كان مختلف أنواع البضائع يطير فوق رؤوسنا. بعضها يصل إلى أهدافه، وبعضها الآخر تعترضه أرواح معادية.

'أمسك هذا يا أيمن'، قالت امرأة وهي ترمي أشياء باتجاه ابنها الذي اتخذ لنفسه موقعًا استراتيجيًا قرب الصندوق.

كان الناس يصيحون بعضهم على بعض، ويمرّرون الأغذية فوق رأس أمين الصندوق الخارج عن طوره ويكدّسونها أمامه.

'وَلْكُمْ لَـمين هاي البامبرز'؟ صاخ متري، صاحب الدكّان.

'إلي .. إلي، هيني جاي ... لأ يا ماما خلص شوكولاته هلأ'، صاحت أمّ شابّة من خلف أحد الرفوف، وهي تجرّ ابنتها الصغيرة التي كان وجهها المبتسم ملطّخًا تمامًا بالكيت كات.

'لأ، هاي إلي هلأ لسّه حطّيتها هون وأنت سحبتيها'.

'بس هادا لبن تنوفا، أنت لبنك جنيدي'.

'مش ممكن، أصلاً أنا ما عمري بشتري لبن جنيدي ولا أي منتوج محلي فلسطيني'! أخذت المرأتان تصيحان إحداهما على الأخرى الآن، دون اكتراث لمقاطعة البضائع الفلسطينيّة بدلاً من مقاطعة المنتجات الإسرائيليّة، فيما تواصل تطاير البضائع في الهواء.

'خلص'، صاح ماهر، أخو متري، بصوت غاضب. وأخذ يحاول مسح الماء المالح المختلط بالزيت الذي سال بعد أن أطاح رجل عجوز ببرميل خشبيّ كبير مليء بالزيتون، فيما كانت إحدى الفتيات تساعد جدّتها في النهوض عن الأرض. لكن ذلك لم يردع العجوز عن ملء راحتيه المرتجفتين بالزيتون الأسود الكبير، بينما كان ماهر يتبع بعناية خطّ الماء المالح المختلط بالزيت الذي يقطر من راحتي العجوز.

'مش شايف إنّه المرأة الكبيرة اتزحلقت من فيضان الزيت إللي عملته'؟

'الحق على مين إذا ما كان في كيس أحط الزيتون فيه'؟

ناوله ماهر كيس نايلون.

يا إلهي، أشعر بالتعب من مجرّد التفكير في ذلك.

كنت واثقة من أنّ منازل الجميع في رام الله بدأت تبدو مثل منزلنا: متاجر صغيرة، صحيح بدون أرفف، ولكن مكتفية ذاتيًّا. كانت الأغذية في المطبخ تنتشر في كل أرجاء المنزل. وفي أثناء أيّام منع التجوّل، تحوّلت البيوت تدريجيًّا إلى مطابخ وغرف نوم ليس إلا. كان الإفراط في الأكل، والصراخ المتبادل، وإنتاج الأطفال الأنشطة الثلاثة الوحيدة الممكنة. فلا عجب أن يكون الإسرائيليّون مهووسين تمامًا بالتوازن الديمغرافيّ.

كلّما خبزت إحدى جاراتنا خبز الطابون، تحرص على إرسال بضعة أرغفة إلينا مع أحد صغارها. كنت أصنّف أنواع الخبز المختلفة الموجودة في متجرنا الصغير عندما سمعت وقع خطوات حماتي.

'لقد عدتما إذًا'!

'أفّ... ذلك جنون. أعتقد أنّك محقّة في البقاء في البيت. كأنّه يوم القيامة. الجميع في السوبر ماركت مجانين، كما لو أنّ الغذاء سينقطع عن وجه الأرض. لا أفهم ذلك'، قالت متذمّرة وهي تناولني كيسين كبيرين.

وتابعت بصوت منهك، 'اذهبي وساعدي سليم بإدخال بقيّة الأغذية؛ هناك الكثير في السيّارة؛ اشترينا المزيد من الأشياء في حال لم يرفعوا منع التجوّل بضعة أيام أخرى ـ لا يمكن أن تعرفي ما قد يحدث'.

'لا يمكنك حقًّا'، صحت وأنا أسرع لمساعدة سليم في حمل المزيد من الأكياس وإدخالها إلى المطبخ.

'تعالي يا سعاد، هيّا بنا نزور جورج وليا؛ إنّني بحاجة حقًّا إلى استراحة بعيداً عن أمي. يمكننا متابعة إدخال الأشياء عندما نعود'.

'إلى اللقاء يا أمّي'.

'أفرغ صندوق السيّارة، إنّه مليء بالأغراض'.

'لا تأبهي للأمر، سننجز ذلك عندما نعود؛ ليس أمامنا متسع من الوقت، فسيُفرض منع التجوّل ثانية بعد أربعين دقيقة'، قلت فيما أسرعنا معًا في الخروج.

'لا تتأخّرا، لا أحبّ أن أترك وحدي'،جاءت تعليمات الأم «شبه الإلهية»'.

'نعم يا أمي، نعرف ذلك'.

'لماذا تأخّرتما؟ لم يعد هناك وقت يذكر لزيارة جورج وليا. اتصلا مرارًا يسألان عنكما'، تذمّرت فيرا، ابنة عمّ سليم، ومالت بعنف جانبًا فيما قاد سليم السيّارة بتهوّر بعد أن أقلّها.

أسرعنا بجنون على شارع الطيرة. وفجأة ضغط سليم على الفرامل فمالت السيّارة وبالكاد تجنّبنا الاصطدام بسيّارة أخرى قادمة في الاتجاه المعاكس. لم يكن هناك متّسع من الوقت لكي يتصايح السائقان؛ تابع كل منهما طريقه.

قبل أن نتمكّن من قرع الجرس، كانت لميا على الباب: 'وينكن؟ إنّنا بانتظاركم. لو كنّا نعرف أنّكم ستتأخّرون هكذا، لقضينا مزيداً من الوقت في التسوّق. ولكنّا ذهبنا أيضًا لزيارة أمّ جورج المريضة. لم تستطع ريتا التسوّق إذ كان عليها الإسراع في جلب الدكتور خالد الذي لم يتمكّن من زيارة والدة جورج في أثناء أيّام منع التجوّل...'.

بدأت أشعر في الحال أنّ هذه الزيارة لن تكون مريحة.

'ادخلوا واجلسوا'، سمعنا صوت جورج المضياف المعهود يأتي من خلف لميا.

دخلنا ثلاثتنا وارتمينا على أريكة مريحة.

'هل ذهبتم للتسوّق'؟

'نعم بالطبع، وما زالت الأغراض في صندوق السيّارة - لم يكن أمامنا متّسع من الوقت لإفراغها. ماذا عنكم'؟

'تسوّقنا قليلاً، لكن كان علينا أن نسرع لنكون في استقبالكم'، قالت بلهجة تحمل شيئًا من العتب.

’آسف لأنّني لم آتيكم بكعكة الجبن (تشيزكيك) التي تحبّون؛ فقد توقّف باتيسري يوروبا عن توصيلها من بيت لحم‘، قال جورج قلقًا من ألا تستحوذ ضيافته على الاهتمام كما هو معهود. وأضاف وهو يسرع إلى المطبخ لجلب طقم الشاي المعدّ بعناية، ’بسبب الحرب كما تعلمون‘.

’لميا، اسأليهم ماذا يحبّون أن يشربوا‘.

’لا عليك يا جورج، لا تزعج نفسك. لقد جئنا لرؤيتك أنت ولميا، ولا نحتاج إلى أي شيء آخر. علينا العودة بعد قليل على أي حال ـ يجب أن نكون في طريق العودة خلال ربع ساعة‘.

’على الأكثر‘، قالت مضيفتنا القلقة بالفعل.

’لا، يجب أن تتذوّقي الكعكة التي خبزتها خصّيصًا لك يا فيرا. كما أنّني تدبّرت الحصول على شاي إيرل غراي لسعاد؛ أنا أعرف أنّها تحبّه. أمضيت عشر دقائق قبل أن أتمكّن من الوصول إليه عند زبانة. كان التسوّق هناك جحيمًا. تعرفون كم يمكن أن تكون سهام عودة مهووسة. كانت هناك وأرادت الحصول على خلّ بلسميّ. وعندما لم تجده على الرفّ أصرّت على أن يذهب متري لإحضاره من المخزن المجاور. واضطر المسكين متري إلى فعل ذلك على الرغم من طلبات المتسوّقين المحيطين به. لو عرفت أنّكم ستتأخّرون لتمكّنت من إحضار شاي أخضر أيضًا، لكنّني لم أشأ

التأخّر عليكم'. كان جورج يسوق كل أنواع الأعذار استباقًا لأيّ عيوب في خدمته الست نجوم.

'هل قدّمت المشروبات يا لميا'؟ سأل جورج قلقًا من المطبخ. سمعنا طقطقة فناجين الشاي. 'توقّف يا جورج، لا يكاد يوجد متّسع من الوقت للشاي، تعال إلى هنا بسرعة'.

كنّا مشغولين تمامًا بتحضيرات مضيفنا.

'هل تعتقدون أنّ صدّام سيستخدم رؤوسًا كيمياويّة أو نوويّة'؟ سأل سليم محاولاً التخفيف من حدّة الجوّ.

قالت فيرا بقلق، 'علينا المغادرة يا جورج؛ الظلام بدأ يحلّ ويجب أن نذهب قبل أن يعاودوا فرض منع التجوّل'.

'لا، انتظروا، لقد أعددت كل شيء'، جاء صوت جورج غير المقنع، ممزوجًا بقعقعة الأطباق والشوك والفناجين.

وسرعان ما قوطع الحديث غير المترابط وتوقّفاته الكثيرة بصوت صرير عربة الشاي التي مالت دواليبها، والتي شهدت أوقاتًا أفضل بلا شكّ.

'عندما تستقرّ الأمور قليلاً علينا شراء عربة جديدة'، قال جورج بنبرته الاعتذاريّة الدائمة. بدأ جورج يرفع عن العربة المائلة كل قطعة على حدة ويضعها على طاولة القهوة أمامنا: كاسات

النقـولات المصنوعـة من الخـزف الأرمنيّ، وإبـريق الشـاي ذا اللون الترابيّ، والفنـاجين والصحـون الصغيـرة المتطابقـة الألـوان، السكّريّة وإبريق الحليب، وكعكة الجزر على صينيّة فضيّة، أطباقًا فخّاريّة صغيرة مع محارم ورق حمراء وخضراء فيما بينها، ربّما من مخلّفات عيد الميلاد. وعندما امتلأ وسط طاولة القهوة، بدأ بوضع الأشياء على ثلاث طاولات جانبيّة صغيرة.

'ما هذا يا جورج، خدمة رائعة، كأنّه ليس هناك حرب'! قالت فيرا مبدية إعجابها.

تناولنا الكاتو بسرعة وابتلعنا الشاي الساخن، وودّعناهما بألسن مكتوية وأفواه ملآنة.

'أرجوك يا فيرا أن تأخذي كعكة الجزر معك، أنا ولميا نتّبع حمية غذائيّة... أرجوك أن تأخذيها وإلا تناولناها في جلسة واحدة. لقد ازداد وزننا خلال منع التجوّل'.

باي...

باي...

باي...

باي...

باي...

شعرنا ثلاثتنا بقلق شديد عندما أدركنا أنّنا تجاوزنا موعد منع التجوّل بعشر دقائق. قفزت إلى المقعد الخلفيّ، وجلس سليم وفيرا في المقعدين الأماميّين وعدنا بأقصى سرعة.

كان الظلام دامسًا والجوّ عاصفًا؛ وقد جعل المطر والضباب الكثيف قيادة السيّارة مستحيلة ومتلفة للأعصاب. كنّا الوحيدين في شوارع رام الله، ما أدى إلى مزيد من التوتر وعدم الراحة.

لم ندرك أنّ الشيء الذي أمامنا كان جيبًا للجيش الإسرائيليّ إلا عندما كدنا أن نصطدم به.

سقط قلبي.

واصفرّ وجه سليم.

وأصيبت فيرا بصدمة هائلة.

لم نشاهد شيئًا سوى فوهتي البندقيّتين المصوّبتين نحونا. ولم يلزمنا وقت طويل لندرك أنّنا وقعنا في ورطة كبيرة.

'أوقفوا المحرّك واخرجوا على الفور'، صاح أحد الجنديّين.

خرج سليم وفيرا من السيّارة على عجل. وعلقتُ في المقعد الخلفيّ إذ لم أستطع الوصول إلى العتلة التي تُميل المقعد الأمامي. طالما كرهت السيّارات ذوات البابين.

'أنتِ في المقعد الخلفيّ، اخرجي'.

'لا أستطيع فتح الباب'، أجبت فيما أحاول جاهدة الوصول إلى عتلة المقعد الأماميّ.

'لا بأس، ابقي حيث أنت'، قال أحد الجنديّين، فيما كان صديقه يفتّش سليم. وقفت فيرا ساكنة تحت المطر المنهمر. وسرعان ما طُلب منها بعد ذلك تسليم هويّتها والعودة إلى السيّارة.

'افتح الصندوق'، صاح أحد الجنديّين بسليم.

يا إلهي! أكياس التسوّق.

عندما فتح سليم صندوق السيّارة، قفز الجنديّان إلى الخلف بفزع.

'ما هذا'؟ سأل أحدهما فيما صوّب البندقيّة نحو أكياس التسوّق العديدة.

'أكياس تسوّق أمّي'، أجاب سليم بابتسامة عصبيّة ووجه تعلوه أمارات الذنب دائماً.

'أخرجها'، أمر أحد الجنديّين فيما حرّك فوّهة بندقيّته بين رأس سليم وأغراض حماتي.

'أيمكنني الخروج للمساعدة'؟ سألت محاولة تنفيس التوتّر المتصاعد.

'حجّة، خلّيك وغا (وراء)'، أجاب الجنديّ باللهجة المتعالية التي غالبًا ما يستخدمها الجنود الإسرائيليّون عندما يخاطبون الفلسطينيّين، والنساء خاصّة.

نظر إليّ عبر النافذة المفتوحة على اتساعها في الخلف. وكان واقفًا هناك، رأسه بجوار رأسي.

كان يمكن أن تُمسك يدي بخنّاقه بسهولة.

حجّة! يا كلب، صحيح أنّني يمكن أن أكون بعمر والدتك أو ربما أكبر، لكنّني لست حجّة (عجوزاً) يا حيوان.

شعرت بإهانة شديدة أنستني تمامًا مهمّة سليم المستحيلة إخراج كل أكياس التسوّق تحت المطر المنهمر.

لا بد من تعليم الجنود الإسرائيليين، بالإضافة إلى أمور كثيرة أخرى، ألا يتفوهوا أبداً بكلمة حجة، فهي تضاعف من ألم الاحتلال.

لا أدري ماذا انتابني في تلك اللحظة بالذات. لعل كلمة حجة، وعدم النضج والولدنة في صوت الجنديّ، وظلمة الليل وغموضه، أثارت جميعها فيّ إحباطات أسابيع منع التجوّل، وسخط أشهر الإعداد لحرب الخليج، والغضب والمهانة اللذين يسبّبهما الاحتلال منذ ٤٠ عامًا، وعقود الطموحات غير المتحقّقة، والحنين الأبديّ إلى الحياة الطبيعيّة.

كنت أفكّر في استراتيجيّات المواجهة.

الكلمات الغاضبة، أو لا سمح الله أعمال العنف، من امرأة في أوائل سنّ اليأس تحت الاحتلال قد تؤدّي إلى نتائج لا تُحمد عقباها، إذا لم تكن عليها نفسها، فعلى زوجها المشبع بالماء.

مددت رأسي من النافذة الخلفيّة وحدّقت في الجنديّ الأحمق. كان سليم لا يزال يتحرّك جيئة وذهابًا وهو يفرغ الصندوق من أكياس التسوّق. وما إن انتهى حتى صاح الجنديّ بعربيّة مكسّرة: 'غوح (روح) وقّف جنب الحيط'.

كان الجنديّ لا يزال يعبث بفوّهة بندقيّته في صندوق السيّارة الفارغ. أدرت رأسي نحوه بحركة نصف دائريّة، وبدأت أحدّق فيه بعينين مستديرتين ومفتوحتين كعيني البومة.

لم أستطع أن أتمالك نفسي. كان الغضب عارمًا فقرّرت المواجهة. وكاد رأسي أن يلامس رأسه.

'لماذا تحدّقين بي'؟ قال الجنديّ معترضًا.

أدمت النظر في عينيه مباشرة بوجه خال من كل تعبير. 'توقّفي عن التحديق بي'، صاح الجنديّ السريع الاهتياج.

هل أثار التحديق غضبك يا وغد؟

أتساءل عمّا سيكون عليه ردّ فعلك لو عشت تحت الاحتلال عدد السنين التي عشتها، أو انتُهكت حقوق تسوّقك،

مثل سائر حقوقك الأخرى، ليل نهار، أو اقتُلعت أشجار الزيتون في بستان جدّك من جذورها، أو دُمّرت قريتك بالجرّافات، أو نُسف منزلك، أو لم تستطع شقيقتك أن تصل إلى مدرستها، أو حُكم على أخيك ثلاثة أحكام مدى الحياة، أو ولدت أمّك عند نقطة تفتيش، أو وقفت في الطابور أيّامًا في صيفيّات آب الحارّة بانتظار الحصول على تصريح عمل، أو لم تستطع الوصول إلى أحبّائك في القدس الشرقيّة العربيّة؟

نظرة واحدة وتفقد صوابك!

'هل سمعتِ ما أقول؟ كفّي عن التحديق بي! هل أنت صمّاء'؟ كرّر الجنديّ صراخه.

لست صمّاء ولا عمياء ولا بكماء، أيّها الولد. أنا مثل سائر شعبي، تعلّمت كيف أصطنع الصمم، وأنتحل العمى، وأدّعي البكم كلما التقيت بأحدكم في بلداتنا، أو شوارعنا، أو بيوتنا، أو غرف جلوسنا، أو حتى في غرف نومنا.

هل تريد أن تعرف كيف شعرت وأنا أتصنّع الصمم عندما أهان زملاؤك الجنود العجوز عند نقطة التفتيش؟

أتريد أن تعرف كيف شعرت عندما انتحلت العمى فيما كان زملاؤك يضربون طلاّبي، وأنا في طريقي إلى جامعة بيرزيت؟

أم تريد أن تعرف ماذا كان يدور في ذهني عندما صرخ أحد جنودكم المحبوبين بلغة عربيّة مشوّهة على النساء اللواتي يقفن بجانبي تحت المطر والعواصف، فيما كنّا نتوسّل للحصول على تصاريح إقامة تمكّننا من العيش مع أزواجنا وعائلاتنا؟

هل تفهم الآن لمَ نتصرّف كالصمّ والعمي والبكم في معظم حياتنا؟

هل تدرك ما ستكون عليه الحال إذا بدأنا نتصرّف كأناس عاديّين في كل يوم، أو كل ساعة، أو كل دقيقة، أو كل ثانية تنتهكون فيها حقوقنا؟

هل تدرك ما نوع الإرادة (والإذلال) التي تلزم لتعليم أنفسنا ألا نسمع، وألا نرى، وألا نجهر بالصوت؟

لذلك بالضبط يتفاجأ العالم بأجمعه عندما نقرّر أن نرى ونسمع ونتكلّم، كل عقد أو اثنين من الزمن.

حدث ذلك في سنة ١٩٢٩.

وفي ١٩٣٦.

وأخيراً في ١٩٨٧.

عندما سمعنا آخر مرّة ورأينا وتحدّثنا، كنت أنت في الرابعة عشرة من عمرك.

'قلت توقّفي عن التحديق بي'، زعق الجنديّ.

في ذلك الوقت أدرك سليم وفيرا لعبتي.

'ماذا يجري'؟ جاء صوت سليم العصبيّ من بعيد.

لم أكترث البتّة، وواصلت التحديق في الجنديّ الذي توقّف الآن عن العبث في الدولاب الاحتياطيّ الموجود في الصندوق.

'توقّفي يا سعاد، لا أعتقد أنّه الوقت المناسب لذلك'، ناشدني سليم في يأس.

كان جسدي ملتويًا، وعنقي ممدودة كعنق زرافة، وعيناي الواسعتان أصلاً مفتوحتين على اتساعهما، بل ازدادت حدّة تحديقهما. لم أكن في وارد أن أستمع إلى أي منهما، ولا لفيرا الخائفة التي تتوسّلني من المقعد الأماميّ.

'أرجوك أن تتوقّفي يا سعاد'، توسّل سليم ثانية. 'أنت توقعيننا دائمًا في مشاكل مع الجنود الإسرائيليّين. هذا ليس الوقت المناسب لذلك؛ علينا العودة إلى البيت قبل أن تشتدّ العتمة. تعرفين أنّ أمّي بمفردها في البيت... إنّنا لسنا في موقف يسمح لنا بالمخاطرة'.

كنت مشدودة، وعيناي مثبتتين على عينيْ الجنديّ الإسرائيليّ.

'هذه آخر مرّة أقول لك فيها أن تتوقّفي عن النظر إليّ، هل تفهمين'؟ قال الجنديّ بلهجة آمرة نهائيّة.

'وبعدين'، قال سليم بصوت مرتفع.

'ما هو وجه قرابتها لك'؟ سأل الجنديّ.

'إنّها زوجتي'، أجاب سليم بدون فخر.

'إذًا أطلب من زوجتك أن تكفّ عن التحديق بي'.

'توقّفي عن التحديق به يا سعاد'.

دون جدوى.

'سعاد خلص'، قالت فيرا بصوت عالي النبرة.

'إذًا زوجتك هذه لا تسمع كلامك، أليس كذلك'؟ هلأ إجا حديث الرجال.

لم ألتفت إلى سليم لأرى ردّ فعله، إذ كنت لا أزال مركّزة على التحديق بعيني الجنديّ مباشرة.

'حسنًا، عد إلى سيّارتك وانتظر، مش عارف تربّي مرتك'، علّق الجنديّ في محاولة لتحقير سليم.

كان أوّل شيء قاله سليم عندما فتح باب السيّارة ودخل، 'أترين ما أعنيه'.

'هل هذا ما تريدينه يا سعاد'؟ لامتني فيرا، ابنة عم سليم.

مسكين سليم، كان ماء المطر يقطر منه على مقعد السيّارة؛ فهو خلافًا للجنديّين، لم يكن يرتدي مِمْطَرًا.

كان مبتلاً تمامًا وبدا في حالة يُرثى لها. شعرت بالأسى، لكنّني لم أندم على مقاومتي السلميّة للاحتلال.

عليّ أن أعترف أنّ ذلك لم يكن له أي علاقة بكلمة حجة.

إِنّه أقلّ ما يمكن أن أفعل لأردّ عليهم.

كنت آخذ بثأر طال انتظاره.

مضت بضع دقائق قبل أن يختفي الجنديّ في أحد الجيبين المتوقّفين في ضباب طريق الطيرة.

تُركنا وحدنا في السيّارة. بدأ سليم وفيرا يعصفان بصوت عالٍ لا يقل عن ارتفاع عصف الريح في الخارج.

عندئذٍ انفجرت في ضحك هستيريّ.

'لا أعتقد أنّ ذلك مضحك'، قال سليم.

غرق المقعد الأماميّ في صمت رهيب، فيما تكوّرت في المقعد الخلفي ضاحكة.

'أنت ترتكبين المهاترات دائمًا وأنا من يدفع الثمن في النهاية. أتذكرين عندما حاول الجنود مصادرة سيّارتنا'؟ قال سليم موبّخًا.

كنت لا أزال أقهقه في الخلف عندما ظهر الجنديّ ثانية من وسط الضباب. مال نحو نافذة سليم وقال بلهجة آمرة، 'اتبعني'.

'ماذا عن أكياس التسوّق؟ لِمَ لا تودّع حاجيات أمّك يا سليم'؟ صرخت من الخلف وأنا أضحك فيما لوّحت مودّعة.

رأيت سليم وفيرا يتبادلان النظرات.

وسرعان ما رافقنا جيبان عسكريّان؛ واحد من الأمام والآخر من الخلف.

لا شكّ في أنّ وجود جيب عسكريّ أمامنا جعل القيادة في الضباب الكثيف أسهل بكثير.

دخلنا مبنى المقرّ العسكريّ في رام الله، مقرّ قيادة الإدارة المدنيّة. توقّف الجيبان وظهر جنديّنا العزيز ثانية.

أمر سليم بالخروج.

راقبت أنا وفيرا سليم المسكين المشبع بالماء وهو يختفي في متاهات المقرّ العسكريّ المظلمة.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن أكسر الصمت.

'هل يمكنك أن تتصوّري ما الذي سيقوله الجنديّ لقائده'؟ ضحكت في محاولة لرفع معنويّات فيرا.

’لم تتوقّف زوجته عن التحديق بي‘، قلت محاولة تقليد صوت الجنديّ المراهق.

وانفجرت ثانية في ضحك هستيريّ.

أدركت فيرا لامعقوليّة الموقف، وانضمّت إليّ أخيراً في ضحك محموم.

وسرعان ما أعددنا مشاهد مسرحيّة كافكاويّة عن ’محاكمة سليم‘.

كنّا في المشهد الخامس عندما ظهر سليم.

وسرعان ما صار الضحك الهستيريّ الثنائيّ ثلاثيًّا.

وتحوّل الحسّ الفكاهيّ الجافّ لدينا إلى رطب، عندما بدأت دموع الضحك تنهمر على خدودنا.

’أخبرنا ماذا حدث‘؟ تساءلت أنا وفيرا باهتمامك بالغ.

’لن تصدّقا ما حدث. أخذني الجنديّ إلى... ها... ها... ها...‘. وقهقه سليم غير قادر على إكمال جملته.

’خلص سليم، أخبرنا‘.

حاول رواية ما حدث ثانية.

’اقتادني الجنود إلى الداخل وجعلوني أنتظر. كان الجنود الآخرون الذين يمرّون بي ينظرون إليّ بارتياب، محاولين معرفة ما

الذي أوصلني إلى هنا في مثل هذه الساعة (فيما البلدة بأكملها خاضعة لمنع التجوّل) ووسط حرب ساخنة. وبعد مرور بعض الوقت، عاد الجنديّ الإسرائيليّ وطلب منّي مرافقته. وقفنا كلانا أمام مكتب الكابتن روني'، وقهقه سليم ثانية.

'طرق الجندي على باب مكتب الكابتن روني وانتظر، ثم طرق ثانية، وسمعنا ردّ الكابتن روني من الداخل.

'«من الطارق؟ ادخل». فتح الجنديّ الباب ودخل متردّدًا. وجرجرت قدمي خلفه. كان الكابتن روني يتحدّث على الهاتف، وقفنا كلانا ساكنين أمام مكتبه، مثل جنديّين صالحين يؤدّيان واجبهما، بانتظار أن ينهي محادثته الهاتفيّة الطويلة'.

وأضاف سليم، 'تعلمان أنّ معرفتي باللغة العبريّة ليست جيّدة. وكان القليل الذي فهمته...'

بدأ سليم يقلّد القائد الأعلى بعربيّة مكسّرة.

'«المنطقة واو، نعم، نعم، صواريخ سكود... بغداد الصغيرة(*)... الفلسطينيّون يطرقون على الأعمدة الكهربائيّة، ويصيحون من على السطوح، ربما أسبوع آخر أو اثنان من الحرب، صدّام، صواريخ الباتريوت غير ناجحة حقًّا»'.

---

* ـ «بغداد الصغيرة» حي في تلّ ابيب يقطنه العراقيون اليهود سقطت عليه صواريخ سكود خلال الحرب.

فجأة أبعد الكابتن روني، الذي كان يحدّق فينا كلينا طوال تلك المدّة، سمّاعة الهاتف عن فمه، ونظر إلى الجنديّ وسأل، «ما الأمر يا رافي»؟

نظر الجنديّ، رافي، إلى القائد وقال متردّدًا، «كانت زوجته تنظر إليّ».

«ماذا»؟ أجاب الكابتن روني مذهولاً تمامًا.

«كانت زوجته تحدّق بي».

«زوجة من»؟

«زوجته»، وأشار إليّ.

«من هو»؟

لم يكن الجنديّ يعرف من أنا، فأخرج هويّتي وقرأ بصوت مرتفع، «سليم إدمون إلياس تماري». ونظر إلى قائده على أمل أن يكسب تعاطفه.

«وماذا عن شالوم إدي إليون تماري»؟ سأل الكابتن روني بتململ، وهو لا يزال ممسكًا بسمّاعة الهاتف.

«لم تتوقّف زوجته عن النظر إليّ»

«إليك أنت»!

'« نعم يا سيدّي إليّ » .

'« لماذا » ؟

'« اسأله، لا أعرف »

'« ولماذا كانت زوجتك تنظر إلى رافي » ؟ سأل الكابتن روني غير مقتنع .

'فيما أخذت وقتي بحثًا عن إجابة مستحيلة، أنقذتني زعقة أطلقها الكابتن روني، اخترقت الرعد والبرق وملأت سماء رام الله .

'« اخرجا أنتما الاثنان من هنا . ألا تدركان أنّنا في حرب؟ الشعب اليهوديّ مهدّد بأسلحة صدّام الكيمياويّة وصواريخ سكود . . . ابتعدا عن ناظريّ أيها الأحمقان . . . الآن » .

'استدار كلانا بسرعة وخرجنا من مكتب الكابتن رافي إلى الممرّ الطويل المظلم . وكانت صرخاته لا تزال تُسمع . نظر كل منّا إلى الآخر، ثمّ ناولني هويّتي وانصرف' .

عندما عدنا إلى البيت في الظلام الدامس وفي ظل منع التجوّل، أعدنا تمثيل السيناريوهات المختلفة 'لمحاكمة سليم' . وبدأنا بتخيّل العناوين الرئيسيّة للصحف في الصباح التالي .

قطع الضابط الذي يذيع النشرة الصحفيّة للجيش الإسرائيليّ أخبار الحرب ليعلن :

’حُكم على الأستاذ تماري، من جامعة بيرزيت، منبع الإرهاب، بالسجن ستّة أشهر، لأنّه لم يردع زوجته عن إطلاق نظراتها الحادّة على جنديّ إسرائيليّ في أثناء أدائه الواجب في يهودا والسامرة‘ (الضفّة الغربيّة).

وأضاف الناطق باسم الجيش الإسرائيليّ الذي أصرّ على عدم الكشف عن اسمه لأسباب أمنيّة، ’ومن تجربتنا السابقة، يمكننا القول إنّ هذا النوع من النظرات غالبًا ما يسبق أحداث العنف المهدّدة للحياة. وما السجن ستّة أشهر إلا تدبير وقائيّ‘.

لم يسأل أحد قطّ لمَ يُعاقب الزوج لا الزوجة مرتكبة الجرم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ ٧ ـ

أقنعة الميعاد

شباط ١٩٩١

رنّ جرس المنزل بصورة غير متوقّعة في ظلّ منع التجوّل. كانت عيناي نصف مفتوحتين، حملت نفسي على النهوض على قدميّ الحافيتين المتيبّستين، وذهبت لأجيب.

'شو في يا حسن'؟ سألت ابن الجيران الذي يبلغ عمره إحدى عشرة سنة.

'خالتو، أسرعي أنت وعمّو سليم. عليكما جلب أقنعة واقية من الغازات'.

'عن أي أقنعة غاز تتحدّث'، استفسرت وأنا نصف نائمة.

'لقد قرّر الجيش الإسرائيليّ توزيع أقنعة للغاز في حيّنا... فقط حيّنا'.

'لماذا؟ هل قرّر صدّام ضرب حيّنا ـ نحن لسنا «بغداد الصغيرة» أليس كذلك'؟ كنت أحاول جاهدة إيجاد معنى لما قاله حسن.

'لا أعرف يا خالتو، طلبت أمّي منّي أن أبلغك أن تذهبي لجلب أقنعة الغاز... لقد شاهدت كل الجيران يخرجون طلبًا لأقنعة الغاز إلا أنتِ وعمّو سليم'.

'لكنّ الحرب توشك على الانتهاء'.

'لا أعرف، خالتو'، ردّ حسن وتسلّل مبتعداً هربًا من مزاجي الصباحيّ السيئ.

سألت، 'هل رفعوا حظر التجوّل'؟

'لا'، جاء ردّ حسن من بعيد.

'إذاً... كيف سنجلب أقنعة الغاز'؟

'لا أعرف يا خالتو، تحدّثي إلى أمّي إذا كان لديك مزيد من الأسئلة'، سمعت صدى صوت حسن.

عدت إلى الفراش محاولة الحصول على مزيد من النوم، ونسيت كل شيء عن أقنعة الغاز.

بعد ذلك بقليل، رن الهاتف:

'مرحبًا، أنا هيفاء'.

'نعم، نعم، جاء حسن وأخبرني، لكنّني لم أصدّقه تمامًا... هل رفعوا منع التجوّل؟ ... جاء جيب عسكريّ وقال إنّ علينا إحضار أقنعة الغاز؟ ... في السادسة صباحًا؟ إنّها الظهيرة الآن تقريبًا'، قلت وأنا أنظر إلى ساعتي. 'حسنًا يا هيفاء، سأوقظ سليم ونمرّ عليكم'.

'ما الذي يحدث'؟ سأل سليم وهو يتمدّد ويتمغّط في السرير.

'علينا الذهاب لإحضار أقنعة الغاز'.

'من يحتاج إلى أقنعة الغاز'؟

كنّا نسير نحن الأربعة، هيفاء وغابي وسليم وأنا، وسط شارع المصايف نحو المقرّ العسكريّ في رام الله.

قال غابي بصوته الهادئ عندما بلغنا منتصف الطريق إلى هدفنا، 'لقد ذهب معظم جيراننا باكرًا لجلب أقنعة الغاز، وها قد مرّت نحو ستّ ساعات دون أن يرجع منهم أحد'.

لم أعرف كيف أفسّر هذا الخبر الصغير. كنت أصلاً قلقة بشأن الخروج فيما التجوّل لا يزال ممنوعًا، وأفكّر في الناس الذين قُتلوا أو جُرحوا في الماضي نتيجة خرق منع التجوّل.

إذا اضطرّ المرء إلى الخروج في أثناء منع التجوّل، فإنّ عليه أن يكون شديد الحذر وألا يلفت الأنظار.

المشي مع غابي وهيفاء خطر بكل تأكيد. فهو طويل يقارب المترين، وذو رأس كبير وملامح مبالغ فيها. وكانت سترته البنّيّة المائلة إلى الأحمر تلفت الانتباه عن بعد كيلومترات. أما هيفاء فهي بطولي، ١٧٢ سنتيمتراً، لكنّ صدرها الكبير وكتفيها العريضين يمنحانها مظهراً يوحي بالثقة. وكان صوتها السوبرانو الرفيع يرتفع وينخفض، في تباين حادّ مع صوت غابي العريض ومع الصمت الرهيب المخيّم على رام الله في ظلّ منع التجوّل. وكان غابي وهيفاء عضوين في جوقة القدس. وخلافًا لنا نحن الثلاثة، لم يكن حجم سليم يشكّل عبئًا، لكنّ تعابير وجهه المذنبة والمريبة على الدوام لن تساعد إذا تمّ توقيفنا. وقد ساهم صمته في تصاعد التوتّر.

تساءلت في نفسي، ألا يكون مأسويًّا أن يُطلق علينا الرصاص فيما نحن نحاول إنقاذ أنفسنا بالحصول على أقنعة واقية من الغازات؟

'لا أفهم لمَ لا يرفعون منع التجوّل أو يوزّعون أقنعة الغاز ببساطة'؟ سألت غابي الذي بدا مرتاحًا تمامًا خلافًا لحالي - يحرّك يديه وساقيه بشكل مبالغ فيه.

’أتعنين يا سعاد أنّ كل شيء آخر يبدو معقولاً بالنسبة إليك‘؟

’لا، لكنّ الأمر سخيف تمامًا‘.

’أليس العيش في ظلّ منع التجوّل لمدّة ستّة وثلاثين يومًا سخيفًا، أليس عدم إعطاء الفلسطينيّين في الضفة الغربيّة وغزّة أقنعة الغاز سخيفًا، أليس سخيفًا إعطاء العرب في إسرائيل أقنعة غازات قديمة انقضى عهدها، أوليس الجنون المطبق والهستيريا بشأن رؤوس صدّام الكيمياويّة والنوويّة أمرًا سخيفًا، أليس سخيفًا إحضار حماتك وأمّي التي يبلغ عمرها تسعين سنة لتعيشا معنا في غرف مغلقة ليل نهار... أليس سخيفًا‘؟ بدا أنّ غابي فقد القدرة على الاحتمال.

قلت له على الرغم من أنّني أوافقه الرأي، ’حسنًا يا غابي، دعنا لا ننساق وراء انفعالاتنا‘. أعتقد أنّه لم يعد قادرًا على احتمال زوجته وأمّه معًا. وقد أحسست بتعاطف شديد معه.

خيّم الصمت بعد ذلك، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى قطعته صيحات الحشود وأصوات مكبّرات صوت الجيش القادمة من بعيد.

قال سليم، ’أعتقد أنّنا في حال أفضل بدون أقنعة الغاز‘.

ومع تزايد القلق، واصلنا السير نحو مكبّرات صوت الجيش، باتجاه المقرّ العسكريّ.

'تعال'، صاح جنديّ إسرائيليّ عبر مكبّر الصوت عندما لمحنا من بعيد.

'أعتقد أنّنا في حال أفضل بدون أقنعة الغاز'، قال سليم ثانية.

تقدّمنا نحو الجنديّ الإسرائيليّ انصياعًا لأوامره، وفي أثناء ذلك شاهدنا قسمًا من حافلة مدفونة تحت الحشود الضاغطة؛ كان بعضهم لا يزال محشوراً بداخلها، وآخرون متعلّقين بالنوافذ والأبواب، وبعض الصبية متدلّين من القضيبين في الخلف.

'لن يحصل أحد على قناع غاز ما لم تقفوا بنظام'، صاح الجنديّ ثانية عبر مكبّر الصوت، على الرغم من أنّه يقف على بعد مترين من الحشد اليائس.

تساءلت، عن أيّ نظام يتحدّث؟

قال سليم، 'أعتقد أنّ علينا العودة إلى البيت'.

عندما اقتربنا أكثر، بدأ بعض الحشد يصبح مألوفًا؛ كان هناك أبو العبد، بائع الكاز، بدون حصانه وعربته؛ وأبو مازن، الشرطيّ، بدون بدلته؛ ومنيرة، الممرّضة، بدون مريولها الأبيض؛ وكمال، صاحب الدكّان الذي ازداد وزنه منذ أن شاهدته آخر مرّة قبل بضعة أسابيع. استغرقني التعرّف على وجوه الناس بعض الوقت مع أنّهم جميعًا من أبناء حارتنا.

’لمَ يستخدم مكبّر الصوت؟ إنّه يبعد عنّا مسافة مترين فقط. هل يعتقد أنّنا طرشان‘؟ قلت بأعلى صوتي محاولة التغلّب على صوت الحشد ومكبّر الصوت.

’حتى لو لم نكن طرشانًا، فسنصبح كذلك عمّا قريب‘، ردّ شابّ يتدلّى جسمه البدين من نافذة الحافلة.

كان بعضهم يحاول ركوب الحافلة؛ فيما يحاول الآخرون، الذين يشعرون بالاختناق، الخروج منها.

وقفنا نحن الأربعة هناك نحاول استيعاب ما يحدث؛ انحنى غابي ليتحدّث إلى جارٍ أطرش فعلاً، أبي ماهر، اعتاد على التأشير بيديه بطبيعة الحال. غطّى وجهه براحتيه المرتجفتين، وقد فهمت أنّه يقصد أقنعة الغاز، ثمّ أشار إلى الحافلة، وفهمت من ذلك أنّ على من يريد أقنعة الغاز الصعود إلى الحافلة؛ ثمّ أشار إلى الجندي الذي يحمل مكبّر الصوت فيما حرّك يديه بعيداً عن أذنيه، ثمّ أشار أبو ماهر إلى الحشد ثانية ولكن أشار إلى أسفل الآن. الجنديّ يريد من الناس الخروج من الحافلة.

اقتربت من غابي وأبي ماهر وصحت، ’لمَ توجد هذه الحافلة هنا؟ ها هو مقرّ الإدارة المدنيّة في الجهة المقابلة من الشارع‘.

رفع أبو ماهر حاجبيه الكثيفين، ولوى شفته السفلى، وأدار راحتيه المرتجفتين.

شعرت بيد تمتدّ إلى كتفي فاستدرت. كان ذلك إميل، وهو صديق يقع منزله في هذا المكان. بل إنّ نصف هذه الملحمة تدور أحداثها أمام حديقته تحديداً. انتابني ارتياح شديد عندما شاهدته.

'مرحبًا يا إميل، كيفك'؟ ومنحته قبلة كبيرة، بل ضممته ضمّةً أكبر منها.

صاح بأعلى صوته، 'كما ترين، إذا لم يسعك إقناعهم سايرهم'. وارتسمت ابتسامة كبيرة مشرقة على وجهه الملتحي الطويل.

فجأة لاحظت أنّ إميل يحمل تيرموس قهوة وأكوابًا بلاستيكيّة صغيرة.

سألته، 'ما هذا'؟

'قرّرت أن أشارك في هذه «التراجيديا الكوميديّة»، إذ إنّ المسرح أمام حديقتنا'.

وفجأة تذكّرت مواهب إميل. إنّه ليس مصوّرًا جيّداً فحسب، بل ممثّل موهوب أيضًا. ومع أنّه وسيم، فإنّ مصيبته أنه يشبه تمامًا القائد العسكريّ الإسرائيليّ للضفّة الغربيّة الجنرال إفراييم ميتسناع. وقد كنّا دائمي القلق من أن يطعنه أحدهم عن طريق الخطأ. لكنّ إميل يستمتع أيضًا بالتحيّات العسكريّة الإسرائيليّة التي غالبًا ما يتلقّاها من الجنود الإسرائيليّين.

وها هو ميتسناع يحاول جعل حياتنا تحت الاحتلال ومنع التجوّل محتملة بتقديم القهوة التركيّة.

قرّرت أن أكون مساعدة ميتسناع.

'قهوة، تفضّل'، قلت فيما كنت أمرّر الأكواب البلاستيكيّة على أفراد الحشد من جيراننا. وكان إميل يصبّ القهوة رافعًا يده عاليًا في الهواء، على غرار المقاهي التقليديّة في بلدة القدس القديمة حيث نشأ.

'يخ... ليش بدون سكّر'؟ اشتكى أبو نادر وبصق ما بقي في فمه على الأرض.

'عمّيبي، هذا مش عرس'، قال إميل محتجًّا.

'عرس ونصّ. ح يعطونا أقنعة الغاز عن قريب'، أجاب أبو نادر.

'عزا، عزا، فاهم عزاء، لذلك لا يوجد سكّر؛ ردّ لي القهوة'، صاح إميل مدّعيًا اختطاف كوب القهوة من يد أبي نادر.

انفجر إميل في الضحك، وربّت على كتف أبي نادر. انضممت إليهما بضحكة عصبيّة. فمع إميل لا تعرف متى ينتهي التمثيل ومتى تبدأ الحقيقة.

واصلت أنا وميتسناع تمثيليتنا الصغيرة، واختلطنا بالحشد.

'قهوة عزا تفضّل'، وكنّا نقهقه معًا فيما أمدّ يدي مقدّمة كوب قهوة.

وغالبًا ما يأتينا الردّ، 'فألكم على حالكم'.

قال إميل، 'ربما كان عليّ أن أضيف كيس السكّر زنة عشرين كيلوغرامًا الذي اشتريته بالأمس ـ ألا يكفي أنّني أهدرت كل القهوة عليكم؟ وأسوأ ما في الأمر أنّكم تظنّون الأمر عرسًا؛ أنتم أيّها الفلسطينيّون لا تُهزمون أبدًا، وهيك راحت كل فلسطين'.

'ماذا تعني بأنتم الفلسطينيّين؟ ألست واحدًا منّا'؟ صاح إبراهيم القبضاي، جارنا الذي أطلق سراحه من السجن مؤخّرًا، وبحلق عينيه. ظننت لحظة أنّه يوشك أن يرتكب عملاً رهيبًا ضدّ إميل ميتسناع. فقد كان من الصعب عليّ أن أتبيّن مقدار جديّة الموقف أو هزليّته. لكن أراحتني ابتسامة إبراهيم المبهمة.

'انتظموا في الصفّ. اخرجوا جميعكم من الحافلة وقفوا في الصفّ هنا، وإلا لن تحصلوا على أقنعة الغاز'. كان الجنديّ الإسرائيليّ لا يزال يأمر وينهي.

قلت بصوت خفيض، 'فش إلك قهوة يا عرص'.

لا أدري ما أمْر الجنود الإسرائيليّين. لديهم جميعًا هوس بجعل الفلسطينيّين يقفون في صفّ منتظم. إنّهم يعقّدون حياتنا

بكلّ أنواع التصاريح، ويجعلونها فوضويّة بشكل لا يمكن احتماله، ثمّ يصرّون على أن نقف في صفوف.

'لن يحصل أحد على تصريح ما لم تقفوا في صفّ مستقيم'.

'لن يستعيد أحد هويّته إذا لم تنتظموا في صفّ مستقيم'.

'لن يعبر أحد نقطة التفتيش ما لم تقفوا في صفّ مستقيم'.

'لن يعبر أحد جسر أللنبي ما لم تقفوا في صفّ مستقيم'.

'لن... ما لم... صفّ مستقيم'.

هل شاهدتم يومًا صفًّا مستقيمًا في الطبيعة؟

'يا عمّي نحنا حياتنا فوضى بفوضى. لمَ لا نستطيع الوقوف في صفّ مستقيم'؟ احتجّ رجل متوسّط العمر.

وقال رجل حكيم آخر، 'يا عمّي قفوا في الصف لنحصل على أقنعة الغاز بسرعة. لقد مضى على هذه الفوضى ساعات طويلة حتى الآن'.

وأصرّ سليم مكرّرًا، 'أعتقد أنّنا في حال أفضل بدون أقنعة للغاز'.

فجأة ظهر سامي وعلي، الشابان العضوان في لجنة الحيّ وتولّيا القيادة. فأخرجا الجميع من الحافلة، بمن فيهم المتدلّين من الخلف والجانبين، وسرعان ما تحوّل الحشد الصاخب إلى صفّ

مستقيم صاخب أيضًا، مستقيم جداً بحيث أنّ بعضهم صار على بعد ميلين، قرب البيت تقريبًا.

قال الجنديّ الإسرائيليّ، 'حسنًا، بما أنّكم التزمتم جميعًا بالنظام، اصعدوا الآن إلى الحافلة، واحد واحد مفخوم'. بدا كأنّه مدير مدرسة أكثر مما هو جنديّ.

'مفخوم'، ردّد بعضنا مقلّداً لهجته.

دخل نحو خُمس الحشد الحافلة، في حين حاول البقيّة جاهدين المحافظة على الصفّ المستقيم.

'حسنًا، استدر وتوجّه إلى المقرّ'، أمر الجنديّ سائق الحافلة.

'ها هو المقرّ'، قال السائق مشيراً إلى الجهة المقابلة من الشارع.

'قلت استدر'! صاح الجنديّ.

'حسنًا'! أطاع السائق.

عندما بدأت الحافلة بالتحرّك سمعنا شخصًا من الخلف يقول: 'أتظنّون أنّهم سيعطوننا أقنعة غاز؟ هذه حافلة الترحيل إلى الأردن'. انفجرنا جميعًا في ضحك هستيريّ.

'أجل، هكذا رُحّلنا من الناصرة سنة ١٩٤٨'. وتصاعد ضحك هستيريّ أشدّ.

'تظنّون أنّكم محظوظون لأنّكم تمكّنتم من دخول الحافلة' وعلت ضحكة هستيريّة ثالثة.

انضمّت امرأة إلى سيل التعليقات قائلة: 'نحن الفلسطينيّين أغبياء. إنّهم يخدعوننا دائماً، ولا نتعلّم من تجاربنا السابقة'.

'صحيح، لماذا يضعوننا في الحافلة إذا كانوا يريدون إعطاءنا أقنعة غاز فقط؟ كان بوسعهم توزيعها علينا ببساطة. نحن هنا منذ ثماني ساعات'.

'ودّعوا أقرباءكم ـ ربما لن ترونهم ثانية'. وعندما لوّح بيده خارج النافذة، حذونا حذوه.

قال آخر مازحًا: 'لقد أبعدنا إلى أن ينفّذ قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الخاصّ بحقّ عودة اللاجئين إلى ديارهم'

قالت هيفاء: 'إنّني سعيدة جدًّا لأنّ حماتي ليست معنا'

وأضفت أنا: 'سعيدة جدًّا لأنّ أمّ سليم لم ترحّل معنا'

وقال غابي: 'أرأيتم، الترحيل ليس فكرة سيّئة بالضرورة'

تحرّكت الحافلة بضعة أمتار، ما يكفي لتستدير وتوقّفت في الجانب المقابل لمنزل إميل، أمام البوّابات المغلقة للمقرّ العسكريّ. في تلك اللحظة اكتسب الصفّ البشريّ الهندسيّ الحياة ثانية بالعودة إلى ما كان عليه: حشد صاخب فوضويّ.

في أثناء انتظارنا، بعضنا داخل الحافلة، وبعضنا خارجها، ظهر جنديّان إسرائيليّان من المقرّ.

'وأخيراً'، قال غابي متنهّداً.

وقال صبيّ صغير بصحبة أمّه، 'إنّني متشوّق جدًّا للإمساك بقناع غاز بين يديّ. لقد شاهدته على التلفاز فحسب'.

أجابت أمّه: 'يمّا يا صابر، إنّه يجعلك مثل كائنات قادمة من المرّيخ. لا أدري كيف تتنفّس به. لن أرتدي واحداً. أفضّل الموت بالغاز على أن أبدو هكذا'.

فقال صابر بفرح شديد: 'أيمكنني الحصول على اثنين إذًا'؟

كنّا جميعًا ننظر جانبًا، ونراقب تحرّكات الجنديّين الإسرائيليّين. وفيما كانا يخرجان من بوّابة المقرّ ويدخلانها، كانت آمالنا ترتفع وتنخفض. وأخيراً اقترب الاثنان من حافلتنا حاملين معهما أخباراً جيّدة ـ أو هكذا كنّا نأمل. اقترب واحد منهما أكثر، ونظر إلى السائق وبدأ يلوّح بيديه.

سأل السائق: 'إيش بدّو هذا هلّق'؟

'إلى الوراء'، أشار أبو ماهر الذي اتخذ موقعًا استراتيجيًّا على المقعد الذي يلي السائق مباشرة.

'إلى أين'؟ سأل السائق.

’إلى الوراء‘، أشار أبو ماهر ثانية.

واصل أحد الجنديّين التلويح بيديه، فيما التقط الآخر مكبّر الصوت وبدأ يفرض منعًا للتجوّل لم يُرفع أصلاً:

’ممنوع التجوّل حتى إشعار آخر‘.

’أرأيتم، كنّا بغنى عن أقنعة الغاز‘، قال سليم، بعدما أصبحنا جزءاً من الحشد الذي أسرع بالعودة إلى البيت خالي الوفاض.

انتهت حرب الخليج بعد عدّة أيام. ولم تُعطَ أقنعة غاز لأي من الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وقطاع غزة.

وأعطي كل الإسرائيليّين أقنعة واقية من الغاز.

توفّي أربعة أسرائيليّين نتيجة حقن أنفسهم بمادّة الأتروبين خوفًا من أسلحة صدّام الكيمياويّة.

في الحقل خلف البيت تعرّفت إلى صابر، يلعب لعبة الجنود مع أصدقائه فيما يحمل قناع غاز. أردت أن أسأله من أين حصل عليه، لكنّني لم أفعل.

ـ ٨ ـ

فلسطين المزركشة

أواخر سنة ١٩٩١

لم تمرّ بضع دقائق على مغادرة سليم بسيّارته حتى رنّ الهاتف. سمعت في الطرف الآخر صوت رامي القلق المألوف: 'مرحبًا يا سعاد'. لاحظت أنّني لم أعد خالتو.

قلت: 'مرحبًا يا رامي، لم أرَك منذ فترة طويلة'.

'نعم، إنّني مشغول بعملي في تل أبيب'.

توقّفت قبيل أن أصرخ، أي عمل؟ ولا بدّ أنّ صمتي دفع رامي إلى الإيضاح بسرعة، 'إنّني أعمل في نادٍ للجاز بتل أبيب'.

'جاز، ما أجمل ذلك'! قلت وأنا أشعر بارتياح كبير. وفكّرت في أنّ تلك طريقة أفضل للتعاون مع الإسرائيليّين.

'لديّ شيء لك يا سعاد. أيمكنني المجيء لرؤيتك'؟

'آسفة يا رامي، إنّني في طريقي إلى الخروج'. دفعني توتّر أعصابي من وقوعي في شرك الحلقة السابعة والخمسين من مسلسل رامي (وأمّه أم زاهي) العائليّ إلى الكذب بشكل فوريّ.

أصرّ رامي قائلاً، 'سأسلّمه وأمضي على الفور'.

'حسنًا'، قلت بنبرة مستسلمة.

ردّ رامي بلهفة، 'سآتي على الفور'.

أقفلت الهاتف وأسرعت إلى غرفة نومي، وبأقلّ من دقيقة استبدلت بقميص النوم الأبيض والشبشب المطرّز أي ثوب التقطته يداي المرتجفتان.

وما هي إلا لحظات حتى خرجت وارتميت على الأريكة في الشرفة الأماميّة. كان لديّ متّسع من الوقت ليعود نبض قلبي إلى طبيعته، ولكي أدرك أيضًا أنّ مظهري سخيف. فالألوان غير المتوافقة لتنّورتي الحمراء والصفراء وقميص سليم المقلّم الأزرق والرماديّ قد تكشف خدعتي بسهولة.

جلست على الأريكة في مكان يمكّنني من رؤية رامي فور خروجه من بيته. ظهر هناك وهو يحمل شيئًا غير صغير بيديه

القويّتين. اختفى النصف الأعلى من جسم رامي والقسم الأسفل من وجهه خلف هذا الشيء الذي كان ملفوفًا بورقة هدايا وشريط فضيّ. وقد زادت انعاكاسات الشمس على ورقة الهدايا من عصبيّتي. بدأت أخمّن ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء. أهو ساكسوفون سرقه رامي من نادي الجاز في تل أبيب؟ فسرقة 'الأشياء'، وخاصّة السيّارات، من الإسرائيليّين من الطرق التي ينتقم بها الفلسطينيّون من الإسرائيليّين مقابل سرقة أرضهم وبيوتهم (علينا سرقة الكثير قبل أن نتعادل).

تظاهرت بأنّني لم أرَ رامي عندما أمال جسمه للدخول عبر بوّابة الحديقة. كان بوسعي أن أساعده بتجنيبه الضغط على جرس الباب، لكنّني لم أفعل.

'ادخل'، قلت فيما مشيت ببطء نحو الباب.

'ما هذا يا رامي؟ ألم نتّفق على التوقّف عن جلب مزيد من الهدايا'؟

'إنّها هديّة بسيطة'، أجاب وهو يضعها على الطاولة الموجودة عند الباب الأماميّ. نظر إليّ وابتسم.

خلافًا لآداب السلوك العربيّة المتعلّقة بالهدايا (حيث تتظاهر بعدم رؤية الهديّة، وبالتالي تتجاهلها تمامًا)، فتحتها على الفور. لم أستطع أن أصدّق ما رأته عيناي.

كانت لوحة كبيرة لمكّة.

وفيما كنت أبدي إعجابي باللوحة، التي تبلغ أبعادها خمسين بسبعين سنتيمترًا تقريبًا، لفت رامي انتباهي إلى مزاياها الأخرى.

'يمكنك توصيلها بالكهرباء'، قال لي وهو يدخل القابس بأقرب مقبس كهرباء. فبدت الكعبة وسط مصابيح صغيرة حمراء وخضراء تطفئ وتضيء.

كانت مبهرجة جدًّا، وقد وقعت في غرامها.

لم تشغلني الإثارة باللوحة عن نسيان كذبتي. فلديّ موعد، ويجب أن أذهب.

لم أدرِ بأي وجه سينظر إليّ سليم هذه المرّة، عندما يرى هديّة رامي الأخيرة. ولا أزال أضحك عندما أتذكّر وجوه سليم الفكاهيّة، وطريقته في إدارة عينيه إلى أعلى كلّما أحضر لي رامي هديّة، وبخاصّة ورودًا حمراء.

وفيما كنت أنا وسليم نبدي إعجابنا بلوحة مكّة الومّاضة، فجأة خطرت ببالي فكرة مرعبة.

قلت وأنا على قناعة تامّة، 'أتعرف يا سليم؟ هذه اللوحة تحتوي على جهاز تنصّت، أقسم بأنّها تحتوي على مثل هذا الجهاز'.

’ماذا‘؟ سأل سليم بطريقته غير المبالية.

كرّرت القول، ’أراهنك بأي شيء بأنّ هذه اللوحة مزوّدة بجهاز تنصّت‘.

’لا تكوني سخيفة‘، قال سليم وقد أخذ يدرك ببطء مقدار جديّة شكوكي.

لم تكن هناك من طريقة لإقناعي بخلاف ذلك. أخبرتني حاسّتي السادسة بأنّها مزوّدة بجهاز تنصّت وأنا أثق تمامًا بحاسّتي السادسة. ولم يكن لديَّ طريقة أعرف بها إذا كنت مصيبة لأنّني أنا والآخرين المحيطين بي متخلّفون تكنولوجيًّا، وبخاصّة عندما يتعلّق الأمر بتقنيّات التجسّس التي يستخدمها الموساد الإسرائيليّ.

’أعتقد أنّك تتصرّفين بطريقة غريبة تمامًا. لكن إذا كنت تشعرين بالارتياب، ما عليك إلا التخلّص منها‘.

رجوت سليم أن يجد لي حلاً، ’فكيف أرمي لوحة لمكّة في القمامة‘!

تعب سليم من ارتيابي وتدخّلات رامي المتواصلة في حياتنا، فتركني في حيرتي وانصرف.

كانت لوحة مكّة تضيء وتطفئ باللونين الأحمر والأخضر.

لم أستطع النوم في تلك الليلة. لماذا يقدّم لي رامي لوحة لمكّة، وهو يعرف أنّني يساريّة؟ ما الذي يرمي إليه رامي ومعلّموه

الكبـار؟ أم أنّه يحـاول أن يقـول شـيـئًـا لسليم؟ لـم تؤدّ السـاعـات الطويلة لليل الشتاء إلاّ إلى إطالة هلوساتي.

أخيراً وضعنا اللوحة في العلّية.

يوم المرأة ١٩٩٢

كـان يومًـا مـاطراً في نهـاية الشـتـاء. لـم يحُـلِ المطر ولا الجنود الإسرائيليّون الواقفون على مسافة بعيدة أو اليافطة المبتلّة التي تقطر حبراً أحـمـر، والتي وقـفـت الناشطة الشـيـوعـيّة أمـل خـريشـة تحـتـهـا حاملة مكبّر صوت صـافـر، دون أن تهتف هي والناشطات الأخريات بأعلى صوتهنّ:

'لا لرابين، لا للاحتلال لا.

لا لرابين، لا للاحتلال لا.

لا لرابين، لا للاحتلال لا.

لا... لا، لا... لا'.

كانت الشعارات التي تردّدها كل المتظاهرات السائرات حول أمل، تمنحها بضع ثوانٍ لإراحة عروق رقبتها البارزة. كـانـت تـتـمـايل بجسـدها البديـن، فيُبرز الدم الذي يجري في وجنتيـهـا الواسـعـتين وجهها الدائريّ كالبدر المكتمل.

أطلقت شعارات 'لا لرابين' و'لا للاحتلال' وبين الحين والآخر 'نعم للمرأة' (يُفهم من قبل الجميع بأنّه شعار مناهض للرجال) بمناسبة يوم المرأة العالميّ. لم تكن النساء الفلسطينيّات اللواتي يتظاهرن وسط ساحة المنارة في رام الله، ولا الجنود الإسرائيليّون الذكور الواقفون متأهّبين خلف بنادقهم المصوّبة في الجيبات المصفّحة، يعرفون ما تعلّمته من كتابي الإيطاليّ، «دليل الأغبياء لتعلّم الإيطاليّة» (قدّمه لي صديقي محمود، عندما فشلت كل محاولة أخرى لتعلّم هذه اللغة الجميلة):

يُحتفل في الثامن من آذار دوليًّا بمثابة يوم المرأة (il giorno delle donne) تخليداً لحريق مصنع ترainغل شيرت ويست. في ٢٥ آذار ١٩١١، أودت هذه الحادثة المأسويّة بحياة ١٤٦ عاملاً في المصنع، معظمهم من النساء الإيطاليّات واليهوديّات المهاجرات. وأدّت هذه المأساة إلى وضع العديد من قوانين العمل التي تحكم رفاه العمّال وسلامتهم.

لو كان أي منهم، لا سيّما الجنود الإسرائيليّون الذكور، يدرك أنّ احتفال اليوم هو تخليد للشابّات الإيطاليّات (من ذا الذي يهتمّ!) واليهوديّات المهاجرات، فلربما تصرّفوا بشكل مغاير.

لم يكن للشعارات والأناشيد المناهضة للاحتلال علاقة بالأحداث المأسويّة التي وقعت في نيويورك في سنة ١٩١١، وأودت بحياة ١٤٦ من عمّال مصنع تراينغل شيرت ويست، ولكن بالأحداث

المأسويّة في الأراضي المحتلّة التي سقط بنتيجتها الآلاف من الشبّان والشابّات والأطفال الفلسطينيّين، معظمهم من مخيّمات اللاجئين.

وخلافًا للأحداث المأسويّة في سنة ١٩١١، التي أفضت إلى وضع العديد من القوانين التي تحكم رفاه العمّال وسلامتهم، لم تؤدّ أيّ من الأحداث المأسويّة للفلسطينيّين إلى قوانين تحمي رفاههم وسلامتهم.

لقد اتخذت أمل وسائر المتظاهرات الفلسطينيّات قرارهنّ منذ مدّة طويلة بشأن ما يعنيه يوم المرأة في رام الله:

إنّه اليوم الذي تستطيع فيه النساء أن يثبتن لكل الرجال، فلسطينيّين وإسرائيليّين على السواء، أنّ باستطاعتهنّ بمفردهنّ تنظيم إحدى أكبر التظاهرات المناهضة للاحتلال (وأن يتباهين بذلك).

إنّه اليوم الذي تستطيع فيه النساء التعبير عن غضبهنّ من حياتهنّ. وهل هناك هدف أفضل من الجنود الإسرائيليّين الذكور!

إنّه اليوم الذي تتنافس فيه النساء بعضهنّ مع بعض أكثر من أي يوم آخر.

إنّه اليوم الذي يصعب فيه تحديد من هو العدوّ.

إنّه أيضًا اليوم الذي يشاهد فيه الرجال الفلسطينيّون جنودًا إسرائيليّين يضربون النساء الفلسطينيّات ويطلقون عليهنّ النار دون أن يفعلوا الكثير حيال ذلك.

إنّه اليوم الذي تُظهر فيه النساء مشاعرهنّ المقنّعة المناهضة للرجال، تحت شعار 'إنهاء الاحتلال'.

ربما يفسّر ذلك مشاركة أربعة أو خمسة رجال فقط (بالإضافة إلى الجنود الإسرائيليّين) في مظاهرة يوم المرأة في رام الله: أبو نبيل، رئيس شرطة رام الله، وجليل هلال، وهو اقتصاديّ لا يملك مالاً، ومحمّد نوفل، وهو كاتب وشاهد على معظم الأنشطة السياسيّة الفلسطينيّة، إذا لم يكن كلّها، وسليم تماري، وهو عالم اجتماع يعشق النساء. وكلّهم رجال في أواسط العمر ينكرون بلوغهم عمر اليأس، مثل الأحزاب اليساريّة التي كانوا ينتمون إليها ذات يوم.

لكن في ذلك اليوم، لم يفعل الرجال الفلسطينيّون الكثير عندما ضرب الجنود الإسرائيليون روجر هيكوك، وهو أستاذ فرنسيّ للتاريخ بجامعة بيرزيت، واعتقلوه.

اتّهم الأستاذ هيكوك بعد ذلك بتنظيم مظاهرة يوم المرأة الفلسطينيّة!

كان العديد من الرجال الفلسطينيّين يريدون تصديق ذلك أيضًا. وأقسم اليمين على ذلك معظم الجنود الإسرائيليّون تحت اليمين في محاكمة الأستاذ هيكوك.

لم يتجرّأ أي منّا على أن ينقل إلى أمل خريشة خبر التهمة الموجّهة إلى روجر. ولم يشأ الجنود الإسرائيليّون، ولا رجال حزبها

الاعتراف بجهودها وفضلها. ويبدو أنّ صوتها الزاعق الخارج من خشخشة مكبّر صوت قديم لم يكن دليلاً كافيًا على أنّها من المنظّمات الرئيسيّات إذا لم تكن المنظّمة الرئيسيّة.

ها هي الحياة تثبت ثانية أنّها ليست عادلة. فكم ادعى الرجال أمورًا لم يفعلوها.

عاش روجر، وزوجته لورا، وأطفاله الأربعة الأشقياء في رام الله منذ عدّة سنوات. ونظرًا لأنّهم يسكنون على مقربة من ساحة المنارة، شهد روجر وسواه من أفراد أسرة هيكوك كل المواجهات اليوميّة تقريبًا المناهضة للاحتلال مع الجنود الإسرائيليّين. وقبل بضعة أيام فقط، ساعد روجر صبيًّا فلسطينيًّا رمى حجرًا على الجنود الإسرائيليّين، في الاختباء عندما طارده الجنود.

اتّفق أنّ ٨ آذار هو اليوم الوحيد في السنة الذي يكون فيه روجر مسؤولاً مسؤوليّة تامّة عن أطفاله، إذ تنهمك لورا في تنظيم مظاهرة يوم المرأة. وكان روجر في طريقه لشراء عصير تفّاح من أجل معالجة مغص في معدة ابنه جمال، عندما قفز جنديّ إسرائيليّ من الجيب وركض نحو روجر وأمسك به وأخذ يضربه. وانضمّ إليه جنود آخرون.

كان للجنديّ الإسرائيليّ ذاكرة جيّدة وضمير سيّئ.

كان من الأسهل على الجنود الإسرائيليّين أن يُثبتوا اتهامهم (ويجدوا شهوداً على ذلك) بأنّ روجر نظّم مظاهرة يوم المرأة على أن يثبتوا أنّه خبّأ الصبيّ البالغ تسع سنوات من العمر.

ليس من المهم ما الذي فعله روجر أو لم يفعله طالما أثبِت أنّه مذنب!

ألقي روجر في زنزانة صغيرة مزدحمة تحت درج مخفر شرطة رام الله حتى يوم محاكمته. وخلال سجنه الذي امتدّ أربعة أيام، اكتسب روجر بعض الأصدقاء، بمن فيهم شيخ من قرية حزما، اتُّهم بقتل ثلاثة من أفراد أسرته. وأخذ هذا الشيخ يعد باصطحاب روجر في نزهات مع من تبقّى من أفراد أسرته، متى خرجا من السجن.

ومن أحد أصدقاء روجر الآخرين رجل أصمّ أبكم من قرية بيتونيا المجاورة. أوقف مع حماره لدخوله إلى سوبرماركت وسرقة حمولة حمار من علب السجائر. وكان أكثر ما أزعج الأصمّ الأبكم التعرّف إليه وإلى حماره، على الرغم من أنّه موّه رأسه ورأس حماره بكوفيّة سوداء وبيضاء. وقد اتُّهم الرجل وحماره بالسرقة والتهريب غير المشروع.

أبلِغ محامي روجر بإمكانيّة إطلاق موكّله بكفالة. لم يكن لدى أي منّا مبلغ الألفي دولار اللازم للإفراج المؤقّت عنه. فنظّمت

حفلة ومزاد علنيّ. وإذا لم ينجح المزاد العلنيّ في جمع المال الكافي لكفالة روجر، فإنّه سينجح دون شك برفع معنويّاتنا.

وفي حين تشدّد دار سوثبي الشهيرة للمزاد العلنيّ في لندن على القيمة الأثريّة لمقتنياتها، قرّرنا نحن أن يشدّد مزادنا على قيمة بهرجة مقتنياتنا.

بعد طول هجرانٍ، أنزلت لوحة مكّة المزودة بجهاز تنصّت من العليّة.

لا بد أن الأصوات الصاخبة والمفاجئة لحفل المزاد العلني، بعد عام كامل من صمت العلّية المطبق، سيربك الموساد.

فليُرِنا الموساد عضلاتهم في حل هذا اللغز!

التقى العديد من أصدقاء أسرة هيكوك ومعارفها في منزل روجر. وقد أكّدت لي تلك الليلة اعتقادي الراسخ بأنّ فلسطين هي مركز العالم للفنون المبهرجة.

كان موضوع المزاد العلني «فلسطين المزركشة»، وكانت الأشياء المعدّة للبيع هي: راديو ترانزستور على شكل نصف بطّيخة، مع بذور سوداء كبيرة؛ وبالونًا كبيرًا أحمر على شكل سيّارة فولكس واغن؛ ونسرًا محنّطًا؛ وعلبة شوكولاتة سويس آلْپس سيلفانا (مذاقها أشبه بمذاق الصابون النابلسيّ)؛ ولوحة مطرزّة لهنري الثامن؛ وزهريّة شديدة الزخرفة على النمط الفرنسيّ؛

وتمثالين إيطاليّين باروكيّين لملائكة؛ ومرآة ذات إطار مصنوع من أصداف البحر؛ وصندوقًا زجاجيًّا مملوءًا بماء البحر الأزرق ويطفو عليه زورقان صغيران؛ ونافورة كهربائيّة ذات كرات زهريّة تتحرّك إلى أعلى وأسفل، لكن لا شيء ... لا شيء استطاع أن يتفوق أو أن ينافس لوحتي: لوحة مكة الكهربائية.

ازداد المزاد مرحًا مع تقدّم السهرة، وبدأت أكتشف تعلّقي الشديد بلوحة مكّة. وفجأة أخذت أعيد النظر في عرضها للبيع في المزاد. وانتابني شعور رهيب لفكرة فقدانها. وعندما بدأ فاتحٌ العدّ التنازليّ، شعرت بدافع قويّ إلى استعادتها. كيف يمكنني أن أفقد لوحة مكّة التي تشكّل جزءًا لا يتجزّأ من حيّنا، من المسلسل العائليّ 'الجريء وغير الجميلة' في حيّنا؟

لكنّني تأخّرت وانتقلت ملكيّة اللوحة إلى إيما بليفير-مديرة مؤسّسة الحقّ للدفاع عن حقوق الإنسان في الأرض المحتلّة، بعد أن عرضت أعلى سعر ممكن لها، مئتي دولار أميركيّ.

اغرورقت عيناي قليلاً عندما تقدّمت نحو إيما وعانقتها، وهنّأتها على أحدث مقتنياتها، وألقيت نظرة أخيرة على اللوحة التي كانت حتى فترة قريبة لي وودّعتها بتكتّم. وبدون أن تدرك إيما الحالة التي أنا فيها، عانقتني وضحكت وهي تسأل، 'هل هذه اللوحة لك'؟ فأومأت برأسي حزينة.

كانت مقتنيات 'فلسطين المزركشة' هي التي وفّرت كفالة روجر وأمّنت الإفراج عنه. وسررت بأنّ لوحة مكّة لعبت دورًا مهمًّا في إطلاق سراحه المؤقّت.

ربما كان ذلك دورها المقصود منذ البداية. وعلى الرغم من بركات لوحة مكّة والمرح الكبير الذي شهدناه في تلك الليلة، فإنّ الشكوك التي أصابتني في السنة الماضية عادت لتسيطر عليّ مرّة ثانية.

جافاني النوم في تلك الليلة قلقًا على إيما. ماذا لو كانت اللوحة مزوّدة بجهاز للتنصّت فعلاً؟ سيتمكّن الموساد عندئذ من التجسّس على أنشطة منظّمة الحقّ.

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا عندما اتصلت بإيما.

'آسفة يا إيما، هل أيقظتك من النوم'؟ بالطبع أيقظتها.

'لا، لا بأس يا سعاد، ما الأمر'؟ قالت بلكنة الأرستقراطية الإنكليزية وتأتأتها.

قلت، 'إنّها لوحة مكّة'.

'وماذا عن لوحة مكّة'؟ سألت مثل كل المحامين الجيّدين.

شعرت بخوف وارتياب شديدين من أن أكشف لها قصّة التجسّس على الهاتف. فقد تكون الهواتف مراقبة أيضًا.

قلت بارتباك شديد، 'هل أستطيع القدوم لمقابلتك هذا الصباح؟ إنّني بحاجة ماسّة للتحدّث إليك'.

'جيّد، لمَ لا تأتين يوم الأربعاء'؟

رددت مرتعبة، 'الأربعاء بعيد جدًّا، والأمر ملحّ للغاية'.

سألتني، 'ما اليوم؟ أليس اليوم الثلاثاء'؟

'نعم، لكنّني أعتقد بأنّ الأمر شديد الإلحاح. سآتي لرؤيتك هذا الصباح'.

'حسنًا، أراك قريبًا'. أقفلت إيما الهاتف وتوجّهتْ إلى الفراش على الفور، وربما تفوّهتْ بشتيمة إنكليزيّة مهذّبة.

حاولت جاهدة أن أنتقي كلماتي فيما كنت أرتقي الدرجات الأربع المؤدّية إلى مكتب إيما. لا يبدو أنّ هناك كلمات مناسبة.

'تعرفين كيف يدفعنا الاحتلال إلى الهلوسة في بعض الأحيان'؟

'أجل، بالطبع'، أكّدت لي.

'أعتقد أنّ ثمة جهاز تنصّت زرعه الموساد في لوحة مكّة التي اشتريتها في مزاد روجر'.

'أليست اللوحة لك يا سعاد. كيف يمكن أن تكون كذلك'؟ اعترى نبرة إيما الوديّة شيء من التغيّر، وارتسم تعبير مضحك على وجهها.

يا لها من قصّة طويلة، لم أكن مستعدّة لأسئلتها.

سألتُ، 'أين اللوحة'؟

'في البيت، في غرفة نومي'.

'تخلّصي منها على الفور يا إيما، أرجوك'. قلت ذلك وانصرفت.

شعرت بمنتهى السخف عندما نزلت درج منظّمة الحقّ.

وبينما كنت أقود سيارتي عائدة، رأيت ايما مسرعة إلى منزلها.

ـ ٩ ـ

حياة كلب

١٩٨٧ـ ١٩٩٥

كانت إِحدى اللحظات النادرة التي شعرت فيها أنّني قادرة على القتل.

لكن قتل الدكتور بسام، الطبيب البيطريّ الوحيد في رام الله، وربما الوحيد في المنطقة بأسرها، سيكون بمثابة فضيحة وطنيّة. وربما تسبّب ذلك بثورة ريفيّة، قد لا تكون كبيرة مثل ثورة الفلاحين الشهيرة سنة ١٨٣٤ ضدّ إِبراهيم باشا (ابن محمد علي باشا، حاكم مصر)، لكنّها ستُحدث جلبة بلا شكّ.

بدأ كل شيء في بلدة أريحا المسالمة، حيث نمضي أنا وسليم معظم عطلات نهاية الأسبوع بعيداً عن رام الله المضطربة في انتفاضة ١٩٨٧.

كنت أقود السيّارة على طريق الخديوي (أتساءل إذا كان للاسم أي صلة بخديويّة مصر، أحفاد محمّد علي باشا؟) عندما لاحظت جروين متلاصقين في حفرة على جانب الطريق. أوقفت السيّارة على عجل، وأسرعت نحوهما. كان أحدهما داكنًا والآخر أشقر، وكان أحدهما يجلس فوق الآخر ليتدفّآ، في بلدة أريحا شديدة الدفء. حملت أحدهما بيد، والآخر باليد الأخرى، ونظرت إلى سليم والإثارة تغمرني. ارتسم على وجهه تعبير قلق، ونظر إلى عينيّ مباشرة وقال 'لا'.

أجبت، 'عاجلاً أم آجلاً ستدهس سيّارة هذين المخلوقين المسكينين'.

'لن يحدث ذلك'، ردّ سليم.

قلت فيما تدلّيا وانكشف بطنهما الناعم، 'انظر إليهما، إنّهما جذّابان جدًّا'.

'أعرف'، قال سليم وأشاح بنظره عنهما.

ألححت قائلة، 'لمَ لا'؟

'من سيعتني بهما'؟ سأل سليم.

'أنا بالطبع'، قلت مبتهجة بعد أن شعرت بأنّني بدأت أربح القضيّة.

قال، 'أنت مشغولة ومسافرة معظم الوقت؛ والكلاب أسوأ من الأطفال، إنّها بحاجة إلى رعاية متواصلة... ومحبّة'.

يا إلهي، كم يذكّرني هذا النقاش بالمناقشات الكثيرة التي دارت بيني وبين سليم بشأن إنجاب الأطفال.

لكنّني لم أكن راغبة في التنازل هذه المرّة.

اختيار أحد الجروين موجع للقلب، لكن لم يكن هناك أي طريقة تمكّنني من إقناع سليم بتبنّي الجروين معًا.

تركنا الكلب البنّيّ الداكن وراءنا، واصطحبنا (بالطبع) الكلب الأشقر عنتر إلى البيت في رام الله. ومضت فترة طويلة امتزجت فيها الفرحة والإثارة بالحصول على عنتر بكثير من الشعور بالذنب. ولعلّ ذلك هو السبب الذي جعل عنتر يتصرّف هكذا. فربما لم يسامحني على فصله عن شقيقه (أو شقيقته!).

'يمكنك معرفة كبر حجم الكلب عندما ينمو من خلال حجم كفّيه'، قال لي أحد الأصدقاء وهو يُمسك بكفّي عنتر الكبيرين. لم يكن ذلك مطمئنًا، لأنّ كفّي عنتر يشكّلان ثلث حجمه. وأخبرني أيضًا بأنّ عليّ أن أغيّر اسمه (عنتر بن شدّاد، شاعر جاهليّ مشهور في الأدب بفروسيّته وأعماله العسكريّة

البطوليّة ـ أي أنّه بعبارة أخرى رمز للرجولة) إذ تبيّن أنّ عنتر أنثى. لكن جاء ذلك متأخّرًا.

مضت سنوات في الواقع ونحن نواصل معاملة عنتر على أنّه ذكر.

'هل الرابعة بعد الظهر وقت مناسب؟ إذًا سأحضر في ذلك الوقت'، قال الدكتور بسام عندما أوضحت له بأنّ عنتر بحاجة إلى لقاح مضادّ للجرب.

كانت الساعة الرابعة تمامًا عندما رنّ الدكتور بسام الجرس. فتحت الباب بسرعة ورافقته إلى غرفة الجلوس. تلا ذلك ربع ساعة من الحديث الفلسطينيّ: الشكوى من الوضع السياسيّ الرهيب، وكم أصبح الفلسطينيّون أنانيّين، وبخاصّة الجيل الشاب، وعن قصر النظر في المنطقة بأكملها (باستثنائي أنا والدكتور بسام).

وانقضت ربع ساعة أخرى في التبجّح بقصص نجاح الدكتور بسام: إنقاذ خراف أبي العبد في قرية صردة، وتوأما البقر اللذان ولدا حديثًا في قرية عطارة (لم يكن لديّ أدنى فكرة عن عدد الأبقار التي تولد دفعة واحدة ولم أجرؤ على السؤال)، وحصان أبي نزار المريض الذي أعاد إليه الدكتور بسام الحياة، بعد أن أخبر الدكتور خلدون، من نابلس، المالك بأنّه لا يمكن إنقاذ حصانه الذي يساوي خمسة آلاف دولار.

شعرت بالاطمئنان نظرًا لنجاحاته، لكنّني لاحظت أن لا علاقة لأيّ منها بالكلاب.

فوجدتني أقاطعه وأقول: 'دكتور بسام، أريد أن ألقّح عنتر ضدّ الجرب'.

'أجل بالطبع'، أجاب بعد أن أدرك فجاة نفاد صبري.

'ما هي سلالة عنتر'؟ سأل الدكتور بسام باستعلاء وهو يرتشف قهوته.

'آه... سلالة... لست واثقة من أنّ له سلالة. هل يستطيع المرء أن يعتبر الكلب البلديّ سلالة'؟ غمغمت بلهجة اعتذاريّة.

فعنتر بالنسبة إليّ كلب جميل مشاكس.

سألت نفسي، فيما حدّق بي الدكتور بسام، لمَ لا يكون الكلب البلديّ سلالة؟ 'لا بأس يا دكتور، أيمكنني أن أدخل عنتر؟ أم نخرج إلى الحديقة'؟ كنت أحاول تجديد اهتمام الدكتور بسام بالمهمّة التي جاء من أجلها.

أجابني، 'لا يهمّ، أحضريه إلى هنا'.

وما هي إلا لحظات حتى شغل عنتر المكان بأكمله. فأوقع الصينيّة بذنبه الطويل، وتطايرت القهوة على الأرض، ثمّ انقلب على ظهره منتظرًا التربيت على بطنه. هكذا يتصرف عنتر دائمًا لا جديد.

رأيت الدكتور بسام يتفحّص الأعضاء التناسليّة لعنتر.

قال الدكتور وقد بدت عليه خيبة أمل كبيرة، 'إنّ عنتر كلبة'.

'تقصد أنّها أنثى'، حاولت تصحيح قوله.

'هذا ما قصدته'، قال الدكتور بسام.

'وماذا يعني ذلك...'؟ سألت بضيق وبصوت عالي النبرة.

'هل تريدين حقًّا تبديد لقاح بثلاثين دولارًا على كلبة بلديّة'؟

أجبت والغضب يتصاعد، 'هذا غير معقول وغير مقبول يا دكتور بسام'.

دُهشت كيف أنّ الدفاع عن عنتر الأنثى أثار انفعالاتي الوطنية والنسوية وحقوق الحيوانات والرأفة بهم.

انحنى الدكتور بسام لإعطاء عنتر اللقاح، وكنت على وشك كسر رأس لقاح آخر للجرب وغرزه في مؤخّرته الكبيرة البارزة.

•

بعد مرور بضع سنوات،

كانت الساعة العاشرة والنصف مساء تقريبًا عندما سمعت أصواتًا حادّة في الخارج. فتحت باب الحديقة، وقفزت إلى الوراء على الفور فيما ركض مخلوق أسود صغير إلى الداخل. وسرعان ما

توارى خلف أصص النباتات الكثيرة الموجودة على الشرفة الأماميّة. أشعلت الضوء، وبدأت أبحث بحذر خلف كل أصيص. لم يمض وقت طويل قبل أن ألحظ أذنين كبيرتين تشبهان الخفّاش معلّقتين بجرو أسود صغير. مددت يدي المرتجفة قليلاً لألتقط جرواً أكثر ارتجافًا. كانت بحجم راحة يدي.

ومن شدّة جاذبيّتها اغرورقت عيناي بالدموع.

وما هي إلا بضع ساعات حتى أصبحت أنا ونّمورة صديقتين متلازمتين لا تنفصل إحدانا عن الأخرى.

أصبحت ظلّي الأسود الصغير. ولا تزال نّمورة، التي نمت لتصبح أكبر من راحتيّ بقليل، ترافقني أينما كان: إلى العمل، ومواقع البناء، وإلى منزل حماتي، وبعض بيوت أصدقائي لا كلّها.

وسرعان ما أصبح لديّ مجموعة ضخمة من الكتب عن الكلاب: «كل ما يجب أن تعرف عن كلبك»، و«اعترف بأنّك تنام مع كلبك»، و«كيف تحبّين كلبك أكثر مما تحبّين زوجك»، و«هل يمكن أن يصبح الكلب وريثي»، و«كيف تخدع كلبك»، و«ما هي سلالة كلبك؟» وآخر كتاب اقتنيته «العيش مع سيّدة سحاقيّة».

كما اشتركت في مجلّة «بِتش».

خلافًا لعنتر، كانت نّمورة من سلالة خاصّة جدًّا: مانشستر توي تَرْيَر. غير أنّ القراءة وتعلّم الكثير عن سلالة نّمورة المميّزة لم

يغيّر من الواقع على الأرض شيئًا: لا تزال نمّورة بحاجة إلى لقاح مضادّ للجرب، ولم يكن هناك من يستطيع إعطاؤه لها سوى الدكتور بسام.

بما أنّه عنصريّ وذكوري، فقد قرّرت ألا أتعامل مع الدكتور بسام إلى الأبد.

بعد مضيّ عدّة أشهر لم أعرف فيها ما العمل، كان عليّ أن أتخذ قرارًا. لم أكن أعرف أيّ قرار أصعب؛ إنهاء مقاطعة الدكتور بسام المتعصّب لجنسه، أم البدء بالتعامل مع طبيبة بيطريّة إسرائيليّة (ربما عنصريّة تجاه العرب لا الكلاب) في عطروت، وهي منطقة صناعيّة إسرائيليّة، مستوطنة يهوديّة غير شرعيّة، مبنيّة على أراضٍ فلسطينيّة على الطريق بين رام الله والقدس. وكانت جمعيّة الرفق بالحيوان تقع على بعد كيلومتر واحد أو اثنين فقط بعيدًا عن حاجز القدس الذي أنشئ في آذار ١٩٩٢، بينما كانت المحادثات الفلسطينيّة الإسرائيليّة تجري في واشنطن دي سي.

'إنّها من سلالة مانشستر توي ترير'، تبجّحتُ أمام الدكتورة تمار، وهي بيطريّة إسرائيليّة ذات لكنة إنكليزيّة،

'إنّها رائعة حقًّا، ما اسمها'؟ سألت الدكتورة تمار فيما تحتضنها.

'نمّورة'، أجبت بفخر.

’واسمك‘؟

’سعاد‘.

’أليست ظريفة‘؟ قلت محاولة التصرّف بأكبر قدر من الهدوء على الرغم من شعوري بالتوتّر من احتمال أن يكون أحد قد رآني وأنا أتسلّل إلى «جمعية عطروت لمنع الإساءة إلى الحيوانات». وعندما تمعّنت في اللافتة، أحسست بارتياح لأنّ العرب لا يُعتبرون حيوانات.

’علينا فحص عينيها، وأذنيها، وأسنانها الصغيرة، ثمّ إعطاؤها لقاح الجرب والإنفلونزا ولقاح كوكتيل‘، قالت الدكتورة تمار وهي تضع نمّورة على طاولة عمليّات خاصّة في وسط عيادتها.

’أرجو ألا يكون الكوكتيل كحوليًّا‘ قلت مازحة بتوتّر.

وأضفت، ’وماذا عن ضغط الدم والسكّري‘؟

أهملت الدكتورة تمار ملاحظاتي تمامًا وخرجت من مكتبها. ربما كنت حمقاء للإدلاء بمثل هذه الملاحظات، لكنّني كنت أريد تنفيس بعض التوتّر الذي أشعر به.

لم تتأخّر الدكتورة تمار في العودة بيدين فارغتين.

وقالت بلكنتها الإنكليزيّة الجادّة، ’يبدو أنّ لدينا مشكلة صغيرة هنا يا سعاد‘.

’ما الأمر يا دكتورة‘؟ كنت أريد أن أعرف ما هي المشكلة فلم أصحّح اسمي.

سألتْ، ’هل قلت إنّ نمّورة تعيش في رام الله‘؟

’نعم، معي بالطبع‘، أجبت بعصبيّة.

’لكنّ لقاحات بلديّة القدس مخصّصة لكلاب القدس فقط‘.

قاطعتُ الدكتورة تمار قائلة، ’لكن تعرفين أنّه لا يحقّ لنا أن نعيش في القدس، يا دكتورة، إذ إنّنا نحمل هويّات رام الله‘.

’لا حاجة بك إلى تغيير مكان إقامتك. هل أنت مستعدّة للدفع مقابل اللقاح‘؟

قلت بحماسة، ’أجل بالطبع‘، وأخرجت كل ما لديَّ من مال من حقيبتي.

قالت، ’مئة وعشرين شيكل‘. فناولتها المال. أخذَته وخرجت من مكتبها ثانية.

عانقتُ نمّورة المرتجفة، وارتميت على كرسيّ مجاور للنافذة. تفاجأت بالعدد الكبير من النساء والرجال الفلسطينيّين الذين قدموا مع كلابهم وقططهم طلبًا لمساعدة الدكتورة تمار. وتساءلت إذا كانوا هم أيضًا هاربين من الدكتور بسام. وبدوا جميعًا أكثر استرخاء واطمئنانًا منّي.

’ما زال لدينا مشكلة صغيرة هنا‘، سمعت صوت الدكتورة تمار قبل أن أراها.

سألت وأنا أقف، ’ما الأمر الآن‘؟

’هذه الشهادة صادرة عن بلديّة القدس الغربيّة، وأنا لست واثقة إذا كانت السلطة الفلسطينيّة الوطنيّة الناشئة حديثًا في رام الله تعترف بها‘.

لا شك أنّها تمزح، لكنّ الدكتورة تمار بدت جادّة للأسف (في ذلك الوقت كان الناس لا يزالون يأخذون أوسلو على محمل الجدّ).

لم أعرف كيف أتعامل مع جديّة الدكتورة تمار الإنكليزيّة، فما كان منّي إلا أن قهقهت ضاحكة.

’لا تقلقي يا دكتورة تمار. سنكون بألف خير لو تعترف السلطة الفلسطينية بالشهادات الصادرة من طرفها، فما بالك بالكلاب العربيّة التي تحمل شهادات من بلديّة القدس الغربيّة‘.

راقبت الدكتورة تمار بغيرة وهي تملأ جواز سفر نمّورة المقدسيّ الأصفر والأسود.

الاسم الأول، واسم الأب، واسم الأمّ، والسنّ، والسلالة، وسلالة الأب والأم، ولائحة طويلة بأنواع اللقاحات، وتاريخ الحقنة، وتاريخ الحقنة التالية، وملاحظات خاصّة، واسم الدكتور، وأخيرًا اسم المالك.

’هل لديك صورة فوتوغرافيّة‘؟

’صورتي؟... أم صورة نمّورة‘؟ كنت آمل أن أنجح.

لم تدرك نمّورة ولا الدكتورة تمار مدى جديّتي بشأن استبدال صورتي بصورة نمّورة. ولا أعتقد أنّ أيًّا منهما يعرف صعوبة حصول الفلسطينيّين على هويّة مقدسيّة أو استحالتها، فكيف بجواز سفر مقدسيّ. فكّرت في صديقي المقدسيّ نظمي الجعبة الذي أمضت زوجته هيفاء ستّ عشرة سنة لكي تحصل على هويّتها المقدسيّة.

سأخفي بالتأكيد جواز سفر نمّورة عن سمير حليلة، فهو لم ينجح بعد أربع وعشرين سنة على زواجه من سوسن، وهي مقدسيّة، من الحصول على هويّة القدس.

ولا أريد التفكير بشأن الطفلة الجميلة ياسمين، الابنة الوحيدة لسوسن وسمير. لم يمنحها الإسرائيليّون هويّة مقدسيّة لأنّ والدها يحمل هويّة رام الله الفلسطينيّة، ولم تمنحها السلطة الفلسطينيّة هويّة فلسطينيّة لأنّ أمّها تحمل هويّة مقدسيّة إسرائيليّة.

لو احتُرمت التقاليد اليهوديّة والعربيّة، لوجب أن يكون لياسمين هويّتين، واحدة عن طريق أمّها، وأخرى عن طريق أبيها. لكنّها لا تحمل أيًّا منهما.

وفكّرت أيضًا في صديقي العزيز عطا الله كُتّاب الذي فقد مؤخّرًا هويّته المقدسيّة لأنّه تزوّج إيبا، وهي مواطنة ألمانيّة. وفكّرت

في عشرات الآلاف من الفلسطينيّين الذين فقدوا هويّاتهم المقدسيّة، وكثير غيرهم ممن ينتظرون منذ سنوات للحصول على هويّة مقدسيّة دون جدوى.

وها هي نمّورة الصغيرة تحمل جواز سفر مقدسيًّا.

'كم أنت محظوظة يا صغيرتي'، حملتها ومنحتها قبلة كبيرة.

'لا تفقديه. احمليه معك عندما تسافرين إلى الخارج'.

'أتعنين جواز السفر'؟

'نعم'، أجابت الدكتورة تمار.

نظرت باستغراب شديد إلى كل من نمّورة والدكتورة تمار، إذ لم يكن أيّ منهما مسيّسًا. وثارت ثائرتي لأنّ كليهما يأخذان الهويّة المقدسيّة كأمر مسلّم به. غادرت حاملة نمّورة بيدي اليسرى وجواز سفرها بعناية باليمنى.

'أتعلمين يا حبيبتي أنّ هذه الوثيقة تمكّنك من عبور الحواجز والوصول إلى القدس، في حين أحتاج أنا والسيّارة إلى تصريحين مختلفين للعبور'.

نظرت نمّورة إليّ، وأمالت رأسها الصغير قليلاً، وحرّكت ذيلها، وأخرجت رأسها من نافذة السيّارة وتنشّقت بصوت مسموع.

لم يمضِ وقت طويل حتى قرّرت الاستفادة من جواز سفر نمّورة.

'أين تصريحك وتصريح السيّارة'؟ سأل الجنديّ الواقف عند حاجز القدس.

'ليس لديّ تصريح، لكنّني سائقة هذه الكلبة المقدسيّة'، رددتُ مناولة الجنديّ جواز سفر نمّورة.

'مازيه (ماذا)'؟ سأل الجنديّ وبدت على وجهه تعابير ضاحكة ومستغربة.

بدا أنّ الفكرة تروق له كثيراً. تناول جواز سفر نمّورة وبدأ يقلّب صفحاته.

'أنا سائقة الكلبة. وهي كما ترى بأم عينك من القدس، ولا تستطيع قيادة السيّارة أو الذهاب إلى القدس بمفردها'.

وقال ضاحكًا، 'وأنت سائقتها'؟

'نعم، لا بدّ أن يكون أحد سائقها'، أجبت ضاحكة أيضًا.

ألقى عليّ الجنديّ نظرة عن قرب، وربّت على رأس نمّورة الذي كان لا يزال ممدودًا خارج النافذة، ثم ناولني جواز سفرها وقال بصوت عالٍ، 'ساع (انطلقي)'.

ضغطتُ على دوّاسة البنزين، ومدّت نمّورة نصف جسمها الصغير خارج النافذة، ومضينا كلانا في الطريق إلى القدس.

ـ ١٠ ـ

ديالا واللقاء غير المنتظر

آب ١٩٩٢

كان يومًا من أيّام الصيف الملتهبة. وكانت موجة الحرّ الشديد تسفعني وأنا أقود السيّارة للقاء ابنة أختي ديالا، التي وصلت للتوّ إلى القدس.

لعل بيجامتها الزهريّة الصغيرة جدًّا هي التي أنشأت العلاقة الحميمة الأبدية بيني وبين ديالا. وما زلت أذكر تمامًا السير في شارع الحمراء، أكثر الشوارع أناقة في بيروت في أواسط السبعينيّات. أبلغت البائع في محلّ زهّار للأطفال أنّني أريد بيجاما مميّزة جدًّا لابنة أختي الحديثة الولادة (على أمل أن تكبر

وتعشق النوم كخالتها). كانت ديالا الحفيدة الأولى في العائلة وربما الأخيرة. أردت أن أبلغه أنّه على الرغم من أنّنا ثلاث أخوات وأخ واحد، لم ينجب أحد منّا طفلاً سوى أروى، والدة ديالا. فقد تزوجت أختي عنان مرّتين ولم تنجب. وتزوّجت أنا مرّة، حتى الآن، دون أن أنجب. ولم يتزوّج شقيقي أيمن بعد، ومن ثم ليس لديه أطفال. أردت أن أشركه بكلّ ذلك، لكي يدرك مكانة ديالا المميّزة، لكنّني خشيت أن أكشف له تخوفنا جميعًا من إنجاب أطفال قد يشبهوننا.

حسنًا، ربما لم تكن البيجاما مميّزة، لكنّ ديالا مميّزة بالتأكيد.

لم تكن الدنيا تسعني من الفرح. فقد تمكّنت أخيراً من الحصول على تصريح يسمح لأحد أفراد عائلتي التي تعيش في عمّان ودمشق وبيروت بزيارتي في رام الله. لكنّ الحصول على تصريح الزيارة من الإدارة المدنيّة الإسرائيليّة شيء، وإقناع الأقارب بالتغلّب على مخاوفهم للقيام بالرحلة شيء آخر.

فأمي السوريّة، تبنّت الموقف السياسيّ للرئيس الأسد: 'لا للتطبيع مع إسرائيل'.

'بالله عليك يا أمّي، أنا ابنتك، فهل زيارتي في رام الله تطبيع مع إسرائيل'؟

’حبيبتي سوسو، لا حاجة بي إلى القول كم أحبّ أن أزورك أنت وسليم في رام الله. أتعلمين ماذا يعني ألاّ ترى الأمّ بيت ابنتها بعد مرور ثماني سنوات على زواجها‘؟ قالت أمي واغرورقت عيناها الخضراوان الفاتحتان. وأجبرني التعبير الذي ارتسم على وجهها أن أنهي الحديث على الفور.

لم أكن واثقة أي الأمرين أصعب: أن تتخلّى أمّي عن موقفها الإيديولوجيّ، أم أن يوافق الحاكم العسكريّ الإسرائيليّ على منحها تصريح زيارة. وربما كان رفضها استباقًا لعدم منحها التصريح.

فهي امرأة ذات كبرياء عظيم.

أما وقد جاءت ديالا الآن، فقد أصبحت أكثر تفاؤلاً بإمكانيّة الحصول على تصريح بالزيارة لأمّي في الصيف المقبل. وسيكون عليّ أن أخصّص بضعة أسابيع من وقتي، في الصحو أو المطر، للوقوف وسط هذه الحشود أمام المقرّ العسكريّ.

وفيما كنت أضع يدي اليمنى على صدري وأقود السيّارة بيدي اليسرى، وجدتني أعاهد نفسي بأعلى صوتي: ’أعدك يا أمّي، العام القادم في القدس‘.

في مقابل باب العامود، وقفت ديالا المربربة، زاهية الألوان كالعادة، يعلو تنّورتها الحمراء الصارخة تي شيرت برتقاليّ اللون

بدون أكمام. وأضفت المجوهرات الخرزيّة الخضراء والصفراء، التي صمّمتها وصنعتها بنفسها، المزيد على مظهرها البهيج كما أظهرت مواهبها الفنيّة. كانت تحرّك رأسها المستدير بعصبيّة في كل الاتجاهات، محاولة استيعاب عقود من وصف أمّها التي تحنّ إلى الوطن، وآلام جدّها المتوفّى، وأحلام جدّتها غير المتحقّقة.

'مرحبًا يا حلوة، يلزمك وقت طويل لاستيعاب الوضع'، قلت مازحة، فيما اختلطت ضحكاتنا بالدموع.

صاحت بصوتها المراهق المليء بالإثارة، 'آه... آه ... آه... أنا في القدس.. مش ممكن أصدق'!

عندما فتحت صندوق السيّارة لأضع فيه حقيبة ديالا، لاحظت العيون السوداء للشبّان وهم يحدّقون فينا (لم تساعد ثيابها غير المتواضعة كثيراً).

أوقفتُ السيّارة في المصرارة، قرب سوق العمّال العرب. هنا يحضر الشبّان في الخامسة صباحًا من كل يوم، على أمل أن يختارهم ربّ عمل إسرائيليّ. وعندما تتمهّل سيّارة أحد الإسرائيليّين، يسرع حشد من العمّال نحوها. وسرعان ما يحيطون بها، ويفتحون أبواب الركّاب الثلاثة وهي لا تزال تتحرّك، ويتدافعون بالمناكب ليتمكّن أربعة منهم فقط من ركوبها. ونظراً لأنّ الصراع يُظهر مبدأ البقاء للأصلح، ينطلق الإسرائيليّ مدركًا أنّه حصل على أقوى الرجال.

على الرغم من حلول الظهيرة، فإنّ العديد منهم كانوا لا يزالون ينتظرون أن يُنتقوا. وفيما كان بعضهم يحدّقون في ابنة أختي الحبيبة مذهولين، ظهرت سيّارة إسرائيليّة خلف ظهورهم، وانتقى سائقها أربعة رجال وغادرت. ولمّا أدركوا أنّهم فوّتوا آخر فرصة عمل لهم في ذلك اليوم، تصاعد الشجار والجلبة بينهم فيما ابتعدنا.

'وأخيراً أنت هنا'. ملت لأقبّلها، فانحرفت السيّارة مع القبلة.

'أرجوك خالتو، أنا أحبّ القدس لكنّني لا أريد أن أموت فيها'.

'ولا حتى من أجلها'. أجبتها وتساءلت:

'حسنًا، ترى ما هي الأماكن التي تجدر بك رؤيتها'، قلت لديالا وهي تتحرّك بانفعال في مقعد السيّارة.

وأضفتُ جازمة، 'قبّة الصخرة من جبل الزيتون'.

ظننت أنّ ذلك سيكون مثيرًا جدًّا للإعجاب.

قدت السيّارة عبر المُصرارة، وسعد وسعيد، والشيخ جرّاح، ووادي الجوز، والصوّانة، وليس عبر الجامعة العبريّة، والتلة الفرنسيّة، وصدّيق شيمون في حيّ الشيخ جرّاح.

ظننت أنّ من المبكّر جدًّا أن أكدّر صفوها.

'هذا منزل عائلة غوشه حيث عاش جدّاك قبل سنة ١٩٤٨'، قلت لديالا عندما تجاوزنا المنزل الحجريّ الجميل قرب فندق ماونت سكوبس.

'وهنا عاشا بعد سنة ١٩٤٨'، أضفت وأنا أشير إلى القنصليّة التركيّة في حيّ الشيخ جرّاح.

تابعنا قيادة السيّارة.

وسرعان ما كنّا نقف فوق ساحة جبل الزيتون البانوراميّة، التي تشرف على أحد أكثر مشاهد القدس جمالاً وأكثرها انطباعًا في الذاكرة.

'يا له من منظرٍ رائع - «بِيخْوِت»'، صاحت ديالا وهي تعانقني.

عليّ أن أعترف بأنّ وصف قبّة الصخرة بكلمة «بيخْوِتْ» مثير للانزعاج. لكنّني قرّرت أنّ من المبكّر جدًّا أن أكون الخالة الحسّاسة سياسيًّا.

تعمّدت تجنّب الإشارة إلى المعالم اليهوديّة أو المستوطنات الإسرائيليّة. وأردتها أن ترى أنّ القدس الشرقيّة العربيّة لا تزال موجودة، على أمل أن أقنع المزيد من أفراد عائلتي بزيارتي. لكن لم يكن ذلك سهلاً.

'يا له من فندق جميل'! قالت ديالا عندما مررنا بفندق حياة ريجنسي.

'لو عرفت أنّ الإسرائيليّين صادروا أرض والد رجا شحادة لبناء هذا الفندق سيّئ الذكر، لما قلت إنّه جميل'. تدفّقت الكلمات من فمي.

يجب عليّ ألا أقسو عليها؛ فالإسرائيليّون بارعون جدًّا في عدم ترك أي أثر يشير إلى أنّ هناك أناسًا آخرين كانوا يعيشون على هذه الأرض قبل فترة ليست بعيدة.

تجمّد حديثنا تمامًا عندما رأينا كلانا رجلاً في منتصف العمر واقفًا وسط الطريق، إلى جانب باب سيّارته المفتوح. كان نصف منحنٍ، إحدى يديه مضمومة إلى صدره، والأخرى تلوّح، وهو يصرخ طلبًا للعون.

أوقفت السيّارة على الفور، وقفزت من مقعدي، وركضت نحوه.

'ما الأمر'؟ سألت بالإنكليزيّة؟

'أعتقد أنّني أصبت بنوبة قلبيّة'.

'ادخل السيّارة، ادخل السيّارة'، صحت بالرجل وأنا أساعده في الدخول إلى المقعد الخلفيّ.

'أسرعي وأغلقي باب سيّارته'، أمرت ديالا. أغلقته بقوّة وعادت إلى مقعد السيّارة الأمامي مسرعة.

ضغطت على دوّاسة البنزين بشدّة وقدت السيّارة إلى مستشفى هداسا ماونت سكوبس.

'هل أنت بخير'، سألت وأنا أنظر إليه بمرآة السيّارة الأماميّة.

أجاب، 'لا بدّ أنّ الحرارة الرهيبة هي التي سبّبت ذلك'.

طمأنته قائلة، 'لا تقلق، استرخِ وسنصل إلى هناك بعد قليل'.

'إلى أين'؟ سأل وتسلّلت نبرة خوف إلى صوته.

'إلى مستشفى هداسا'.

تساءلت، أي نوع من الأسئلة هذا الذي يطرحه؟ المسكين، لا بدّ أنّه أدرك الآن أنّنا عربيّتان. يا إلهي... ذلك سبب كافٍ لأن يُصاب بنوبة قلبيّة أخرى. قد تكون قاتلة هذه المرّة.

كانت ديالا مصدومة تمامًا. لا بدّ أنّها أدركت أنّ الرجل إسرائيليّ. ولعلها عرفت لماذا أتحدّث بالإنكليزيّة. ولذلك انعقد لسانها عن الكلام.

أدركت مقدار خوف ديالا من مقابلة الإسرائيليّين، مثل معظم فلسطينيّي الشتات والعرب. ولأنّني أعرف ذلك، فقد أعددت خطّة لكي تلتقي ببعض الإسرائيليّين المناصرين لنا أمثال

جـودي بلانك وروث كـوهين إلى العـشـاء، لكن ليس في بـداية رحلتهـا. كنت أعي مخاوفها وكيف تتغلّب عليها ببطء. وأخشى من العواقب إذا فشلت.

فـجأة اتضـحت لي سـورياليّة الموقف. ماذا لو أصـابتـه نوبة قلبيّة مميتة في المقعد الخلفيّ؟

هل ستـصدّق الشرطة الإسرائيليّـة أنّني كنت فـقط أحـاول المساعدة؟ لقـد حـدث الأمر دون أن أفكّر فيه البتّة. كنت أريد أن آخذه إلى المستشفى.

ما هذه الورطة! ماذا سيفعل الجيش الإسرائيليّ عندما يعثر على سيّارته المهجورة؟ لا بدّ أنّهم سيعلنون حالة الطوارئ في البلاد بأكـملهـا في أي لحظة الآن. يا إلهي، كم سـيكون عـدد الشـبّان الفلسطينيّين الذين سيُحتجزون كمشبوهين بسبب تصرفّي الأرعن وعديم المسؤوليّة.

لم أشـأ أن تعرف ديالا بالحالة التي أنا فيـهـا، أو بالأفكار المجنونة التي تخطر ببالي. وحاولت جاهدة أن أجعل الأمر يبدو كما هو عليه حقًّا: نقل مريض إلى المستشفى في حالة طارئة. فذلك بحدّ ذاته فيه ما يكفي من الدراما.

سيطرتُ على هلوساتي وحاولت أن أبدأ التصرّف بشكل عاديّ.

'كنت تنتظرين طوال حياتك أن تقابلي واحداً منهم، أرأيت سهولة ذلك'؟ مازحت ديالا بالعربيّة في محاولة لتخفيف بعض التوتّر في المقعد الأماميّ.

لا أعتقد أنّني نجحت.

ازداد الخوف في المقعدين الأمامي والخلفيّ. فقد فتحت ديالا عينيها المذعورتين والواسعتين أصلاً، ورفعت حاجبيها.

تفحّصت الرجل المريض عبر المرآة. كان وجهه ينضح عرقًا، وكان بوسعي أن أرى الصدمة على وجهه عندما سمعني أتحدّث بالعربيّة.

'هل أنت بخير؟ اصمد، نكاد نصل'. قلت وأنا أقود بسرعة إلى أعلى التلّة باتجاه المستشفى.

'هل أنتِ من بيت ليخم (بيت لحم)'؟ سأل بقلق بلغة إنكليزيّة ولكنة إسرائيليّة ثقيلة.

أردت أن أكذب وأن أقول له نعم نحن من مدينة السلام، لكنّني لم أفعل.

وأردت أن أساعد الرجل المسكين المشرف على الموت في التمسّك بإحدى الخرافات الإسرائيليّة المريحة، لكنّني لم أستطع.

'من رام الله'، أجبت وأنا أتحدّث إليه عبر المرآة.

'رام الله'!! سيطر عليه ذعر شديد.

أجبته قائلة، 'لمَ لا تسترخي قليلاً'؟ أردته أن يتوقّف عن طرح الأسئلة، لأنّ الصدمة قد تكون شديدة على قلب هذا المسكين. لكنّه تابع:

'رام الله بلدة مسيحيّة'.

قلت بنبرة الأمر الواقع، 'كانت كذلك'.

'أنت مسيحيّة'؟

'لا، مسلمة'.

ساد صمت مميت في الخلف. رجوت أن يكون ذلك مجازيًّا.

لم أجرؤ على النظر خلفي.

أوقفتُ السيّارة عند أقرب نقطة ممكنة من باب الطوارئ وأسرعت إلى داخل المستشفى طلبًا للمساعدة. وسرعان ما عدت ومعي ثلاثة ممرّضين أسرائيليّين وعربة نقّالة.

لزمت ديالا السكون.

أسرع الممرّضون إلى السيّارة، وأخرجوا الرجل من المقعد الخلفيّ إلى النقّالة.

كنت في حالة من الخوف الشديد. خفت أن أنظر إليه. وعندما استجمعت شجاعتي، استرقت نظرة سريعة؛ كانت عيناه مفتوحتين.

سمعته يغمغم وهم ينقلونه بعيداً، 'في نهاية الأمر...هناك فلسطينيّون طيّبون'.

تبادلت النظرات أنا وديالا، ووقفت هناك أدعو ألا تكون تلك آخر كلمات يتفوّه بها قبل أن يواجه ربّه.

وعندما قفلنا عائدين، فكّرت في والدي الذي توفّي في سنة ١٩٧٨ بسبب نوبة قلبيّة شديدة. كان بمفرده في غرفته بالفندق. وطالما انتابني إحساس فظيع بأنّه طلب المساعدة لكنّه لم ينلها.

القسم الثاني

- ١١ -

كابوتشينو في رام الله

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤ كانون الأول ٢٠٠١

كنت أنا وسليم في منزل ممدوح وعهود تلبية لدعوة الإفطار في رمضان. وكّنا نحو أربعة عشر شخصًا جالسين حول مائدة مستطيلة، ملأتها عهود على عادتها بشتّى أصناف الطعام الشهيّ، بالإضافة إلى مشروبات رمضان وحلوياته الخاصّة. فجأة انقطع الحديث وساد الصمت بعد أن سمعنا عن قصف الإسرائيليّين مروحيّات عرفات الخاصّة ومكاتبه في غزّة. وبدأ ماهر وممدوح يتصوّران السيناريوهات المختلفة لما يمكن أن يفعله شارون وحكومته هذه الليلة. تباينت السيناريوهات بين قصف مقرّ قيادة

عرفات في رام الله وإعادة احتلال أجزاء من رام الله والبيرة. تبادلت النظرات مع سليم عبر الطاولة، مع ما تحمله من أفكار مضطربة وابتسامات قلقة. إذا صحّ السيناريو الأوّل، فستكون حماتي في خطر حقيقيّ، لأنّ منزلها يطلّ مباشرة على مقرّ قيادة عرفات. وإذا صحّ السيناريو الثاني، فسيتمّ احتلال حيّنا وسيعود الإسرائيليّون ثانية إلى أبواب بيوتنا. إذا كان لدينا خيار، فأيّهما نختار؟ تبيّن في الصباح التالي بالطبع أنّ كليهما صحيح. فقد استيقظنا في الثانية والنصف صباحًا على أصوات الدبّابات الثقيلة. قفزنا من الفراش، وأسرعنا نحو نافذة غرفة النوم التي تطلّ على الشارع الرئيسيّ، استرقنا نظرة من خلال الستائر بحذر، لكن سرعان ما عدنا إلى الفراش ونمنا لأنّنا شهدنا كل ذلك قبل بضعة أسابيع فقط.

في الساعة الرابعة والنصف صباحًا تقريبًا سألني سليم إذا كنت أريد كابوتشينو، كنت شبه نائمة فأجبت، 'ولمَ لا'؟

فجأة تذكّرت أنّ الجنود الإسرائيليّين كانوا في المرّة الأخيرة خارج نوافذ مطبخنا مباشرة. لذا أسرعت إلى المطبخ وطلبت من سليم توخّي الحذر لأنّ مكنة الكابوتشينو تُحدث الكثير من الضجّة، ومن ثم قد تكون خطرة جدًّا. وفي وقت لاحق من الصباح اشتكى سليم من أنّه عرّض حياته للخطر من أجل الكابوتشينو ليجدني نائمة.

قال متذمّرًا، 'لا شيء يتغيّر، ولا حتى تحت الاحتلال'.

في السابعة وأربعين دقيقة، صحوت على صوت المكالمة الهاتفيّة الأولى من ڤانوش.

'لا... لا، أنا مستيقظة'، أجبت بصوت نائم اعتذاريّ أجشّ، خجِلة من أنّني لا أزال نائمة حتى تحت الاحتلال. 'نعم، جاؤوا في الثانية والنصف صباحًا، استيقظنا على الأصوات المرتفعة للدبّابات العسكريّة، ثم نمنا، وفي الرابعة والنصف صباحًا ذهب سليم ليعدّ لنا الكابوتشينو وعندما عاد وجدني نائمة؛ وقد اشتكى لاحقًا من أنّه خاطر بحياته ليجدني نائمة.

'شكرًا يا ڤانوش. سنتوخّى الحذر'.

'إلى اللقاء'.

في الثامنة والنصف، رنّ الهاتف.

'مرحبًا يا فيرا'.

'لا أيقظتني ڤانوش'.

'جاؤوا في الثانية والنصف صباحًا. ضوضاء عالية، استيقظنا، نمنا، كابوتشينو، خاطر بحياته'.

'لا، بخير'.

'شكرًا'.

'إلى اللقاء'.

في التاسعة.

'مرحبًا يا غابي'.

'لا، لا، لا، اتصلت ڤانوش ثم فيرا، لا بأس'

'نعم، شكرًا، في الثانية والنصف، كابوتشينو'.

في التاسعة والربع

'غود مورننغ (good morning) بيبي جونسون'.

'لا، لا، إنّني مستقيظة تمامًا'!

'ليس في الواحدة، في الثانية والنصف'.

'لا، ليس أربع دبّابات، ستّ دبّابات'.

'نعم، كابوتشينو'.

'لا تقلقي، شكرًا'.

في التاسعة وأربعين دقيقة.

'مرحبًا حماتي، كيف حالك'؟

'لا، لا، بخير'.

'لا، كل شيء على ما يرام'.

'كان الخطّ مشغولاً'.

'نعم، الأصدقاء يتّصلون بنا'.

'لا، لا يوجد دبّابات، ليس هنا'.

'ربما شارع مصايف آخر'.

'حسنًا'.

'أجل، كثير من الرعد من الليلة الماضية'.

'أجل، ظننّا أنّها دبّابات'.

'نعم، شارون مجنون حقًّا'.

'سنمرّ عليك لاحقًا اليوم'.

في العاشرة.

'مرحبًا سهى'.

'سمعتِ الأخبار في عمّان؟ يؤسفني أنّكم قلقون جدًّا.

نعم'.

'المطبخ'.

'الثانية والنصف'.

'كابوتشينو'.

'سليم'.

في العاشرة وخمسين دقيقة.

'مرحبًا'.

'مرحبًا دفنا غولان'.

'بخير'.

'شكرًا'.

'أتودّين أن تسمعي هدير دبّاباتهم'؟

'استمعي'.

'شكرًا يا دفنا على مكالمتك اللطيفة'.

في الحادية عشرة وعشرين دقيقة.

'نعم، مرحبًا يا أمّي'

'احتلّوا حيّنا'؟

'لا، لا، بعيداً... بعيداً جدًّا عنّا'.

'نعم شارع المصايف، لكن ليس شارعنا'!

'لا تقلقي يا أمّي، نحن بخير'.

'لا أمّ سليم في بيتها (الحمد لله!). إنّها بخير أيضًا'.

'لا تبكي يا أمّي، نحن بخير حقًّا'.

'قبلاتي لك يا أمّي'.

'نعم، سآتي حتمًا إلى عمّان لرؤيتك في العيد'.

في الثانية عشرة.

'ربما، إنّني بحالة أفضل بكثير هذه المرّة'.

'لا، لن نغادر هذه المرّة'.

'في الثانية والنصف، كابوتشينو، نمت في الرابعة والنصف'.

'شكرًا'.

'إلى اللقاء'.

في الثانية عشرة وثلاث وعشرين دقيقة.

'مرحبًا يا تيسير'.

'مرحبًا، إصلاح، إنّه عيد ميلادك الخمسين! حلو'.

'مرحبًا، جنين'.

'مرحبًا، هشام'.

'بونجور بريجيت'.

'صباح الخير رانيا'.

'مرحبًا يا فداء'.

'أهلاً فرحات'.

'مرحبًا يا نجوى'

'نعم يا إيمان، جميل أن أسمع صوتك من كندا'.

رنّ الهاتف ثانية في الساعة الحادية عشرة والنصف مساء فيما كنت أوشك أن أنام.

استقبلت ثلاثًا وخمسين مكالمة في ذلك اليوم!

- ١٢ -

جيراننا الجدد

٥ كانون الأول ٢٠٠١

قبل بضعة أيام من مجيء جيراننا الجدد، كنت أتذمّر أمام صديقتيّ فيرا، التي تعيش في البيرة، وريما، المقيمة في بيت قديم جميل في منطقة الشيخ جرّاح بالقدس، من أنّ الحياة في حيّنا لم تعد تُطاق. فقد أصبحت أكوام حُطام المباني السمة الرئيسيّة للمنطقة، ولا تظهر الأرصفة إلا بين الحين والآخر، ما يجعل المشي في خطّ مستقيم صعبًا جدًّا. وأصبح اللون الوطنيّ رماديًّا أغبر، في حين أصبح الأخضر نادراً والهواء النقيّ متعذّرًا، كانت لائحة التذمّر تطول يومًا بعد يوم ومعها يزداد «النقّ» (كما يدّعي سليم).

ما زال يمكن وصف حيّنا، المصايف، بأنّه من أجمل المناطق السكنيّة في رام الله. فهو لطيف نسبيًا ومواتٍ للأطفال. إذ يستطيعون أن يلعبوا في شوارعه بأمان، وأن يركض العشرات منهم في أنحائه وهم يصرخون ويتقاتلون، بعضهم يلعب كرة القدم، والصغار يلعبون «تمّايتخباي» (غمّيضة أو استغمّاية)، وقليل منهم يركبون الدرّاجات.

يشبه حيّنا الكثير من الأحياء الأخرى؛ يبدو طبيعيًّا وعاديًّا، لكنّه يقدّم الكثير من القيل والقال والفضائح العائليّة، إذا كان المرء مهتمًّا، أو وذلك الأهمّ، إذا كان لديه وقت يقضيه مع الجيران. في هذه الأيام، لا أكاد أزور أحداً من جيراني، لكنّني مثل معظمهم، على اطلاع دائم على القيل والقال في الحيّ: علاقات الحبّ، والعملاء، والمخدّرات، والخلافات الزوجيّة. سامي ووفاء زوجان حديثا الزواج يتشاجران دائمًا، بل يتضاربان. وأذكر قبل بضع سنوات حدوث قرع شديد على بابنا، وعندما فتحه سليم، وجد فهمي ابن الجيران لاهثًا ودعا عمّو سليم إلى المشاركة في القتال، لأنّ العائلات الخليليّة من أقرباء العروس هجمت لإنقاذ ابنتهم. ووقع قتال كبير في الحيّ سقط فيه عدد من الجرحى. وبعد أسبوع أو اثنين، عاد سامي ووفاء زوجين سعيدين ينجبان مزيداً من الصغار، لكنّنا بقينا بالطبع الجارين اللذين خذلاهما بعدم المشاركة في القتال. فقد تعلّمت أنا وسليم الدرس من كيسنا. لذا أحاول متابعة

القيل والقال والفضائح في حيّنا باهتمام، وإنّما من بعيد، لكنّني لا أتدخّل مباشرة إذ يمكن أن تتعقّد الأمور في بعض الأحيان. وحدث ذلك غير مرّة. لقد تعلّمت من مسلسل أم زاهي ورامي العائليّ.

نستيقظ كل صباح في الساعة الثامنة بالضبط على صوت النشيد الوطنيّ الفلسطينيّ - بلالالادي، بلالالادي، بلادي يا أرضي يا أرض الجدود - تصدح به فتيات المدرسة الصغيرات في أعلى الشارع. وإذا لم توقظنا الأصوات الصادحة، يحرص أطفال بائع البوظة على إيقاظنا. فهم يعيشون مقابل منزلنا، وهناك ما يقرب من اثني عشر منهم تتراوح أعمارهم بين الثانية والسادسة (لا تسألوني كيف، لكن صدّقوني أنّ ذلك صحيح). وبما أنّهم يعيشون في بيت من غرفتين، فإنّهم يركضون دائمًا في الشارع قرب ساحة بيتهم الأماميّة. وأخشى ما أخشاه أن أدهس أحدهم ذات يوم لا سمح الله. والأمر الوحيد المطمئن أنّهم كثيرو الصخب بحيث يتعذّر ألا أسمعهم. وهم يدفعون زوجة المختار إلى حافّة الجنون بالدوس على حديقة خُضَرها.

زوجة المختار جنيناتيّة بالسليقة، فلاّحة في الأصل من قرية لِفتا. وهي تعيش مع زوجها في منزل حجري قديم جميل مكوّن من طبقتين، ذي حديقة خلفيّة رائعة زُرعت فيها الكرمة وأزهار عبّاد الشمس. وكثيرًا ما أبديت إعجابي بحبل غسيلها الذي تمتدّ عليه الأثواب المطرّزة التقليديّة بالوانها الزاهية الجميلة.

أما أبو سالم، صاحب الدكّان في أعلى الشارع، فلديه عشرة صغار أيضًا. لكنّ أعمارهم في هذه الحالة تتراوح بين عامين وعشرين عامًا، ومن ثمّ لا يُرى سوى خمسة أو ستّة منهم يلعبون ويصيحون في أعلى الشارع. سري وباسل وعبوده، وجمال ودودو هم أبناء جارنا المقابل. وهم فريقنا لكرة القدم، يلعبون أمام شرفتنا مباشرة، ويكسرون زجاج نوافذنا مرّة في الشهر بالمتوسّط... ويصيحون، غول!

تُضفي السيّارات التي تزمّر وهي عالقة أمام حاجز طريق بيرزيت مزيداً من النكهة على حيّنا الذي فقد صفاءه، دون أن يفقد حيويّته.

من أكثر القصص إثارة للحزن في حيّنا قصّة أم ماهر. إنّها تعيش خلف بيتنا مباشرة، ونشترك معها في حائط الحديقة. إلى جانب أولادها الأسوياء الهادئين، لدى أمّ ماهر ولدان متخلّفان عقليًّا، ماهر، ابنها البكر، وساهر، وهي تمضي معظم وقتها في رعايتهما. وغالبًا ما يدفعها الإحباط والحزن إلى البكاء. من غرفة نومي، أرى كل صباح أم ماهر، تساعدها خادمتها السريلانكيّة، وهي تحمل الكرسيّين والولدين، اللذين على وشك أن يصبحا رجلين، وتخرج إلى الحديقة وتتركهما ليحصلا على قليل من الشمس والهواء النقيّ. وطالما سمعت الولدين يغمغمان وأنا أعمل على حاسوبي.

في منتصف ليلة أمس، انتقل جيران جدد إلى حيّنا. وعلى الرغم من أنّ الوقت مبكّر في يوم رمضانيّ (حيث يستيقظ الناس متأخّرين)، فقد كانوا كثيري الصخب والضوضاء وغير مراعين لشعور الغير. كانوا حشداً كبيراً جداً، ينتقلون بمركبات ضخمة وغير ملائمة للبيئة. بعضهم خيّم في الأرض الفارغة أمام منزلنا، بجوار حبل غسيل زوجة المختار، على بعد بضعة أمتار من دكّان البوظة ومقابلنا تماماً. ووصل الآخرون في مركبة شبيهة بالجرّافة، انتقلت اهتزازاتها عبر الأرض وكان بوسعي أن أشعر بها تحت قدميّ. توقّفوا وبدا أنّهم استقرّوا على عجل خارج المبنى المقابل لأمّ ماهر، وفي مواجهة نافذة مطبخنا. راقبناهم جميعنا بصمت من وراء نوافذنا المغلقة، حريصين على عدم إحداث ضجّة. وواصلنا جميعنا الانتقال من غرفة إلى أخرى، نراقب تحرّكاتهم عن كثب. وفي وقت لاحق من تلك الليلة خلدنا إلى النوم بعد أن دارت رؤوسنا ولفّت.

وعندما أفقنا، كان يسود صمت طويل، صمت مميت، صمت رهيب، صمت جعلنا ندرك أنّ جيراننا الجدد كائنات غريبة. مخلوقات أذابت بوظة الأطفال، وحملت معها صمتاً أوقف غمغمة ماهر وساهر، صمتاً حمل مزيداً من الدموع إلى أمّ ماهر، صمتاً جمّد زجاج شرفتنا المهشّم، وأسكت أبواق السيّارات على حاجز طريق بيرزيت.

الصــوت الوحــيــد الذي خــرق هذا الصــمـت الرهيـب هو الصـوت المرعـب الصـادر عن مكبّـر الصـوت: 'ممنوع التـجـوّل حـتى إشعار آخر'.

آه كم أفتقد إلى أصوات 'بلالالادي'!

ـ ١٣ ـ
رام الله تحت منع التجوّل

I
الشرفة

الرفع الثاني لمنع التجوّل، ٥ نيسان ٢٠٠٢

هذا هو اليوم الثامن بعد أن أعاد الإسرائيليون احتلال الأراضي المحتلة أصلاً. كانت هي المرّة الثانية التي يرفعون فيها منع التجوّل منذ غزوهم في ٢٩ آذار ٢٠٠٢.

في أثناء حرب الخليج سنة ١٩٩١، أبقى الجيش الإسرائيليّ أكثر من مليوني فلسطينيّ تحت منع التجوّل لمدّة اثنين وأربعين يومًا، استباقًا للمجهول، أو 'لأسباب أمنيّة'، كما ادّعى الجيش

الإسرائيليّ في ذلك الوقت. كانوا يرفعون منع التجوّل كل بضعة أيّام 'لأسباب إنسانيّة'، لكي يتمكن المدنيّون من الخروج لشراء الأغذية والأدوية. فتصبح رام الله عندئذٍ مدينة محمومة تمامًا، حيث يسرع الجميع كالمجانين للتسوّق قبل أن تنتهي مهلة الساعات الثلاث. وكنت بين الحين والآخر أرفض الخروج من البيت تحدّيًا لقرار إسرائيل: 'يمكنكم الآن الخروج من منازلكم كالمجانين فيما نراقبكم ونصوّب بنادقنا إليكم علّ وعسى'.

عندما رفعوا منع التجوّل في أوّل مرّة، في ٢ نيسان ٢٠٠٢، علمت عن المهلة من التلفزيون بعد أن انتهت. لم يستطع أيّ من أصدقائي الاتصال بي، إذ كانت خطوط الهاتف مقطوعة في حيّنا الذي لا يبعد أكثر من كيلومتر أو نحو ذلك عن مقرّ عرفات المحاصر. كان لدينا والحمد لله كهرباء على الأقل. لم يكن هناك كهرباء أو هاتف أو ماء، في المنطقة المحيطة مباشرة بعرفات، حيث تعيش حماتي، أم سليم، التي يبلغ عمرها ٩١ سنة، كما أخبرتني عندما شاهدتها بعد اثني عشر يومًا.

شعرت بالغضب والإحباط وأنا أنتظر فرصة للخروج والاطمئنان على أمّ سليم وزكيّة، مساعدتها. أردت الوصول إليهما لأعرف كيف حالهما، وعليّ الآن أن أنتظر رفع منع التجوّل الثاني. وكما تبيّن فيما بعد، كانت حماتي تنتظرني بقلق لآخذها وزكيّة بعيدًا عن منزلها الواقع على الخطوط الأماميّة للجبهة.

انتظرتْ طويلاً حتى سمعت الجنود الإسرائيليّين يصيحون ممنوع التجوّل، ويعلنون انتهاء رفع منع التجوّل. وقد تركت ساعات الانتظار الثلاث حماتي وزكيّة في حالة يأس. بكت أم سليم عندما حاولت زكيّة مواساتها. ولما تعبت الاثنتان، نامتا في الساعة السادسة، كما أخبِرت لاحقًا.

بعد ثلاثة أيام، رنّ الهاتف المحمول الذي أعطاني إياه سري، جاري الذي يبلغ عمره ثلاث عشرة سنة. كانت فيرا: 'ياللا سعاد، استعدّي. سيرفعون منع التجوّل في غضون خمس عشرة دقيقة، سنذهب أنا وتانيا معك لجلب تانت ماري (أم سليم)'. قدت سيّارتي على طول طريق نابلس الذي حفرته الجرّافات الإسرائيليّة. وقد بدت الطريق كأنها درب إلى جهنّم. كان الغبار كثيفًا لكثرة السيّارات التي تحاول إيجاد طريقها عبر الخنادق والأنقاض بحيث لا أكاد أرى إلى أين أذهب. لزمني نصف ساعة لأصل إلى بيت فيرا، إذ كانت معظم الطرقات الأخرى مسدودة بالأنقاض أو تنتشر فيها الحفر الكبيرة. وجدت نفسي ثلاث مرّات أمام الدبّابات الإسرائيليّة وجهًا لوجه. ارتعدت خوفًا وقفلت عائدة، مسبّبة زحمة سير إذ حذت كثير من السيّارات الأخرى حذوي. بدت رام الله والبيرة كساحة حرب. انقلبت أعمدة الكهرباء رأسًا على عقب، وتناثرت على الطريق عشرات السيّارات المفلطحة، وانتشر الزجاج والحطام في كل مكان. أخيرًا تمكّنت من الوصول إلى بيت فيرا عبر البلدة

التي أصبحت كالمتاهة. تعانقنا وبكينا وتحدّثنا معًا في الوقت نفسه. وفي تلك اللحظة بالذات، ظهر نبيل وڤانوش. تعانقنا ثانية وكان أول شيء سألتني عنه ڤانوش، 'هل صحيح أنّ الجيش الإسرائيليّ اقتحم مؤسّستك، رواق'(*)؟ نظرت إليها وقلت، 'أوه، لا، من أخبرك ذلك'؟ قالت، 'شاهدتْ شقيقة حلا الدبّابات الإسرائيليّة بجوار مكتبك قبل يومين لكنّها لم تتأكّد من ذلك'. يا إلهي، لا. كان عليّ أن أعيد التركيز على مهمّتي الرئيسيّة التي تقضي بالذهاب لرؤية حماتي. نظرت إلى فيرا وقلت، 'ياللا، فيرا، تانيا، علينا أن نذهب'. ركبنا السيّارة. على مقربة من بيت فيرا رأيت ثلاث سيّارات، اثنتين سُوّيتا بالأرض تمامًا، والثالثة محطّمة ومستخدمة لسدّ الطريق. استدرت بالسيّارة في وسط الطريق ثانية، ومررنا قرب منزل إصلاح. أوقفت السيّارة وأسرعت إليها. فتحت الباب فوجدتها واقفة أمامي. عادة ما تكون إصلاح حيويّة وعالية المعنويّات، لكنّها الآن تبدو مثل شبح - كانت شاحبة ويعلو وجهها تعبير ذاهل. تعانقنا وبكينا. 'أرجوك يا سعاد، تعالي وانزلي عندنا، لا تبقي لوحدك. إنّهم أوغاد يفتّشون البيوت واحداً واحداً. إنّهم مجرمون. يخلعون الأبواب بدلاً من قرع أجراسها يا سعاد، ويعتقلون الناس، ويسرقون، ويدنّسون البيوت. أرجوك يا سعاد'، قالت إصلاح بشكل هستيريّ.

---

* - مركز الحفاظ على التراث المعماريّ.

’حسنًا يا إصلاح، اهدئي، سنتحدّث عن ذلك عندما أعود لاحقًا‘ . بحثت في حقيبتها وناولتني هاتفها المحمول قائلة، ’أرجوك أبقي هذا معك على الأقلّ‘ . أخذت هاتفها المحمول لمواساتها فحسب وقلت، ’إصلاح، أنا ذاهبة لرؤية أم سليم وسأعود قريبًا. هل تحتاجين إلى أي شيء‘ ؟ أجابت، ’نعم، نفد من عندنا الغاز. عودي بسيّارتك ولنحاول الحصول على قنّينة‘ . ’أكيد‘ ، وأسرعت عائدة إلى السيّارة. سرنا مسافة مئة متر إلى أعلى الطريق، فوجدناه مقفلاً. انعطفت يسارًا لكنّ ذلك الطريق كان مقفلاً أيضًا، رجعت إلى الوراء وانعطفت إلى اليمين. الطريق مقفل أيضًا. أوقفنا السيّارة ومشينا إلى أعلى التلّ نحو منزل أمّ سليم.

عندما استدرنا حول الزاوية، وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه أمام دبّابة وجيب إسرائيليّين. تجمدّنا في أرضنا، نظرت إحدانا إلى الأخرى وتساءلنا ماذا بعد! قلت بغضب، ’الله يلعن أبوكم عرص‘ . وقالت تانيا، ’أوف، سأسير عبر الباحات الخلفيّة وراء هذا المنزل‘ . صرخت أنا وفيرا، ’لا يا تانيا، ذلك خطر جدًّا‘ . وقفنا عاجزات إلى أن قالت فيرا، ’خلص يخرب بيتهم، سأسير نحو الدبّابة والجيب وأشرح لهم أنّنا نحاول زيارة تانت التي يبلغ عمرها إحدى وتسعين سنة‘ . سارت تانيا خلفها وتبعتهما ببطء شديد. هبط قلبي عندما فكّرت بالمرأة التي أطلق عليها الإسرائيليّون النار وقتلوها قبل يومين فيما كانت تغادر مستشفى رام الله. كنت

أغمغم، 'هيّا يا سعاد، تحلّي بالشجاعة؛ صحيح أنّ أم سليم زوجة عمّ تانيا وفيرا، لكنّها حماتك أيضًا'! وخجلت من نفسي لأنّني أسير وراءهما.

فيما كانت كل هذه الأفكار تتزاحم في مخيّلتي، سمعنا الجنود الإسرائيليّين يصيحون عبر مكبّرات الصوت بعربيّة مشوّهة، 'اغجع لوغا (ارجع للوراء)'. تجمّدنا في مكاننا، استدرنا وابتعدنا عن الجنود. كنت أنا في المقدّمة هذه المرّة. جرجرنا أقدامنا وحاولنا التفكير في استراتيجيّة بديلة للوصول إلى تانت ماري/أمّ سليم. فكرّت بأنّه يجدر بي أن أستخدم التخاطر لأحمل زكيّة على الخروج إلى الشرفة الخلفيّة المواجهة لنا، والتي لا تبعد عنّا سوى نحو مئتي متر. وفيما كنت أركّز، سمعت صوت تانيا الأوبراليّ يصرخ، 'زكيّة... زكيّة... زكيّة'. انضممت إليها أنا وفيرا وبدأنا نصيح، 'زكيّة'. وعندما أوشكنا أن نستسلم، ظهرت زكيّة على الشرفة. بلغ فرحنا وانفعالنا مداهما حتى كدنا أن نقفز في أماكننا.

'كيفك زكيّة، كيف أم سليم؟ وينها'؟ واصلت زكيّة التلويح بيدها، لكنّنا لم نكن واثقين من أنّها تسمعنا. وبعد بضع دقائق من التلويح أدارت زكيّة ظهرها وابتعدت! انتظرنا بقلق، وبعد دقائق ظهرت أم سليم ومعها زكيّة. بدأنا نصيح ثانية، 'أم سليم، تانت ماري، كيفك'؟ لم نحصل على إجابة، إذ كانت زكيّة منهمكة في الإشارة نحونا ، ومحاولة أن تشرح لأمّ سليم

التي لا تستطيع أن ترى عن بعد. انتظرت أم سليم في الخارج بضع دقائق ثم عادت إلى الداخل. عدنا نحن أيضًا وعيوننا مغرورقة بالدموع، دون أن نعرف إذا كنّا نجحنا في مواساتها أو في زيادة قلقها من الحصار.

أمضينا الساعتين التاليتين ونحن نركض محاولات شراء الأغذية. استغرقنا شراء الخبز وحده ساعة ونصف الساعة من الانتظار في فرن الشعب الشديد الاكتظاظ. كانت الساعة قريبة من الرابعة، موعد نهاية رفع منع التجوّل. عندما أصبحت الشوارع شبه مهجورة، أوصلتُ تانيا وفيرا إلى البيت، ثمّ عدت إلى بيتي خائرة القوى، يعلوني الغبار والسأم ويمزّقني الإحباط. كنت جاهزة لآوي إلى الفراش.

عندما غالبني النعاس، تذكّرت أنّ إصلاح ليس لديها غاز. وماذا عن رواق؟

II

الفستان البنفسجي

الرفع الثالث لمنع التجوّل، ٨ نيسان ٢٠٠٢

في الساعة الثانية عشرة والنصف صباحًا، رنّ الهاتف.

'نعم يا فيرا، سمعت أنّهم سيرفعون منع التجوّل، وأوّل ما أريد أن أفعله الوصول إلى أم سليم'.

'حظًا سعيدًا'.

أوقفت سيّارتي على بعد أمتار من الدبّابات المتوقّفة خارج منزل حماتي مباشرة. كان بوسعي أن أرى من بعيد جارتها، إيمان. صحت، 'إيمان، ماذا تعتقدين؟ هل أستطيع الوصول إليها'؟

ردّت بأعلى صوتها، 'تعالي من الخلف'.

حاولت إيجاد طريقي عبر الأرض الفارغة خلف بيت إيمان، كنت أنظر إلى الأرض فقط آملة ألا يراني الجنود الإسرائيليّون ويطلقون النار عليّ. مشيت بسرعة وثبات إلى حدّ ما. بدت مئات الأمتار القليلة كأنّها بضع مئات من الكيلومترات. وصلت إلى بيت إيمان، تسلّقت جدار حديقتها وقفزت. ومشيت عبر حديقتها وتسلّقت جدارًا آخر، أكثر ارتفاعًا من الأول. في الجانب الآخر من الجدار، شاهدت سحر وجاد، جاري حماتي. شعرت بارتياح كبير. 'مرحبًا يا سحر'، صحت فرحة. 'مرحبًا يا سعاد'، أجابت بصوت هادئ ومنهك. ساعدني زوجها، جاد، وزهير، الجار الآخر، في القفز. لويت كاحلي. حدّقت في وجوههم ـ كانت ثمة خطوط داكنة حول عيونهم أجمعين، وكانت لحيتا جاد وزهير طويلتين. كانوا يتهامسون لأنّ الجنود الإسرائيليّين موجودون عند زاوية المكان. بدا أنّ الجيران جاؤوا من الطريق الخلفيّ أيضًا. وعلمت منهم أنّهم تمكّنوا من إخراج الصغار والزوجات من المبنى. قالوا،

'عليك إخراج حماتك، حرام يا سعاد. الوضع هنا لا يُحتمل ـ لا ماء أو كهرباء أو هاتف لليوم الثاني عشر على التوالي. كان القصف كالجحيم. أبعديها عن هنا'. شعرت بذنب كبير وأوضحت لهم أنّني حاولت لكنّ الجيش ردّني. قالوا، 'نعلم ذلك'. تركتهم وصعدت الدرج عبر أكوام من أكياس القمامة. عندما اقتربت من الباب، ظهرت حماتي وراحت تجهش بالبكاء عندما رأتني. 'أين كنت؟ كنتُ بانتظارك. لقد رفعوا منع التجوّل مرّتين وانتظرتك، لكنّك لم تأتِ؛ ليس لدينا كهرباء أو ماء أو هاتف؛ والقصف ليل نهار؛ الطعام في البرّاد فسد؛ هرب جميع الجيران ولم يبقَ هنا إلا أم جميل وزكيّة، ثلاث نساء عاجزات... إنّني ذاهبة معك'.

قلت، 'بالطبع، لهذا جئت إلى هنا اليوم، لآخذك معي... هيّا نخرج من هنا بأسرع ما يمكن. الجيش يحيط بالمبنى وعلينا التحرّك بسرعة'.

'لكن ماذا آخذ معي'؟

قلت بحزم، 'لا شيء سوى دوائك وأموالك ومجوهراتك'.

'وماذا أرتدي'.

'لا تغيّري ملابسك؛ تعالي كما أنت؛ أحضري بعض الثياب الإضافيّة فحسب'.

'ماذا آخذ معي'؟ كانت مشوّشة تمامًا وبدأت أعصابي تتوتّر.

بدا كأنّنا لن نخرج من هناك.

سألت، 'هل أحضر فستاني البنفسجيّ'؟

'نعم، البنفسجيّ جميل'.

'لكن أين هو'؟

'في خزانتك، أليس كذلك'؟

'أعتقد ذلك'. وفتحت الخزانة.

'لا أستطيع أن أجده'

مددت يدي إليه.

قلت، 'هذا هو'.

'يا إلهي، يبدو أنّني لم أعد قادرة على إيجاد أي شيء'.

'لا بأس يا أمّ سليم، لن نذهب إلى أي حفلة. أي شيء يفي بالغرض - أسرعي، علينا المغادرة بأسرع ما يمكن'.

'أتعتقدين أنّ الأصفر يتوافق مع البنفسجيّ'؟

'نعم، الأصفر جميل جدًّا مع البنفسجيّ؛ كل الألوان جميلة مع البنفسجي'.

’لكنّني لا أستطيع أن أجد البلوزة الصفراء‘ .

قلت وقد بدأ صبري بالنفاد، ’لا عليك، اجلبي بلوزة بأي لون آخر. اسمعيني، يجب علينا أن نخرج من هنا بأسرع ما يمكن. لقد تسلّلت من الخلف. هذه منطقة عسكريّة مغلقة ووجودنا هنا غير آمن، علينا أن نخرج‘ .

فجأة فكّرت: كيف يمكن أن تقفز أم سليم عن الجدارين؟ أقنعتُ نفسي بأنّنا سنعبر ذلك الجسر عندما نصل إليه. وبدأت أحثّ أمّ سليم على الاستعجال ثانية.

’يالّلا ياحماتي، يالّلا يا حبيبتي، بربك خذي أي شيء فالملابس ليست ذات أهميّة الآن‘

’هل آخذ معي ملابس شتويّة أم صيفيّة؟ تعرفين أنّني خبّأت كل ملابسي الصيفيّة‘ .

’إذاً خذي ملابسك الشتويّة‘ .

’لكن قد يدفأ الطقس قريباً، إنّنا في منتصف نيسان الآن‘ .

أدركت فجأة أنّنا نراوح مكاننا، لذا بدأت ألتقط ما يمكن من ثياب وأضعها في الحقيبة. فانزعجت أمّ سليم.

قالت معترضة على سوء تعاملي مع ثيابها، ’ليس بهذه الطريقة‘ .

وأضافت، 'لم أعد قادرة على إيجاد شيء'.

'أخرجي أموالك ومجوهراتك'.

'صحيح... أين وضعتها؟ نعم هناك'. فتحت الخزانة الأخرى. 'أعتقد أنّها هنا'. بحثت في أكوام من الأغراض وفي العديد من الجيوب.

'لا عليك، دعيها وسنعود ثانية عما قريب ونأخذها'.

'هذا ما قلناه في سنة ١٩٤٨ عندما غادرنا منزلنا في يافا، كان ذلك في شهر أيّار'.

يا إلهي... تركتني كلماتها عاجزة عن الكلام.

وقفت ساكنة وبكيت.

قرّرت أن أتركها تأخذ ما تحتاج إليه من وقت، حتى لو علقنا هنا إلى الأبد. فلم يعد لديّ طاقة.

'إليك'، ناولتني مالها ومجوهراتها.

'هيّا بنا نذهب يا سعاد. هل آخذ معي بعض لوحاتي الزيتيّة'؟

قلت 'لا' بحزم، على الرغم من أنّني أحبّ لوحاتها.

'هل نأخذ الليمون'؟

'لا'.

'هل نأخذ حليب النيدو'؟

'لا'.

'هل نسقي النباتات'؟

'لا'.

'أين زكيّة؟ لا يمكننا أن نتركها لوحدها'.

'لا، لا يمكننا المغادرة من دون زكيّة'.

'لعلّها ذهبت لرؤية جارتنا أم جميل'.

أسرعتُ إلى الخارج وقرعت جرس شقّة أم جميل في الجانب المقابل من المدخل. انتظرت... وقرعت ثانية... لا جواب. عدت إلى أم سليم.

سألت، 'هل وجدتها'؟

'لا يوجد أحد هناك'.

قالت أم سليم ثانية، 'لا يمكننا أن نتركها وراءنا'.

'لا يمكننا ذلك بالطبع'.

أصبحت مشوّشة وعاجزة تمامًا. جلسنا كلانا هناك. أسرعت بالنزول وسألت زهير، 'هل رأيت زكيّة وأم جميل'؟

'نعم، ذهبتا لشراء بعض الطعام'.

'إلى أين ذهبتا'؟ سألت بقلق.

'شاهدتهما تذهبان منذ ساعة، عند وصولك. وقد ساعدتْ إحداهما الأخرى في تسلّق الجدار... وساعدت أنا أيضًا بدفعهما إلى أعلى الجدار'، قال مبتسمًا ابتسامة خجولة.

'أيمكنك أن تساعدني أنا وحماتي في تسلّق الجدار يا زهير'؟

ارتسمت على وجهه علامة تعجّب كبيرة وقال، 'لا بدّ أنّك جننت يا سعاد! أتتوقّعين من حماتك التسعينيّة أن تتسلّق ذلك الجدار'؟

سألت يائسة، 'ماذا يمكنني أن أفعل إذًا'؟

نظر إليّ مذهولاً أكثر مما سبق.

'عليك أن تمشي معها من أمام المبنى'.

'لكن هناك دبّابات وجيبات إسرائيليّة'.

'أعرف ذلك'.

'إذًا'؟

'هذه هي الطريق الوحيدة للخروج'.

'أتعتقد بأنّهم سيطلقون النار علينا'؟

'لنرجو ألا يفعلوا ذلك'.

لم يكن ذلك مطمئنًا أبدًا.

أسرعت ثانية بارتقاء الدرج وأنا أكثر تشوّشًا وخوفًا من ذي قبل. لكنّني تمالكت نفسي وقلت بصوت واثق، 'يالّلا يا حماتي، لنذهب'.

'أين زكيّة'؟

'ذهبت تتسوّق'.

'إذًا سننتظرها هنا'.

'لا سآخذك وأعود من أجل زكيّة لاحقًا'.

'حسنًا'، قالت بصوت مستسلم.

أمسكت بها بيد وبحقيبتها الكبيرة باليد الأخرى وبدأنا ننزل الدرج ببطء، كل درجة على حدة.

'احترسي، لا تدوسي على أكياس القمامة'.

'رائحتها نتنة، ألا يمكننا أن نأخذ أكياس القمامة معنا'؟

'لا يا حماتي، إنّني أحمل الكثير من الأشياء'.

اشتكت قائلة، 'لم تأتِ عاملة التنظيف في الآونة الأخيرة'.

مررنا بشقّة زهير فيما كان ينظّف البرّاد من الطعام الفاسد. 'اضطررنا إلى الهرب مع الصغار ولم يكن لدينا متّسع من الوقت لرمي الأشياء'، قال بنبرة اعتذار.

’ماذا سنفعل الآن يا زهير‘؟

’سعاد... ما عليك إلا أن تسيري معها حول المبنى وتدعي إلى الله‘.

تساءلت في نفسي، هل يستجيب الله لأمثالي؟ لكن أخذت أدعو على أي حال. شددت على يد حماتي وبدأت أعطيها التعليمات مع كل خطوة تخطوها. وفيما أنا أقوم بذلك، وجدتني أمام الدبّابات والجيبات الإسرائيليّة. لم أستطع رؤية وجوه الجنود في داخلها ولم أشأ ذلك.

علّقت أم سليم قائلة، ’انظري إلى الدبّابات، إنّها ضخمة جداً‘.

كنت ألهث، وكل اهتمامي منصباً على خطواتها.

كنت حريصة على ألا تقع. وكانت كلانا ترتجف: واحدة لتقدّم السنّ، والأخرى لفقدان الشجاعة.

مشينا في وسط الطريق لأنّ الرصيفين الجانبيّين مدمّران تماماً.

سألت أم سليم، ’لمَ تسدّ أعمدة الكهرباء الطريق‘؟

’لمَ سويّت السيّارات بالأرض‘؟

’لماذا نسير في وسط الطريق‘؟

’لماذا...‘؟

’لماذا...‘؟

’لقد تعبت ـ هل السيّارة بعيدة‘؟

’لا يا حماتي، كدنا نصل‘.

فتحت باب السيّارة، ودفعتها دون لطف إلى مقعد السيّارة الخلفيّ، وقدت السيّارة مبتعدة‘.

III
مربّى البرتقال

السابعة والنصف صباحًا، ١٠ نيسان ٢٠٠٢

’من المؤسف أنّنا لم نحمل معنا أصيص البيقونيا الذي جلبته لي في عيد الفصح‘. كان ذلك أول ما قالته حماتي لي عندما نهضتُ من الفراش في السابعة والنصف لأفتح الباب لنمّورة.

أجبتها بعينين نصف مغمضتين ’لا بأس يا أم سليم، كنّا نحمل أشياء أكثر أهمية منها‘.

غمغمت قائلة، ’خسارة، ستموت‘.

أجبتها بهدوء لكي لا أزيد من حزنها، ’الناس في نابلس وجنين يموتون تحت أنقاض بيوتهم‘.

توجّهتْ إلى المطبخ وبدأتْ تغلي مربّى البرتقال الذي نقعته يوم أمس. كنت أستمع إلى تقرير إذاعة البي بي سي عن

طلب كوفي أنان إرسال قوّة حماية دوليّة إلى الأراضي الفلسطينيّة، والحاجة إلى إعلان الأراضي الفلسطينيّة منطقة كوارث إنسانيّة.

'لا أستطيع أن أجد السكّر'.

نهضت من السرير وناولتها كيسين من السكّر.

'هل لدينا ما يكفي؟ ماذا لو لم يرفعوا منع التجوّل عدّة أيام'؟

'لا باس، استخدميه. لدينا المزيد'.

لجأت إلى غرفة نومي ثانية. تابع مراسل البي بي سي، 'قرّر كولن باول عدم اللقاء بعرفات اليوم، الأربعاء، في محاولة للضغط عليه من أجل إدانة العمليّات الإرهابيّة'.

'يا إلهي، إنّني تعبة جدًّا. لا أدري لماذا أتعب بسرعة'، قالت حماتي التسعينيّة وهي تمرّ بباب غرفة نومي.

غمغمت وراءها، 'أتساءل أنا أيضًا'!

بعد بضع دقائق، سمعت أنينها عبر باب غرفة نومي.

'آه، أوه، يا الله، أه يا إمّي'. تظاهرت بأنّني لا أسمعها.

تواصل الأنين، 'آه، أوه، يا الله، أه يا إمّي'. نهضت من السرير وتوجّهت إلى غرفة نومها. كانت ممدّة في السرير وظهرها لي.

'ما بك يا أم سليم، هل أنت بخير'؟ قلت بحنان وأنا أربّت على كتفها.

'يا الله، إنّني تعبة جدًّا، لا أدري لماذا. لم أعد كما كنت من قبل'.

'لا باس يا حماتي، لم نعد جميعًا على ما يرام أو كما كنّا من قبل'.

'ماذا عن المربّى'؟ سألت بصوت قلق.

'لا تقلقي عليه. كان القصد منه أن يشغلك ويسلّيك، لا أن يتعبك. ارتاحي فقط وستكونين أنت والمربّى على ما يرام'.

'لكنّني لم أتناول طعام الفطور بعد'.

'حسنًا، سأعدّه لك وأحضره إلى سريرك'.

'الآن، إذ عليّ أن أتناول الفطور في الثامنة'.

'حاضر، في الثامنة تمامًا'. وعندما توجّهت إلى المطبخ، غمغمت ثانية بصوت غير هادئ هذه المرّة، 'أف... يا الله كم هي مزعجة'.

أحضرت الطعام ووضعت الصينيّة على حِجرها في السرير.

'أليس لديك صحن أكبر للبيض'؟

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت صحنين بحجمين مختلفين. جرّبت الأول.

’هل هذا مناسب‘؟

’لا‘.

ناولتها الثاني، ’هل هذا مناسب‘؟

’لا يهمّ‘.

’الله يسامحك يا سليم‘، تمتمت في نفسي.

ذهبت إلى السرير للمرّة الرابعة في أقل من نصف ساعة. لكن هذه المرّة أغلقت الباب تمامًا حفاظًا على سلامة عقلي.

ملت نحو كتاب تعلّم الإيطاليّة على الفور وبدأت أقرأ بصوت مرتفع:

Dove la stazione?? Dove la stazione?? Cosa fa?? Cosa fa?? Cosa fa?? Come va?? Come va?? Come va?? Come va bene??

IV
الأبواب

الخامسة والثلث بعد الظهر، ١٠ نيسان ٢٠٠٢

كنت جالسة إلى طاولة المطبخ أتناول بعض مربّى البرتقال المصنوع للتوّ، عندما رنّ جرس الباب. إنّه سري، جاري ابن الثلاثة

عشر ربيعًا، الذي يضحكني بين الحين والآخر هو وأخوه الأصغر باسل، بأفلام الفيديو الرائعة عن منافساتهما في الكاريوكي. وفي أحد الأفلام، ظهر سري بفستان أمّه، تقاطعه قهقهة باسل ومروحيّات الأباتشي الإسرائيليّة في سماء رام الله، فضلاً عن جنديّ يتبوّل خلف دبّابة.

سمعت حماتي تقول لسري، 'إنّها في المطبخ'.

'مرحبًا يا سري. اجلس. تذوّق المربّى الذي صنعته حماتي اليوم'. ناولته قطعة خبز ونظرت إليه. بدا سري، ذو الشعر الأشقر والوجه النحيف الباسم، شاحبًا جدًّا وشديد القلق.

'هل لديك مفتاح بيت عمّو تيسير'؟

'لا، لماذا'؟ سألت بفضول.

'أوف...، إنّنا في ورطة كبيرة. سيكسرون بابه إذًا'، قال مستسلمًا بسرعة للواقع.

'هل وصل الجنود'؟ سألت ووقفت لأعدّ نفسي.

'لا لكنّهم سيأتون عمّا قريب. فقد دخلوا بيت عمّتي مها'، ردّ بعصبيّة.

'يجدر بي أن أبعد سيّارتي عن الطريق قبل أن يحطّموها ويسوّوها بالأرض'. حدث ذلك لمئات السيّارات المتوقّفة أمام منازل

أصحابها. خرجت من الباب الخلفيّ لكي لا تراني حماتي، وأسرعت إلى الجيران أسألهم إذا كان بوسعي أن أوقف سيّارتي في أرضهم الفارغة. فساعدوني في ركنها.

وقفت أتحدّث مع بقيّة الجيران والأولاد. قال سامي الصغير، 'مرّت ثلاث دبّابات وجيبان وتوجّهت إلى أعلى التلّة'.

صاحت أمّ سامي من الشرفة، 'احرصي على إخفاء مجوهراتك وأموالك، ضعيها بعبّك (صدرك). إنّهم حراميّة يسرقون المال والهواتف المحمولة والأدوات الكهربائيّة، خبّئيها كلّها'.

'يا إلهي، كيف يمكنني أن أحمي أجهزتك الكهربائيّة يا سليم؟ أكيد مش بعبّي'. قلت لنفسي. كنّا جميعًا، وأنا أيضًا، نحاول أن نُخفي قلقنا.

قال أبو حسن، 'أرجو أن يأتوا عمّا قريب لننتهي من هذا الأمر'.

'شريطة أن يأتوا نهاراً، لا أن يوقظونا في ساعة متأخّرة من الليل؛ نريد أن ننام'، أضاف رائد مبتسماً.

'لا داعي للقلق. ليأتوا ويفتّشوا، ليس لدينا ما نخفيه'، قال بائع البوظة.

'هل سمعتم الأخبار؟ لقد اعتقلوا للتوّ ناصر عويس، قائد شهداء الأقصى'، أخبرت راجي ورائد. وكنت أعتقد أنّه خبر مثير.

'سيكون هناك مئة ناصر عويس عمّا قريب'.

تركت النقاش عند هذا الحدّ ودخلت وأنا أحاول أن أعرف كيف أستعدّ لتفتيش منزلي. شاهدت مزيداً من الأخبار على قناة الجزيرة.

قلت متظاهرة بأنّني هادئة وعقلانيّة، 'قد يكون من الأفضل أن تُخرجي أموالك ومجوهراتك من غرفة نومك يا حماتي. يبدو أنّ الكثير من السرقات تحدث في أثناء اقتلاع البنية التحتيّة للإرهاب'.

'لماذا، هل هم قادمون'؟ سألت أمّ سليم. 'لا، لكن من الأفضل اتخاذ الحيطة والحذر'، قلت بطريقة عابرة. ناولتني المال والمجوهرات، فوضعتها في جيوب البنطلون الكبيرة الذي قرّرت ارتداءه قبل أن أفتح لهم الباب. لكن ماذا لو تأخّرت؟ ربما ينسفون الباب قبل أن أصل إليه. وراودتني صورة الأم وابنها اللذين أطلقت النار عليهما وقُتلا عندما ذهبت الأم لتفتح باب الشرفة. إنّ شرفتنا تبدو شبيهة بها بالضبط. وضعت البنطلون على الأرض قرب سريري. وأخرجت أيضاً جواز سفري الأردني وهويّتي من

حقيبتي، ووضعت سي دي مغنّي الأوبرا باڤاروتي على طاولة القهوة في غرفة الجلوس، وأبعدت كتاب محمّد أركون، «تاريخ الفكر العربيّ الإسلاميّ» عن مكتبي القريب من سريري ووضعت فوقه قصّة «الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ» لتريسي شيفالييه.

في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر تقريبًا رنّ الهاتف. كان ذلك هشام، وهو صديق لنا يعمل في وزارة التخطيط، يسأل إذا كان الجنود الإسرائيليّون قد وصلوا إلى بيتنا القريب جدًّا من وزارته.

'لا، لم يصلوا بعد. أستطيع أن أراهم قرب بناية الجوّال، وأسمعهم ينسفون الأبواب'.

'لكنّ زاهي يقول إنّ الحرّاس لديهم مفاتيح بناية الجوّال'؟

'ربما النسف أسرع'، قلت ساخرة، ثم سألت بقلق، 'هل فتّشوا منزل سميح'؟

'ليس بعد'.

'يبدو أنّ كلينا سيستقبل زوّارًا الليلة'.

بعد عدّة ساعات كنت لا أزال أسمع بعض الانفجارات في أعلى التلّة قرب منزلنا. أغلقت أباجورات النوافذ في الجهة الشماليّة حيث يأتي الصوت. فتحت أيضًا بوّابة الحديقة، وجلست إلى حاسوبي لأكتب هذه القصّة.

كنت أسمع صرير الدبّابات المتحرّكة على الشارع بالاتجاهين من بعيد وتساءلت كم من الوقت سيمضي قبل أن يصلوا إلى هنا.

تصبحون على خير.

V
وداعًا يا جاد

الرفع الرابع لمنع التجوّل، ١١ نيسان ٢٠٠٢

كنت أتابع على التلفزيون دفن تسعة وعشرين شخصًا قُتلوا خلال اليومين الأولين من الغزو الإسرائيليّ لرام الله. في قبر جماعيّ، في الباحة الخلفيّة للمستشفى، صُفّ تسعة وعشرون كيسًا بلاستيكيًّا أسود يحمل كل منها اسمًا. فالجيش الإسرائيليّ لم يسمح للمستشفى بتسليم الضحايا إلى ذويهم، ولا بدفنهم في مقبرة المدينة. تسمّرت مذهولة أمام التلفزيون عندما شاهدت أعزّ صديقاتي إصلاح، المدرّسة في جامعة بيرزيت، وابنتها البالغة ثماني عشرة عامًا ياسمين، الطالبة هناك، تبكيان وتنتحبان بشكل هستيريّ مثل العديد من المقيمين في رام الله الذين أسرعوا إلى المستشفى عند رفع منع التجوّل للمرّة الأولى في ستّة أيام. انضممت إلى البكاء والنحيب أمام التلفزيون وأنا أتساءل عمّا دفع

إصلاح وياسمين إلى الذهاب إلى هناك. أرجو ألا يكون أحد من أقارب إصلاح أو أصدقائها من بين الضحايا.

كان هاتفي مقطوعًا، فلزمني بضعة أيام أخرى إلى أن حلّ موعد رفع منع التجوّل التالي، قبل أن أستطيع رؤية إصلاح أو التحدّث إليها.

'ذهبنا احترامًا للضحايا إذ لم يستطع ذووهم الوصول إليهم بسبب الحصار'.

'لكن لماذا أخذت معك ياسمين يا إصلاح'؟

'ذهبت ياسمين وماهر (شقيقها الذي يبلغ عمره اثنين وعشرين عامًا) للاستعلام عن صديقهما جاد'.

'ماذا عن جاد'؟

'مسكين، لم يكن لدينا أي فكرة أين اختبأ هو ورجال الشرطة زملاؤه ليلة الغزو الإسرائيليّ. رجوته أنا وماهر البقاء عندنا في تلك الليلة، لكنّه أراد أن يكون مع أصدقائه. تكاد أمّه تفقد عقلها. تتصل بنا كل نصف ساعة من عزّون (قرية قرب نابلس) سائلة عن ابنها'، قالت إصلاح والدموع تسيل على وجنتيها.

'في الأيام الثلاثة الأولى من الغزو، كان جاد يتصل بماهر كالمسعور طالبًا المساعدة ويتوسّل لإنقاذه. كان مختبئًا مع أصدقائه في مبنى وسط رام الله'. بكيت أنا وإصلاح هذه المرّة.

’صدّقيني يا سعاد، أمضيت أنا وماهر ساعات ننشد المساعدة من الصليب الأحمر، والهلال الأحمر، واتصلت بكل المنظّمات الإنسانيّة الدوليّة وكل ما حصلنا عليه، «لا يمكننا عمل الكثير، الجيش الإسرائيليّ لا يسمح لنا بالتحرّك. لم نتمكّن من مساعدة المحاصرين أو الجرحى، أو رفع الجثث عن طرقات رام الله أو من المباني المحاصرة». مسكين جاد، كان يصيح مذعوراً ويقول، «ساعدوني أرجوكم. سيقتلوننا. أرجوكم أن تفعلوا شيئًا». وكان ماهر يقضي على خط الهاتف أربعًا وعشرين ساعة في اليوم لمدّة ثلاثة أيام. ثم فقدنا الاتصال تمامًا بجاد. يعتقد ماهر وأصدقاؤه أنّ جاد من بين ١٥٠٠ شخص اعتُقلوا في رام الله والبيرة. وليس هناك أحد يعرف ماذا حلّ بهم. الله يساعد أهاليهم‘.

’اعتني بنفسك يا إصلاح وبماهر‘.

قبّلتها مودّعة إذ اقتربت ساعات رفع منع التجوّل الثلاث من نهايتها.

قفلت عائدة عبر أكوام من أنقاض المباني والحطام. ولازمتني صورة مكالمات جاد الهاتفيّة الهستيريّة، فيما الناس يسرعون إلى بيوتهم، ورام الله تتحوّل ثانية إلى مدينة أشباح.

بكيت.

خلال رفع منع التجوّل الرابع، بعد بضعة أيام، توجّهت لرؤية إصلاح ثانية. كنّا واقفين أمام بيتها مع نبيل وڤانوش عندما جاءت ابنة إصلاح الكبرى، سيرين، راكضة عبر الشارع. وقفت ساكنة أمامنا والدموع في عينيها، ونظرت إلى إصلاح والصدمة بادية على وجهها. فغاص قلبي بين أضلعي.

'ما الأمر'؟ صاحت إصلاح. ألقت سيرين نفسها على أمّها، وعانقتها وبدأت بالبكاء.

قالت، 'جاد'... شدّت إصلاح على سيرين وقالت، 'مسكين، كان يعرف ذلك، وشعرت بذلك في داخلي أيضًا... سامحنا يا جاد. حزينة إمّه'.

وقفنا جميعًا على الرصيف ونحن نبكي.

'وأين ماهر'؟ سألت إصلاح كالمجنونة بعد دقيقة.

'إنّه في المستشفى'، أجابت سيرين وهي تمسح الدموع عن أنفها.

'لنذهب لرؤيته يا إصلاح، يجب ألا يُترك بمفرده هناك'.

'إنّني قادمة معكما'، قالت سيرين.

قلت محاولة تجنيبها ذلك، 'قد يكون من الأفضل ألا تأتي يا حبيبتي'.

'عليّ أن أودّع جاد'.

قد تكون محقّة، توجّهنا ثلاثتنا بصمت مطبق إلى مستشفى رام الله.

'ها هو ماهر'، صاحت إصلاح.

كان ماهر الوسيم وذو البنية الضخمة يحاول مقاومة رفيقيه وهما يجرّانه بعيداً عن المستشفى. وعندما شاهدت إصلاح ابنها انفعلت بطريقة جنونيّة. فتحت باب السيّارة وقفزت قبل أن تتاح لي فرصة التوقّف. رآها ماهر من بعيد وبدأ يصيح بأعلى صوته، 'قتلوه يا أمّي، نعم قتلوه. الأوغاد قتلوه، المجرمون قتلوه، لكن لماذا قتلوه؟ لماذا يا أمي'؟

عانقت إصلاح ماهر بشدّة وقالت، 'يا حبيبي، كنت عارفة والله. كنت أعرف. مسكين كان خائفًا جدًّا، لا أصدّق أنّنا لم نستطع إنقاذه'. ابتعد ماهر عن أمّه.

'ماما، كان يرتدي السترة الخضراء والقميص الأزرق اللذين أعطيتهما له. أطلقوا النار على رقبته هنا'. أشار إلى مؤخّر عنقه، 'إنّه في ثلاّجة المستشفى منذ ثلاثة عشر يومًا. لم يتعرّف إليه أحد. هناك ثلاث جثث مجهولة أيضًا. رأيته. تعرّفت إلى وجهه. قبّلته مودّعًا. كان باردًا جدًّا. وكان يرتدي السترة الخضراء والقميص الأزرق اللذين أعطيتهما له'.

سرت رعشة في جسدي.

صمت الجميع إلى أن قال ماهر، 'تعالي ودّعي جاد يا سيرين'.

'لا بأس يا ماهر، لا داعي لذلك'، قلت فيما وقفت إصلاح وسيرين مكانهما.

'هل اتصلت بعائلته'؟ سألت محاولة صرف انتباه ماهر ولكي أحمي سيرين من هذه التجربة المؤلمة.

'نعم اتصلنا بهم، لكنّهم لم يصدّقونا ـ كان علينا أن نصوّره لكي نرسل الصورة إليهم'.

وقف صديقا ماهر صامتين وقد بدت عليهما الصدمة. لقد كانا يحاولان مواساة ماهر، لكنّهما بحاجة إلى من يواسيهما.

'ماما، كان في المستشفى في ذلك اليوم عندما جئنا وسألنا عنه، لكن لم يتعرّف إليه أحد على ما يبدو'.

'تعال حبيبي ماهر، الله يرحمو، هيّا بنا نذهب'، قلت بعدما أدركت أنّ مهلة رفع منع التجوّل تكاد تنتهي.

أمسكت إصلاح وسيرين بماهر من يديه وأدخلتاه السيّارة.

قبّلت إصلاح صديقيْ ماهر مودّعة وانطلقنا مبتعدين في صمت مطبق، فيما دخّنت السجائر أنا وماهر. في اليوم التالي، أخبرني ماهر أنّهم نجحوا في ترتيب نقل الجثّة وتسليمها إلى عائلته في عزّون.

VI
الحمد للّه على السلامة يا سليم

الرفع الخامس لمنع التجوّل، ١٥ نيسان ٢٠٠٢

اليوم هو عيد ميلاد ابنة أختي ديالا. قد تكون أتمّت الثامنة والعشرين ـ لم أعد متأكّدة من ذلك. لا يهمّ، إذ لا يمكنني الاتصال بها في عمّان على أي حال.

سررت حين سمعت باحتمال رفع منع التجوّل اليوم. ربما يتيح ذلك لسليم الوصول إلى رام الله قادماً من القدس، حيث كان عالقاً منذ أن قدم من فرنسا قبل أربعة أيام.

اتصلت هذه المرّة بتانيا، ابنة عمّ سليم، لأسألها متى تتوقّع أن يُرفع منع التجوّل.

'فيرا سمعت من ريما، التي سمعت من عبد الفرّان، أنّ منع التجوّل قد يُرفع بين الواحدة والخامسة بعد ظهر اليوم... لقد فتّشوا منزل ريما في الليلة الماضية'.

'لكنّني ظننت أنّهم فتّشوا منزلها مرّتين من قبل'؟

'جاؤوا ثانية، وطلبوا منها الانتظار في الخارج تحت المطر، فيما يقومون بتفتيش المنزل، لكنّها رفضت وقالت لهم إنّها حافية القدمين وإنّها مواطنة كنديّة. فتّشوا المنزل وأحدثوا فيه فوضى كبيرة، كما فتّشوا سيّارتها المتوقّفة عند المدخل. أخذوا مصباحها

الكهربائيّ، وعندما اشتكت بقولها إنّها بحاجة إليه لأنّ الكهرباء مقطوعة، قالوا بتهكّم إنّهم سيعيدونه بعد يومين. وعندما رحلوا، تساءلت ريما ماذا يمكن أن يكونوا قد أخذوا معهم أيضًا، إذ لم يسمحوا لها بمرافقتهم عندما دخلوا كل غرفة. وقبل مغادرتهم، لاحظت أنّ مفتاح البيت غير موجود. فسألتهم إذا أخذوه فأنكروا'.

ريما عضوة نشيطة في جمعيّة إنعاش الأسرة في البيرة، وهي عضوة أيضًا في مجلس أمناء جامعة بيرزيت. إنّها في السبعين من عمرها، أرملة تعيش بمفردها في منزل قريب من وزارة الثقافة الفلسطينيّة التي حوّلها الإسرائيليّون إلى مركز احتجاز عندما غزوا رام الله في ٢٩ آذار.

اتصلت بسليم في القدس لكي أنسّق معه عبور الحاجزين بين رام الله والقدس.

'مرحبًا سليم، يبدو أنّهم سيرفعون منع التجوّل، لذا استعدّ لاجتياز حاجزي الرام وقلنديا، لكن لا تُحضر حقائبك معك؛ لن يسمحوا بمرورها، وإذا سمحوا بذلك فسيمضون طوال النهار في تفتيشها، لذا اتركها في منزل ريما وألكس'.

'وماذا عن هديّة عيد ميلادك'؟

'آه... عيد ميلادي!... (نسيت تمامًا عيد ميلادي في ١٢ نيسان!) لا بأس يا سليم، أتسلّمها لاحقًا. لكن أحضر معك هويّتك'.

’عرض نظمي أن يقلّني إلى حاجز قلنديا‘ .

’عظيم وسأقلّك أنا من الجهة الثانية‘ .

’أيمكنكِ الوصول إلى هناك‘ ؟

’سنرى. سأحاول ذلك. اتصل بي قبل أن تغادر القدس‘

بعد ساعة أو نحو ذلك، فيما كنت جالسة في البيت والقلق مسيطر عليّ، اتصلت فيرا. ’سليم يحاول الاتصال بك. يبدو أنّ خطوط الهاتف المحمول مشوّشة. يقول إنّهم لا يسمحون لأحد بعبور حاجز قلنديا. وهو لا يعرف ماذا يفعل‘ .

’شكرًا يا فيرا، سأتصل به في الحال‘ .

تناولت هاتفي.

’مرحبًا يا سليم‘ .

’نعم يا سعاد، لقد أعادوني. إنّهم لا يسمحون لأحد بعبور الحاجز‘ .

قلت مازحة، ’ألست محظوظًا؟ حسنًا استمتع ببعض الأيام الأخرى من الحريّة في القدس وحاول أن تأتي عندما يرفعون منع التجوّل في المرّة التالية‘ .

أصبت بخيبة أمل كبيرة. أردته أن يعود، لا لأنّني مشتاقة إليه جدًّا فحسب، بل أيضًا لأنّني أكاد أختنق وأنا بمفردي مع أمّه.

'مستحيل. سأحاول العبور جاهداً، حتى إذا اضطررت إلى العودة إلى الحاجز وتكرار المحاولة بعد ساعة أو نحو ذلك'.

'بالتوفيق يا سليم'.

أقفلت الخطّ.

'يجب أن نتناول الغداء في الواحدة بالتوقيت الشتويّ لا الصيفي'' قالت أم سليم.

أجبت متفلسفة، 'نأكل عندما نجوع'.

'لا أعتقد أنّ هناك ما يكفينا نحن الثلاثة'، قالت أم سليم قلقة.

'لا تقلقي، هناك ما يكفي لك ولسليم، لأنّني أكلت للتوّ'.

'أتعتقدين أنّ سليم سيكون هنا في الواحدة'؟

'لا أدري، لنأمل ذلك'.

في الواحدة إلا عشرين دقيقة بالتوقيت الشتويّ، رنّ الهاتف.

'سعاد، السائق يقول إنّ بوسعه الالتفاف على الحاجز عبر الطرق الترابيّة'.

'لا تخاطر يا سليم. إنّهم مجانين ويطلقون النار دون تمييز'.

'سأجرّب على كل حال'.

قلت، 'توخَّ الحذر'، وخار قلبي. أريده أن يأتي ليهتمّ بأمّه إذ إنّني لم أعد أحتمل.

صاحت أم سليم من المطبخ، 'سعاد، تعالي لتري إذا كان هناك ما يكفينا نحن الثلاثة'.

'إنّني قادمة'، قلت بصوت تعب، كأنّنا لم نبحث ذلك قبل عشر دقائق فقط.

'نعم يا أم سليم، هناك الكثير؛ تذكّري أنّني تناولت الآن وجبة فطور دسمة'.

قالت متباهية، 'تأكلين في أوقات غريبة، في بيتي، أتناول الفطور في الثامنة بالضبط، والغداء في الواحدة، والعشاء في السابعة تمامًا'.

'برافو أم سليم، تلك هي الطريقة الصحيّة، أعرف أنّنا غير منظّمين على الإطلاق'.

'لماذا؟ يوجد الآن منع تجوّل ونحن جالسون في البيت ولا نعمل، يجب أن تكوني قادرة على تنظيم نفسك أكثر'.

اللهم يطوّلك يا روح.

'صح أم سليم، صح'.

قبل الواحدة بقليل، رنّ الهاتف ثانية.

'سعاد، السائق يسلك طرقًا ترابيّة؛ إنّنا عالقون في مكان ما قرب الـ D.C.O (مكتب الارتباط الإسرائيليّ). علينا العودة وتجربة طريق آخر لأنّ الجيش الإسرائيليّ أمامنا ولم يعد بإمكاننا أن نتقدّم أكثر'.

'سليم، أرجوك خلص، عد إلى القدس'، قلت بلهجة حازمة وأنا أعني ما أقول لأنّني بدأت أقلق حقًّا الآن.

'ماذا تقصدين؟ لا يمكننا العودة إلى القدس الآن. إنّنا قريبون جدًّا من رام الله'.

قلت بلهجة يائسة، 'إذًا اتصل بي عندما تصل إلى مكان أستطيع إحضارك منه'.

'هل أنت جائعة يا سعاد أم تريدين انتظار سليم'؟

'لست جائعة، سأنتظر سليم'.

'لكنّني أشعر بالجوع، لقد قاربت الواحدة الآن'.

'لمَ لا تأكلين إذًا'، قلت بتململ.

'أي صحن أستخدم للميكروويف'؟

رنّ الهاتف فيما كنت أسير معها نحو المطبخ. 'نعم يا سليم، أين أنت الآن'؟

'يجب أن يكون الصحن أبيض بدون زخرفة'.

’ربما قرب بناية الجوّال‘ .

’عظيم‘ .

’هذا الصحن كبير جداً، أليس لديك واحد أصغر‘ ؟

’إنّنا على بعد بضع دقائق فقط من مخيّم الجلزون‘ .

’نعم، نعم، أعرف أين أنت، ابقَ هناك. سآتي في الحال‘ . ناولت أم سليم صحنًا أبيض خاليًا من الزخرفة .

’هل ستأتين الآن‘ ؟ سأل سليم حين اختفى صوتي عندما انحنيت لأحضر الصحن.

’أليس هذا الصحن كبيراً جداً يا سعاد؟ ألا يوجد لديك صحن أصغر‘ ؟

’لا‘ ، أجبت وقد نفد صبري .

’ألن تأتي‘ ؟ سأل سليم .

’بلى يا سليم، سآتي. كانت «اللا» لحجم الصحن الذي تريده أمك‘ ، أجبته لكنّني زدت من تشوّشه.

’ألا تريدك أن تأتي لإحضاري‘ ؟ سأل والقلق بادٍ في صوته .

’لا، لا. نعم، لا بأس، سآتي خلال بضع دقائق‘ .

’أيمكنك أن تضعيه في الميكروويف‘ ؟

'ضعي مزيداً من الطعام في صحنك يا أمّ سليم، ذلك قليل جدًّا، لقمة واحدة فقط'.

'أريد أن أترك الباقي لسليم. ربما كان جائعًا جدًّا'.

وضعت طبقها في الميكروويف، انتظرت دقيقة أو اثنتين، أخرجته، ثم أسرعت إلى الباب لأحضر سليم.

'هل الساعة الواحدة'؟

'نعم، الواحدة بالضبط'. أغلقت الباب خلفي وأسرعت متنهّدة.

فيما كنت أقود السيّارة إلى أعلى التلّة، أدركت أنّني مررت على هذه الطريق الترابيّة نفسها ثلاث مرّات في الأيام القليلة الماضية. فكلّما رفعوا منع التجوّل تقريبًا، وجدت نفسي على هذه الطريق الترابيّة الخلفيّة. في المرّة الأولى، نقلت معي شخصًا قتل الإسرائيليّون عمّه، وفي المرّة الثانية، نقلت شقيقين توفّي أبوهما من فشل الكلى، إذ لم يتمكّن من الوصول إلى المستشفى. وكانت المرّة الثالثة عندما حاولت 'التخلّص' من زكيّة، مساعدة أم سليم، لأنّ وجود زكيّة وحماتي معًا في البيت يمكن أن يدفعني إلى الجنون بسهولة ـ على افتراض أنّني عاقلة الآن.

وجدتني وجهًا لوجه أمام سليم وهو يحمل حقيبتين ويجرّ نفسه إلى أعلى التلّة. أوقفت السيّارة، وقفزت منها، وعانقته

وقبّلته بحماسة. وقف سليم خجلاً: فهو لا يحبّ العناق والتقبيل في الأماكن العامّة!

ما إن دخلنا البيت، حتى قالت أم سليم، 'أهلاً يا بنيّ، هل أنت جائع'؟

انسحبت بهدوء وارتياح كبيرين إلى غرفة نومي عندما سمعتها تقول: 'فاصوليا ولا باتنجان ماما'؟

في وقت لاحق قبّلت كلاً منهما مودّعة، إذ قرّرا زيارة مارغو وتانيا وفيرا. وأردت البقاء في البيت على الرغم من رفع منع التجوّل. لم أعرف إذا كنت أفعل ذلك تحدّيًا للاحتلال أم لحماتي. لكن هل يهمّ ذلك حقًّا؟

أوبرا لاترافياتا ملأت كل ركن من أركان البيت، إذ جلست أخيراً للكتابة بمفردي.

VII
صالح، الحدّاد

رفعوا منع التجوّل ثانية، ٢١ نيسان ٢٠٠٢

كنت أستمع إلى الراديو وأنا أقود السيّارة لإحضار الحدّاد لكي يصلح الباب الأماميّ لبيت حماتي. فقد أبلغتنا أم جميل،

الجارة الوحيدة التي بقيت في البناية، أنّ الجيش الإسرائيليّ نسف الباب وفتحه على مصراعيه.

إسرائيل ترفض استقبال لجنة الأمم المتحدة للتحقيق في مجزرة مخيّم جنين.

'لا يوجد لدى إسرائيل ما تخفيه'، زعم شمعون بيريز.

مع ذلك صوّتت الحكومة الإسرائيليّة بالإجماع ضدّ السماح للجنة الأمم المتحدة بالمجيء والشروع في عملها. وعلى الرغم من تنامي الانتقاد الدوليّ لموقف إسرائيل، كما يقول المعلّق، فإنّ الضرر اللاحق بسمعة إسرائيل بسبب هذا الرفض أقلّ بكثير من الضرر الذي يمكن أن تُلحقه اللجنة بدون الضوابط والقيود التي تحاول إسرائيل فرضها على التحقيق. كانت إسرائيل تطالب بعدم الكشف عن أسماء الشهود، والحصانة لجنودها من محكمة دوليّة. أمر منطقيّ جدًّا ـ لمَ لا؟ قلت لنفسي، إذ لن تُجبر أيٌّ من 'البلدان الديمقراطيّة والحرّة' إسرائيل على الامتثال.

'الأمر يرجع إليهم، إنّه قرارهم'، قال كوفي أنان.

أوقفت السيّارة أمام الحدّاد في البيرة.

'مرحبًا يا صالح'.

'أهلاً دكتورة سعاد'.

'صالح، الجيش الإسرائيليّ نسف باب منزل حماتي وفتحه'.

'هل كانت مختبئة خلفه'؟ وضحك ضحكة خبيثة.

اختفى في دكّانه لجمع عدّته.

في طريقنا إلى منزل حماتي، سلكنا شارع نابلس الرئيسيّ. ومثل سائر المدينة، تحوّل إلى منطقة حرب لا يمكن التعرّف إليها. تألّمت عندما شاهدت جذوع أشجار النخيل المكسورة التي كانت تصطفّ على طول الجزيرة الوسطيّة لهذا الطريق.

تحدّثت أنا وصالح عن مئات الأبواب التي أصلحها في الأيام القليلة الأخيرة منذ الانسحاب الإسرائيليّ الجزئيّ من أنحاء من البيرة ورام الله.

قال صالح بفخر، 'أصلحت الكثير من أبواب البيوت والشركات والمصارف والوزارات والمراكز الثقافيّة ومنازل المسنّين، وكثيراً من عيادات الأطبّاء، يا دكتورة. جاؤوا إلى منزل جارنا واعتقلوا أربعة. لكنّنا كنّا محظوظين، إذ إنّهم فتّشوا البيت مرّتين فقط. في إحداهما حجزونا في غرفة واحدة فيما فتّشوا سائر البيت، وفي الثانية طلبوا منّا مغادرة المنزل والنزول إلى الحديقة، لكنّني كنت محظوظاً لأنّهم لم يعتقلوني'

'محظوظ جدّاً'.

'لكن لو اعتقلوني لكان عليهم إطلاق سراحي في غضون أسبوع أو عشرة أيام، مثلي مثل غيري'

'هذا صحيح'.

أوقفت السيّارة بعيداً عن منزل حماتي، مقابل المقاطعة.

'هيّا بنا يا صالح'، قلت بصوت واثق وواقعيّ.

'يا الله'.

خرجتُ من السيّارة وفجأة بدا كل شيء هادئًا جدًّا، شديد الهدوء، هادئًا بشكل غير طبيعيّ، هادئًا كما لو أنّنا خاضعون لمنع تجوّل تامّ. بدأت أعصابي تتوتّر وتزداد توتّرًا. وعندما فتح صالح صندوق السيّارة ليخرج عدّته، بدا لي كل شيء مريبًا: حقيبة العدّة الكبيرة، وأسلاكه الكهربائيّة، وقاطعته الكبيرة، وعتلته الطويلة، ومكنة اللحام. يا إلهي، بدا قناع اللحام أكثر الأشياء ريبة. لا، كل شيء يبدو مريبًا. لماذا بدا كل شيء طبيعيًّا وبريئًا قبل عشر دقائق عندما وضع صالح عدّته في صندوق السيّارة؟

وبّختُ نفسي فيما كنت أحدّق بشكل هستيريّ داخل صندوق السيّارة، 'هيّا يا سعاد، كفّي عن ذلك'.

'أين البيت'؟ سأل الحدّاد.

'انتظر، انتظر يا صالح، أرجوك لا تُخرج شيئًا من صندوق السيّارة'، رجوته بعصبيّة.

نظر إليَّ صالح نظرة فضوليّة. كنت أرى التساؤل في عينيه، ما الأمر يا دكتورة؟ لكنّه لم يقل شيئًا، واكتفى بالتحديق بي.

قلت مذعورة، 'انتظر، انتظر، انتظر، يا صالح، انتظر هنا، سأعود بسرعة، دعني أرجع وأتفحّص الطريق؛ ومنع التجوّل، والجنود، والدبّابات، وهل كل شيء على ما يرام' .

بدأت أصعد إلى أعلى التلّة بتوتّر، وسرعان ما وجدت نفسي أمام كومة من التراب وأكداس من الأشرطة الشائكة. ظهر خلفها مباشرة أربعة جنود إسرائيليّين وجوههم مطليّة بالأسود، اثنان فوق إحدى الدبّابات، واثنان أمامها. وكانت الدبّابة متوقّفة أمام منزل من طبقتين. لم يكن مالكو هذا البيت محظوظين مثل صالح؛ لقد طردهم الجنود من البيت، وموّهوه بشبكة كبيرة. وبدا أشبه بخشبة مسرح منه بمخبأ للجنود. تساءلت، لماذا موّهوه؟

بما أنّ المرور أمام المنزل المموّه خطِر، فقد كان عليّ المرور عبر حديقة أحدهم. سألت، 'هل رفع منع التجوّل' ؟

'أجل من العاشرة حتى الثانية عشرة' .

'لماذا لا يوجد أحد في الشوارع' ؟ لم أحصل على إجابة، لذا تابعت السير عبر الحديقة إلى أن وصلت إلى الطريق المؤدّي إلى منزل حماتي. لا حراك في هذا الشارع أيضًا. ماذا لو لم يكن منع التجوّل مرفوعًا؟ سيطلقون النار عليّ. أرعبتني هذه الفكرة وقرّرت طرق باب آخر. رأيت امرأة شابّة ونشيطة ترتدي فستانًا برتقاليًّا صارخًا وغطاء رأس أزرق زاهيًا وهي تنظّف شرفتها.

'مرحبًا، هل رفعوا منع التجوّل'؟

'من العاشرة إلى الثانية'، أجابت فيما تابعت مهمّة التنظيف المستحيلة.

تابعت المشي بشكل مستقيم (أعتقد أنّه مستقيم، لكن لعلّه كان مضطربًا قليلاً)، وعصبيّتي تزداد بشأن مهمّتي ومهمّة صالح إصلاح باب حماتي. كيف يمكنني، وأنا أشعر بعصبيّة شديدة، أن أقنع الجنود الأكثر ارتيابًا بأنّ هذه عدّة حدّاد؟ كيف أقنع الجنود قبل أن يطلقوا علينا النار ويقتلوننا كلينا أو أحدنا، ربما الإرهابيّ صالح، بأنّنا في مهمّة إصلاح باب حماتي، الباب الذي نسفه زملاؤهم ليفتحوه قبل ثلاثة أيام، لكي لا يبقى مشرعًا، ولكي لا يتمكّن زملاؤهم الآخرون من نهبه كما فعلوا في العديد من بيوت رام الله. وقد اعترفت مصادر جيشهم «بأعمال التخريب البشعة» ضدّ ممتلكاتنا. وقال شمعون بيريز أيضًا على تلفزيون سي إن إن اليوم إنّهم سيحقّقون بحوادث النهب في رام الله. فليُضَف هذا التحقيق إلى اللائحة الطويلة من التحقيقات في أعمال النهب.

'هاي'! سمعت اثنان من الجنود الأربعة يصيحان ورائي، التفت إليهما بسرعة قبل أن يطلقا النار، صحت قائلة، 'ماذا'؟ وشددت يديّ معًا لكي أوقف ارتجافهما. لم أسمع إجابة، لذا استدرت ثانية وتوجّهت إلى أم جميل مباشرة.

'أم جميل، الحدّاد صالح هنا، أعني هناك في السيّارة، لكنّه يبدو، أعني عدّته تبدو، أعني أنّه وعدّته يثيران الارتياب. لقد أحضرته لإصلاح باب أم سليم لكن لا أعتقد أنّنا سنصلح بابها اليوم. ربما نفعل ذلك عندما يرفعون منع التجوّل مرّة ثانية، أعني عندما يرحلون، عندما ينسحبون من المقاطعة. لا يهمّ إذا أرادوا أن يسرقوا، لا بأس فذلك أفضل من أن نُقتل، أعني أفضل من أن نصاب بجراح أو حتى نستجوب، أو نسجن أو نتّهم بأعمال إرهابيّة. تعلمين أنّ العدّة تثير الارتياب. والقناع، على وجه التحديد، وكذلك مكنة اللحام تبدو مثل «القسّام ١»، أم هل هو «القسّام ٢»؟ لقد جئنا لإصلاح الباب، لكن الأمر بأكمله أصبح معقّداً جدًّا ومثيراً للارتياب وخطيراً جدًّا...'. قاطعت أم جميل سيل غمغماتي.

'سعاد، أي عدّة وأي أسلاك، وأي قناع'؟

عندما أدركتْ أم جميل الحالة التي أنا فيها، قالت بطريقتها الهادئة المعهودة، 'لا بأس يا سعاد، ربما في وقت آخر'.

عدت إلى السيّارة بإحساس كبير بالإنجاز، بل وإحساس أكبر بالارتياح. 'لا بأس يا صالح، ربما في وقت آخر'، قلت مستعيرة ثقة أم جميل الهادئة. أوصلت صالح إلى مشغله. أخرج العدّة من صندوق السيّارة. ولا أزال أذكر تعبير الحيرة والاندهاش الذي ارتسم على وجه صالح في مرآة السيّارة عندما ابتعدت.

ـ ١٤ ـ

نابلس ـ اللقاء الذي لا يُطاق

I

جدّتي النابلسيّة

كنّا نقود السيّارة في زيارة العمل الأسبوعيّة التي نقوم بها إلى مدينة الخليل القديمة. فيما كان فرحات وفداء وخلدون يقهقهون في المقعد الخلفيّ. قال نظمي محتجًّا كعادته بصوته الساخر: 'لم ألتقِ بأحد لديه عدد من الجدّات مثلك يا سعاد. كم يبلغ عددهن؟ لنعدّهن: واحدة من نابلس، وواحدة من يافا، وواحدة من دمشق، وواحدة من الخليل، وواحدة من اسطنبول...آه...و...'.

وأضفت متباهية وأنا أضحك ملء شدقيّ، 'وواحدة من عرّابة'.

قلت مازحة: 'اسمع يا نظمي، تلك التي من اسطنبول هي جدّتي العليا، وبخلاف ذلك لديَّ جدّتان فقط، واحدة من طرف أمي وواحدة من طرف أبي. وكلاهما توفّيتا قبل أن أولد، لكنّهما جاءتا بطريقة ما من خمسة أو ستّة أماكن مختلفة، لذا ما هي مشكلتك بالضبط'؟

أدرك أنّ ذلك قد يكون مفهومًا صعبًا بالنسبة لشخص مثل نظمي، هاجرت عائلته من الخليل إلى القدس قبل نحو مئتي عام، وما زالت عائلات القدس «الأصليّة» ترفض الاعتراف بأنّهم «مقدسيّون». والأدهى من ذلك أنّهم هم يعتبرون أنفسهم «خلايلة». المشكلة أنّ نظمي لا يبلغ مئتي سنة من العمر، لكنّه يتصرّف كأنّه كذلك!

قال بصوت المؤرّخ المستعلي: 'لا بأس يا سعاد، أصدّقك إذا أصررت على ذلك. عليّ كمؤرّخ أن أحترم التقاليد والتاريخ الشفهي للناس'.

'تقصد التاريخ الخيالي'.

'سمّه ما شئت'.

'إذًا دعني أشرح لك ذلك'.

’لا، بالله عليك لا تفعلي، أصدّق ما قلته والله. وعلى أي حال، الطريق تستغرق ساعتين فقط إذا كنّا محظوظين عند الحواجز، وقصص جدّتك النابلسيّة وحدها تحتاج إلى خمسة حواجز أو ستّة وليس أمامنا سوى ثلاثة اليوم، ربما في يوم آخر‘.

’حسنًا، في الرحلة القادمة‘.

سمعت عدداً من تنهدّات الارتياح، بعضها صادر من وراء المقود، وأخرى من المقعد الخلفيّ.

II

تدمير البلدة القديمة إلى نابلس

٣ نيسان ٢٠٠٢

كنت مضطجعة على الأريكة في غرفة الجلوس، مستمتعة بالهدوء وقت قيلولة حماتي. وكانت قراءة قصّة «الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ» تستحوذ على انتباهي عندما التقطت عيني شاشة التلفزيون.

خار قلبي ثانية عندما شاهدت إشارة ’خبر عاجل‘ تظهر على شاشة الجزيرة. وظهر معها وليد العمري، كبير مراسلي الجزيرة في فلسطين، بوجه شاحب يقدّم تقريراً من رام الله المحاصرة.

'يُخشى أن يكون ثلاثة عشر شخصًا من عائلة الشعبي قد قضوا تحت أنقاض منزلهم في حيّ الياسمينة بالبلدة القديمة من نابلس. ويحاول جيرانهم جاهدين إنقاذهم على الرغم من منع التجوّل الذي فرض على المدينة في الأيام الثمانية الأخيرة' . وتابع العمري بصوته الرزين: 'ولليوم الثامن على التوالي، يدور قتال ضارٍ في البلدة القديمة من نابلس. وقد نجحت المقاومة الفلسطينيّة حتى الآن في منع الجيش الإسرائيليّ من التقدّم في الأزقّة الضيّقة لأحياء البلدة القديمة. ويُخشى أن يكون العديد من المقاتلين الفلسطينيّين بالإضافة إلى المدنيّين قد استُشهدوا. وقد قصفت المقاتلات الإسرائيليّة أحياء البلدة القديمة. ونتيجة لذلك، انهار العديد من المباني التاريخيّة، ومن بينها الخان العثمانيّ الذي يعرفه السكّان المحليّون باسم الوكالة الفرّوخيّة. وسوّي مصنع صابون النابلسي بالأرض، لكي تتمكّن الدبّابات الإسرائيليّة من دخول الأزقّة الضيّقة للبلدة القديمة. ولحقت بالكنيسة الأرثوذكسيّة ومسجد نصر أضرار فادحة' .

قفزت وصحت بأعلى صوتي، 'يا إلهي، لا' ! وضربت براحة يدي على الطاولة الرخاميّة أمامي. 'يا إلهي، ليس مصنع الصابون! متى سينتهي هذا الكابوس؟ متى سيتوقّفون عن تدمير مبانينا التاريخيّة، ويمسحون تراثنا الثقافيّ' ؟

بدأت أجوب في البيت بعصبيّة، متذكّرة زيارتي الأخيرة إلى مصنع صابون النابلسي. فقد راقبت حركات راحتي العامل

الرائعة والسريعة وهو يلفّ مكعّبات صابون زيت الزيتون الخام، والرجل الموجود خلفه وهو يحرّك يده إلى أعلى وأسفل لختم شعار النابلسي على الصابون. وطالما فتنني صبّ كميّات الصابون الضخمة لتشكيل أرضيّة لامعة وزلقة، وتقطيع الأرضيّة الزلقة إلى مكعّبات صغيرة، وتكديس هذه المكعّبات في أهرامات مخروطيّة مرتفعة.

بدأت أفكّر كيف طارت أهرامات الصابون الجميلة، التي أذكرها منذ طفولتي، في الهواء عندما قصفت طائرات F16 الغرف المقنطرة التي تنتصب فيها. لا شكّ في أنّ مكعّبات الصابون التي صنعت ذات يوم أجمل التشكيلات الفنيّة على الإطلاق، والمكعّبات الحجريّة التاريخيّة التي تضمّها، أصبحت الآن كومة من الأنقاض.

فجأة تذكّرت أنّه كان أولى بي التفكير في أفراد عائلة الشعبي الثلاثة عشر المدفونين تحت الأنقاض، فشعرت بخجل شديد.

مسحت عينيّ وأنفي بظاهر يدي وعدت إلى الأريكة في غرفة الجلوس لمشاهدة بقيّة الأخبار.

لقد سوّى الجيش الإسرائيليّ بالأرض ما يقارب أربعمئة وعشرين قرية فلسطينيّة منذ سنة ١٩٤٨: ساريس، وبيت جبرين، وبيت نتيف، وعلار، وقالونيا، والولجة، وعمواس... بالإضافة إلى

حيّ المنشيّة في يافا، وحارة المغاربة في البلدة القديمة بالقدس، ومئات المنازل «غير المرخّصة» حول القدس الشرقيّة، وعشرات المنازل في خان يونس ومئات الآلاف من أشجار الزيتون والنخيل، والآن حيّ الياسمينة في نابلس، وغداً، من يدري؟ ربما الحيّ التاريخيّ في الخليل.

شارون، إنّك توقظ فينا أسوأ كوابيسنا.

III
الأميرات الثلاث

١٤ أيار ٢٠٠٢

'أكثر ما أخرجني عن صوابي كان قتل الحصان، أطلق الجنديّ الرصاص عليه بدون سبب يذكر'، قال سائق سيّارة الأجرة التي تقلّنا إلى نابلس، بعد بضعة أيام من انسحاب الجيش الإسرائيليّ من قلب المدينة.

'صدّقوني بكيت، مع أنّه حصان جاري لا حصاني'. اختنق صوته وعاد بعد بضع ثوانٍ: 'كانت المرّة الأولى التي تراني فيها زوجتي أبكي'.

'أجل، أعلم ما تقصده بالضبط'، أجبته وأنا متعاطفة معه تمامًا، لكنّني لم أجرؤ على مشاركته، أو مشاركة الآخرين في

سيّارة الأجرة، أفكاري المذنبة ومشاعري بشأن دمار المباني التاريخيّة القديمة في نابلس وعائلة الشعبي.

'تعرفون أنّني لا أستطيع أن أوصلكم إلى نابلس، لكن يمكنني أن أقلّكم إلى بورين، حيث يمكنكم أن تسيروا إلى أعلى التلّة للوصول إلى المدينة في نحو ثلاثين دقيقة'.

'نعلم بالطبع، فنحن على الطريق، أو خارجه بدقّة أكبر، منذ الساعة الثامنة صباحًا؛ وقد مضى ثلاث ساعات حتى الآن. بدأنا رحلتنا بالمشي عبر حاجز صردة، ثمّ التلال الترابيّة قرب مبنى الجوّال وقرية دورا القرع؛ تلك هي الأسوأ، فقد حفر الجيش الإسرائيليّ الطريق وأجزاء من بساتين الزيتون، وأقام سواتر ترابيّة هائلة يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار على الأقل'، أوضح مهنّد، منسّق أنشطة رواق.

'نعم أعلم'، أجاب السائق.

تابع مهنّد، 'وكان هناك صبيّان مختونان حديثًا، ربما كانا في الثالثة أو الرابعة من العمر. كانا يرتديان جلابيّتهما البيضاوان الجديدتان وقبّعتين مطرّزتين بالأبيض والأحمر. المسكينان، كانا يجرّان نفسهما خلف أمّهما وهما يبعدان الجلابيّة عن جسمهما الغضّ، هكذا'، وأوضح مهنّد الصورة بجذب قميصه بعيداً عن جسمه. قهقهنا أنا ويارا وسحر وبهاء باستحياء في المقعد الخلفيّ.

كاد السائق أن يوقف السيّارة، ونظر إلى مهنّد وقال بانفعال، 'اسكت... اسكت يا زلمة، والله اللي منشوفه من الإسرائيليّة كل يوم جهنّم'.

بدا الجوّ مثل الجنّة بالنسبة إليّ. كان يومًا ربيعيًّا جميلاً مشمسًا وباردًا. طالما أحببت الطريق بين رام الله ونابلس. تابعت سلوك الطريق الرومانيّة القديمة، مع أنّ معظم السائقين المحليّين يفضّلون، عندما يُسمح لهم، سلوك طريق المستوطنين السريع المشقوق حديثًا.

وبعد أن حفر الجيش الإسرائيليّ الطرقات الفلسطينيّة، فإنّنا مجبرون على سلوك الدروب الترابيّة الملتوية التي تمرّ عبر الحقول والتلال والمروج ومجاري الأنهار.

بدت المناظر الطبيعيّة من حولنا أجمل من أي وقت مضى.

بدأت أشعر بأنّني واحدة مع الطبيعة، حيث تسلّل صفاء المشهد الطبيعيّ حولنا عبر النافذة الخلفيّة. تنقّلت عيناي بين التربة البنيّة المحمرّة لجلول الزيتون المحروثة حديثًا، والبراعم البيضاء والزهريّة لبساتين الفاكهة، والخشخاش الأحمر المحاذي لجانبي الطريق الترابيّ، وحقول القمح الذهبيّة الواسعة، وغير المحروثة حتى الآن، وأزهار الرتم الصفراء الزاهية تحت أشجار السنديان الكبيرة.

يا إلهي، كم أنت جميلة يا فلسطين.

كنّا نسلك حقل القمح الذهبيّ عندما علقت السيّارة.

'أخرجا النساء، وادفعا السيّارة من الخلف وسنكون على ما يرام'، قال السائق للرجلين، مهنّد وبهاء، بصوت واثق وهو جالس خلف المقود.

'يا له من سائق شوفينيّ'، قالت يارا بصوت خفيض نزق، عندما خرجت من المقعد الخلفيّ للسيّارة.

'مهلاً يا يارا، إنّه ليس بالأمر المهمّ. اذهبي وادفعي السيّارة معهما إذا شئت'. عليّ أن أعترف أنّني أحبّ كوني امرأة في لحظات مثل هذه. مع ذلك أشفقت على مهنّد وبهاء. وكلما جدّ الاثنان في الدفع، التقطنا نحن النساء مزيداً من الصور الفوتوغرافيّة.

بعد ذلك جلسنا على مقعد السيّارة الخلفيّ، مثل ثلاث أميرات. كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما بدأنا نحن الخمسة مسيرة النصف ساعة إلى أعلى التلّة لبلوغ نابلس.

'أسرعوا، أمامنا ساعتان فقط لرؤية الدمار في البلدة القديمة قبل أن نعود إلى رام الله'، قال القائد مهنّد وهو يتقدّم الطريق إلى أعلى التلّة.

أجبت فيما أجرجر قدميّ على الدرب الصخريّ الشديد الانحدار، 'يمكننا دائمًا النوم في نابلس'.

توقّف مهنّد قليلاً.

'أتعرفين شيئًا يا سعاد، منذ أن ولد ابني مارسيل قبل ثمانية أشهر، أخشى النوم بعيداً عن البيت، فالمرء لا يعرف ما قد يحدث. ولا تحبّ فدوى ذلك أيضًا'.

قلت مناكفة، 'هل تحاول إقناعي بأنّ زوجتك ما زالت تحبّك'؟

'لا، إنّني جادّ يا سعاد، صرت جبانًا مذ أصبحت أبًا ولا أدري لماذا ـ لا أعرف كيف أشرح ذلك'.

'أجل، ألق اللوم على مارسيل'، قال بهاء.

طاخ... طاخ... طاخ.

تجمّد مهنّد في مكانه وسأل، 'هل تسمعون إطلاق رصاص'؟

'نعم'، قلت وأنا أرتجف.

وأضاف بهاء، 'طبعًا'.

وقف بعضنا ساكنًا، واختبأ بعضنا الآخر خلف الصخور.

'أترون ما أقصد'؟ قال أبو مارسيل عندما اختبأ إلى جانبي. وجثونا كلانا تحت صخرة كبيرة.

تواصل إطلاق الرصاص.

حاولت إخفاء خوفي المتنامي، فيما الرصاص يقترب ويزداد كثافة.

'ما رأيك يا مهنّد؟ هل نعود أدراجنا'؟ قلت بصوت مرتجف. كنت آمل حقًّا أن يفكّر في الصغير مارسيل ويقول 'نعم'. وربما لذلك سألت مهنّد لا يارا، التي كانت تتقدّم الطريق الآن إلى أعلى التلّة.

'هيّا بنا'، قالت يارا، إحدى الأميرات الثلاث، بصوت جازم، فيما تتابع السير بثبات إلى أعلى التلّة.

تبادلنا النظرات أنا ومهنّد. ونهضنا متردّدين ورأسينا منحنيين وتبعنا يارا.

'لا أعتقد أنّ سائق سيّارة الأجرة سيكون فخوراً إذا شاهد أحد رجليه الكبيرين مختبئًا'، قالت يارا لمهنّد شبه هازلة.

عندئذٍ فقط أدركت من تعليق يارا الجارح قليلاً كم تأثّرت يارا بملاحظة السائق. أهمل مهنّد تعليق يارا. وبعد بضع دقائق نظر إليّ وقال، 'حسنًا، ابني مارسيل هو عذري لكي أكون جبانًا ـ فما هو عذرك يا سعاد'؟

'كلبتي الصغيرة نمّورة، لكن رجاء لا تخبر سليم'، أجبت مطلقة ضحكة كبيرة.

اشتدّت حدّة إطلاق الرصاص.

هذه المرّة اختبأت أنا ومهنّد تحت صخرتين مختلفتين.

'يجب أن يشتري مركز رواق لموظّفيه بوليصة تأمين جيّدة على الحياة قبل أن يرسلهم في مثل هذه المهمّات'، علّق بهاء ساخراً من وراء صخرة ثالثة.

'تراجعوا، تراجعوا، إنّهم يطلقون الرصاص علينا'، صاح حشد من الأشخاص الذين يهبطون التلّة متعثّرين.

'ليس الجنود الإسرائيليّون فحسب الذين يطلقون النار علينا، بل المستوطنون أيضاً'.

'أكثر ما يخيفني المستوطنون'، قال فتى يمسك بيد أمّه، وأضاف، 'إنّهم «وسخين»'.

وفيما تواصلت زخّات الرصاص في السماء، تدحرج المزيد من الأشخاص إلى أسفل التلّة.

قال شابّ إلى صديقه، 'اللعنة عليهم، هذا ثالث يوم أحاول فيه الوصول إلى الجامعة في نابلس، لقد فاتني كثير من المحاضرات'.

'تقصد القول إنّ جامعة النجاح مفتوحة'؟ سألت الشابّ المختبئ بقربي.

'نعم، إنّهم يدرّسون منذ ثلاثة أيام ولا أستطيع الوصول إلى هناك. أحاول كل صباح السير عبر تلال مختلفة ودروب ترابيّة مختلفة، بس العرصات دايماً هناك ويطلقون الرصاص علينا.

البارحة قتلوا عاملاً من برقين فيما كان يحاول الوصول إلى عمله في نابلس'.

'هل أنتم من نابلس'؟ سأل أحد طلاب جامعة النجاح.

'لا، لقد قدمنا من رام الله'.

'أفّ، من رام الله وتحاولون الوصول إلى نابلس؟ لماذا'؟

أجبت بشكل غير مقنع، 'نريد أن نشاهد الدمار الذي حلّ بالمباني التاريخيّة في البلدة القديمة'.

'هل أنتم من عائلة الشعبي؟ هل تعرفون أيًّا من الأشخاص الذين قتلوا؟ هل أنتم أصدقاؤهم؟ قتل ستة وسبعون شخصًا في نابلس، وقد يكون هناك المزيد تحت الأنقاض، الله أعلم'.

رنّ هاتفي المحمول.

'مرحبًا يا سليم، نعم نحن على مقربة من نابلس... لا ليس في نابلس... نعم، أعرف، لزمنا وقت طويل للوصول إلى هنا، وها هم الإسرائيليّون الآن يطلقون الرصاص على من يحاول صعود التلّة للوصول إلى نابلس... نعم، لا تقلق، زوجتك جبانة بكل تأكيد... لا، لا، لن نجازف حتمًا. معي أيضًا أربعة موظّفين من رواق، وإذا قُتلوا لا سمح الله، فلن يبقى أحد لحماية المباني التاريخيّة المتبقّية في فلسطين. أريد حقًّا مشاهدة المباني المدمّرة هناك. لقد رفعت بلديّة نابلس بالفعل معظم أنقاض المباني في

أثناء البحث عن الجثث، مع ذلك يتعيّن علينا أن نراها. لا تقلق، سأتصل بك عما قريب'.

كان الطالبان الشابّان، بالإضافة الى كثير غيرهما، يحدّقان بي.

طاخ طاخ طاطاطاطا طا طا طا.

'وبعدين...'! لجأت يائسة إلى مشورة يارا.

'دعونا ننتظر، ربما يهدأ إطلاق النار'.

قال بهاء، 'لماذا لا نتظاهر بأنّنا نتنزّه في بساتين الزيتون الرائعة'؟

استمعنا إلى نصيحة بهاء. جلسنا تحت أشجار الزيتون، وأخرجنا الماء الذي نحمله، وأشعلنا سجائرنا.

كان بوسعنا سماع إطلاق الرصاص من بعيد.

'هيّا بنا نعود إلى بيوتنا'، قال مهنّد.

تحدّته يارا قائلة، 'من المؤسف أن نقطع كل هذه المسافة سدى'.

قال بهاء بهدوء، 'دعونا ننتظر نصف ساعة أخرى'.

أضاف مهنّد، 'ستظلم عمّا قريب، تذكّروا أنّنا بحاجة إلى ثلاث ساعات أخرى للعودة إلى رام الله'.

قالت سحر، 'بالمناسبة، قال سائق سيّارة الأجرة إنّه قد يكون هناك طريق ترابيّ آخر إلى نابلس. يمكنه محاولة إيصالنا من هناك إذا قرّرنا ذلك'.

'لا... دعونا نتخلّى عن هذا الأمر'، قال مهنّد.

'لا... لننتظر'، أصرّت يارا.

بقيت هادئة، إذ أخذت أشعر بالإنهاك والكآبة. وكنت آمل حقًّا أن يتخلّوا عن المتابعة.

لم أجرؤ على التعبير عن مشاعري الحقيقيّة تجاه الرحلة. سيكون من المستغرب بالتأكيد الاعتراف بأنّني لم أشأ الذهاب إلى نابلس. وأنا أهاب هذه الرحلة منذ أكثر من أسبوع. لا شأن لإطلاق الرصاص بذلك - بل إنّ إطلاق الرصاص منحني عذراً جيّداً للعودة.

حقيقة الأمر أنّني شعرت بالارتياح لأنّ عذاب هذا اللقاء الذي لا يُطاق وصل إلى نهايته أخيراً.

ملأني تدمير البلدة القديمة في نابلس بالمشاعر المرعبة نفسها التي شهدتها في أثناء اللقاءين السابقين غير المحتملين في حياتي: موت والدي وتجنّب البحث عن منزل عائلتي في يافا.

- ١٥ -

السيّد الرئيس

مكتبة
t.me/soramnqraa

١١ أيلول ٢٠٠٢

فرض الجيش الإسرائيليّ اليوم منعًا للتجوّل على المدينتين التوأمين رام الله - البيرة مثلما فعل يوم الجمعة الفائت، والأحد الفائت، والاثنين الفائت، وكما سيكون الحال يوم الجمعة القادم والأحد القادم. غير أنّنا محظوظون جدًّا مقارنة بمدينة نابلس التي تخضع لمنع التجوّل منذ اثنين وتسعين يومًا دون انقطاع.

كنت جالسة في الحديقة أقرأ عندما بدأتْ أحلام اليقظة. تخيّلت أنّ السيّد بوش، على الرغم من جدول مواعيده المزدحم بالقصف، خصّص خمس عشرة دقيقة من استراحة قهوته البالغة

سبع ساعات ونصف الساعة لتلقّي مكالمات هاتفيّة دوليّة مباشرة في محاولة مستحيلة لتحسين صورته العالميّة.

بحماسة عظيمة، اتصلت برقم الرئيس ١١١–١١١–٠١. رنّ الهاتف مرّة واحدة وردّ عليّ صوت أنثويّ.

قلت بتلهّف، 'أيمكنني التحدّث إلى السيّد پوش (Push)'؟

'تقصدين الرئيس بوش، يا سيّدتي'.

'آسفة جدًّا، لكن كما تعرفين يوجد مشكلة لدى معظم الفلسطينيّين في لفظ حرفي بي وپي'.

'لا عليك ـ ها هو رئيس الولايات المتحدة'.

بذلت جهداً كبيراً في التركيز، وقلت، 'مرحبًا سيّدي الرئيس. صباح الخير'.

'صباح الخير'، ردّ الرئيس بصوت واثق وصرّار. 'كيف يمكنني أن أساعدك يا سيّدتي'؟

'سيّدي الرئيس، اسمي سعاد العامري وأنا أتحدّث إليك من رام الله'.

'من أين'؟

'رام الله... لكن دعك من ذلك سيّدي الرئيس، لقد اتصلت بك لأعلمك أنّ إسرائيل فرضت علينا منع التجوّل (curfew) منذ...' فقوطعت على الفور.

'إسرائيل (carefree)، نعم، حرّة، أعرف ذلك، أبلغني مستشاريّ أنّ إسرائيل هي البلد الديمقراطيّ الوحيد الحرّ في العالم - أعني وأميركا أيضاً'.

'لا... لا... سيّدي الرئيس، لم أقصد ذلك'. أعدت القول بصوت مرتفع وببطء، سيّدي الرئيس، إسرائيل... وضعتنا... **نحن الثلاثة ملايين ونصف المليون فلسطينيّ... رهن الاحتجاز** (هاوس أرّست house arrest)'.

'نعم راحة (رست rest)'؟

'حبس منزليّ... **أرّست**، سيّدي الرئيس'. لا بدّ أنّ الخطوط الهاتفيّة سيّئة. إذ دمّر الجيش الإسرائيليّ البنية التحتيّة بأكملها. لذا كرّرت، 'أ... رّ... س... ت، هل فهمت سيّدي الرئيس'؟

'أتظنّين أنّ رئيس العالم لا يعرف كيف يهجئ كلمة رست'؟

'لكن سيّدي الرئيس، هذا الحبس (**أرّست**) مستمرّ بشكل متقطّع منذ خمسة أشهر تقريباً، منذ ٢٩ آذار ٢٠٠٢'!

'لقد سمعت الأخبار على الراديو، يا سيّدتي، وهي تتحدّث عن إقامة دولة فلسطينيّة مستقلّة في سنة ٢٠٠٥. لذا لِمَ لا تسترخوا في هذه الأثناء وتأخذوا بعض الراحة (رست)'؟

’لمَ لا يا سيّدي‘ ؟ وجدت نفسي متفقة معه، لكن شعرت بأنّ عليّ أن أضيف شيئًا، لذا قلت، ’لكن ربما يجدر بك أن تعلم، يا سيّدي الرئيس، أنّه لا توجد فرص عمل، وثمة بطالة مرتفعة غير مسبوقة، والفلسطينيّون جائعون، جائعون جدًّا يا سيّدي‘ .

’أبلغي شعبك أنّه إذا أراد أن ينضمّ إلى العالم الحرّ، فإنّ عليه أن يتحلّى بالشفافيّة التامّة، وعندما أقول شفافيّة فإنّني أعني ما أقول، يا سيّدتي‘ .

’أنت لا تقصد شفافيّة مع الجوع، سيّدي الرئيس؟ أنت تطلب من السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة أن تكوّن شفّافة، لا الشعب‘ !

’أعني ما أعنيه‘ . ساد صمت طويل، ثمّ بعض الهمس، قبل أن يضيف الرئيس، ’اسمعي أيّتها السيّدة، في المجتمعات الديمقراطيّة الحرّة مثل مجتمعنا لا نميّز بين الشعب والحكومات‘ .

’نعم بالتأكيد، أدرك ذلك سيّدي الرئيس‘ .

فيما كان الرئيس يقفل الخطّ، سمعته يقول لفريقه، ’انتهت استراحة القهوة؛ أخنقوهم بالدخان‘(*) .

* ـ ‘Smoke them out’ عبارة استخدمها بوش عندما أشار إلى قتل رجال طالبان في كهوف جبال أفغانستان.

ـ ١٦ ـ

شارون ومقلاة التيفال

٢٣ أيلول ٢٠٠٢

بدأت القصّة بعد الظهر عندما كنت أحاول جاهدة أن آخذ قيلولة. في الأيام «العاديّة»، أحبّ أن أنام في أي ساعة من النهار إذا أتيحت لي الفرصة. وقد يكون ذلك مصدر توتّر جدّيّ بيني وبين زوجيّ المصاب بالأرق. وغالبًا ما أقفز من السرير مسرعة نحو الأريكة في غرفة الجلوس، وأجلس مستقيمة متظاهرة بأنّني مستيقظة تمامًا، عندما أسمع صوت مفتاح سليم في الباب. لا بدّ أنّ سليم يتساءل عن سبب بطء زوجته وعدم تجاوبها بعد يوم طويل من العمل الشاقّ.

لم أخرج من البيت منذ ١٣ أيلول، عندما فرض الجيش الإسرائيليّ منعًا للتجوّل على رام الله. في الليلة الماضية، بعد

منتصف الليل بقليل، خطوت خارج بوّابة الحديقة للمرّة الأولى في ثلاثة عشر يوماً.

لم يكن لمحاولة أخذ قيلولة في الأمس علاقة برغبتي في النوم (أو بسليم، الذي سافر قبل بضعة أيام من فرض منع التجوّل). بل كانت محاولة غير ناجحة لقضاء بضع ساعات من يوم منع التجوّل الطويل. وربما بدت الأيام طويلة جدًّا لأنّني بمفردي.

تقلّبت في السرير وأنا أفكّر في أم سليم التي علقت مرّة أخرى في شقّتها. فقد أدّى نسف الإسرائيليّين مقرّ عرفات، باستخدام المتفجّرات، إلى جعل أم سليم وحيدة في منزل تحطّمت نوافذه، وتصدّعت شرفته الخرسانيّة، وانتشرت في كل أنحائه شُقف الفخّار من أصص النبات المحطّمة. لم أستطع الوصول إليها بسبب إعلان كل الأحياء المحيطة بالمقاطعة مناطق عسكريّة مغلقة، بالإضافة إلى خضوعها لمنع التجوّل. وقد جدت صعوبة بالطبع وأنا أحاول أن أشرح لأم سليم ما معنى منطقة عسكريّة مغلقة، بالإضافة إلى منع التجوّل.

أجبرت نفسي على التوقّف عن التفكير فيها، إذ لم يكن بوسعي أن أفعل لها شيئًا في تلك المنطقة التي دمّرها الجيش الإسرائيليّ تدميرًا انتقاميًّا.

كنت أحاول جاهدة النوم عندما سمعت صوت قرع مزعج عبر نوافذ غرفة نومي. كان هذا القرع غير المنتظم أسوأ بكثير من

زعيق أطفال الجيران الذين يلعبون في الحديقة الخلفيّة. وغالبًا ما اضطررت إلى أن أمنع نفسي من الخروج والصراخ عليهم بأعلى صوتي، فيما هم يركضون ويصيحون ويتقاتلون ويطلبون من أمّهاتهم أن يكنّ حكّامًا في نزاعاتهم المتواصلة. لكن بعد ثلاثة عشر يومًا من منع التجوّل قرّرت أنّ سماع زعيق الأولاد أفضل من صراخ الأمّهات اللواتي يبحثن عن أي فرصة لإخراج إحباطاتهن الشارونيّة المتصاعدة بالصياح على أطفالهن.

تواصل القرع، ووجدتني أسرع كالمجنونة إلى خارج البيت. رأيت عمر، الطفل الذي يبلغ عمره ثلاث سنوات، حاملاً عصًا كبيرة ويهوي بها بأشدّ ما تسمح به قوّة ولد في الثالثة، على علبة حليب نيدو. نظرت إليه وبدأت أصيح بأعلى صوتي: 'عمر... توقّف من شان الله. هذا القرع يدفعني إلى الجنون. خلص أرجوك'. رفع عمر نظره إليّ وقد شحب وجهه الصغير وارتجفت شفته السفلى، ثم أسرع يشكوني إلى أمه مخلّفًا وراءه العصا وعلبة النيدو. تسلّلت عائدة إلى البيت على عجل خشية أن تظهر لي أمّه.

شعرت بالخجل من نفسي لأنّني صحت على الولد، لكنّ القرع أفقدني صوابي. لم أكن أدرك أنّ خبطات عمر ستكون نقطة انكساري في اليوم الثالث عشر لمنع التجوّل. وباءت بالفشل كل محاولات النوم التي بذلتها عصر ذلك اليوم.

استسلمت ونهضت من السرير، وعدت إلى روتيني المعهود في أثناء منع التجوّل:

شاهدت الأخبار،

صنعت الكثير من فناجين القهوة والشاي،

تفحّصت بريدي الإلكترونيّ للمرّة السابعة،

زرت موقع صحيفة «هآرتز» على الإنترنت،

تابعت قراءة كتاب رجا شحادة، «غرباء في البيت»،

شاهدت مزيداً من الأخبار،

أطعمت نمّورة الصغيرة (أعتقد أنّ نمّورة تستمتع بأيام منع التجوّل لأنّها تحصل على أكثر بكثير من وجبتها الوحيدة المعتادة في اليوم، بالإضافة إلى أنّها تمضي معي وقتًا أطول بكثير من المعتاد)،

أكلت،

خرجت من المنزل إلى الحديقة،

عدت إلى البيت ثانية،

تحدّثت على الهاتف مرّة أخرى؛ وحاولت أن أحلّل الوضع السياسيّ، وطرحت الأسئلة نفسها:

هل ستقع الحرب في العراق؟

هل يطرد شارون عرفات هذه المرّة؟

لماذا هاجم شارون المقاطعة في هذا الوقت بالذات؟ لماذا هذا الهجوم الفظيع الآن؟ هل هو لمنع الإصلاحات المتوقّعة في السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة لتقوية شرعيّة عرفات ومصداقيّته الدوليّة؟

تواصلت الحوارات الهاتفيّة وامتدّت ساعات وساعات. وكان انشغال الخطّ الهاتفيّ يزيد من قلق أمّ سليم.

وغالبًا ما اشتكت إليّ قائلة، 'أحاول الاتصال بك لكنّ خطّك مشغول دائمًا. ألا يكفي أنّني لا أستطيع الوصول بنفسي إليك أو إلى سواك'؟

كلما اتصلت بي أم سليم (وكانت تتصل أكثر بكثير مما قد يخيّل إليك)، كانت تطرح، بعد أن تصف لي كيف يقوم الحيوانات بتدمير المقاطعة، السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا، 'متى تظنّين أنّهم سيرفعون منع التجوّل يا سعاد'؟

'قريبًا يا أمّ سليم'، كرّرت لليوم الثالث عشر على التوالي بالصوت الواثق نفسه، على الرغم من أنّه ليس لديّ أدنى فكرة هل سيكون منع التجوّل مثل ذلك المفروض على نابلس منذ ستة وتسعين يومًا.

دفعتني شدّة الملل إلى النوم في وقت مبكّر نسبيًّا. ولسبب ما لا أعرفه، استيقظت في منتصف الليل. وعندما شعرت نمّورة

الصغيرة بأنّني مستيقظة، أسرعت إلى الباب لكي تحملني على أخذها إلى الخارج لقضاء حاجتها.

بعد دقائق من دخولي البيت ثانية، سمعت ما يشبه صوت إطلاق رصاص من بعيد. توجّهت إلى الخارج بحرص ثانية. بدا الصوت قادمًا من مسافة بعيدة جدًّا. وتردّد صداه في الوديان إلى الغرب من رام الله. وبما أنّني لم أعرف مصدر هذه الأصوات، دخلت البيت ثانية، وشغّلت التلفزيون على قناة الجزيرة على أمل أن يوردوا شيئًا عن إطلاق النار في رام الله، لكن لم يذكروا شيئًا. وعندما اقتربت الأصوات وارتفعت، سمعت الجيران يقولون، 'أخرجوا طناجركم ومقاليكم واقرعوا عليها'.

أسرعت إلى الخارج وشاهدت العديد من الجيران في الشارع.

سألت، 'طناجر ومقالٍ'؟

'طناجر... طناجر'! قال سري ابن الجيران ضاحكًا.

'طنجرة فارغة'؟ سألت وأنا نصف نائمة.

'طنجرة مع مجدّرة تفي بالغرض أيضًا'، أجاب سري وأطلق ضحكة أكبر.

وقالت هيفاء، 'أو لبن إمّو (لبن مطبوخ) أحسن'.

قلت بعـــد أن أدركت أنّني في علم ولست في حلم، 'حسنًا... حسنًا، فهمت'.

توجّهت إلى البيت بحماسة شديدة، وأسرعت إلى المطبخ ففتحت الخزانة وأخرجت أكبر مقلاة تيفال لديّ ثم أسرعت في الخروج إلى الشارع. عندما مررت في غرفة الجلوس، نظرت إلى الساعة - كانت قد تجاوزت منتصف الليل.

يا إلهي! لماذا يبدأ الفلسطينيّون عصيانهم المدنيّ في وقت متأخّر من الليل؟ لا بدّ أنّها القيلولة الطويلة التي يأخذونها يوميًّا منذ ثلاثة عشر يومًا. انضممت إلى الحشد القارع في الحيّ، وسرعان ما تبيّن لي أنّني نسيت ملعقة الطرق. اعتقدت بأنّني لست ملائمة لمثل هذا النوع من المقاومة السلميّة.

لم يمض وقت طويل حتى اندمجت في الأمر. قرعت وصحت وضحكت، فيما كنت أراقب أحد الجيران وهو يتسلّق إلى سطح أحد المباني ليبدأ القرع على خزّان الماء المعدنيّ؛ وآخر يقرع على عمود الكهرباء، وثالثًا على حاوية القمامة. بدا المشهد كأنّه في مستشفى للمجانين. وفكّرت بأنّنا حتى إذا لم نبعث بذلك رسالة إلى شارون وجيشه المحتلّ، فإنّه سيكون علاجًا جماعيًّا عظيمًا.

كنت لاهثة ومستغرقة تمامًا في القرع على مقلاة التيفال نصف المنبعجة، عندما ظهر عمر بلباس نومه الزهريّ وهو يفرك عينيه الناعستين. جاء راكضًا نحوي وسأل:

’خالتو... لماذا يُسمح بالقرع في وقت متأخّر من الليل‘؟

ضاعت الكلمات منّي لحظات، لكن سرعان ما ضحكت وضحكت، وعانقت عمر الصغير وقلت: ’حبيبي عمر، أنا آسفة حقًّا... لمَ لا تسرع وتأتي بعلبة النيدو‘؟

عاد عمر إلى علبة النيدو المهجورة، والتقط العصا الخشبيّة، وبدأ يقرع والابتسامة تعلو وجهه الجميل.

بعد ساعة أو نحو ذلك، عندما انتهى كل شيء، عدت إلى البيت منهوكة القوى.

وفيما كنت أوشك أن أنام، تساءلت إذا كان عمر الصغير واحداً من القيادة السريّة الجديدة الشابّة والخلاّقة لحركة العصيان المدنيّ الفلسطينيّ المتنامية!

- ١٧ -

عشرة أيام من الاسترخاء في مصر

٣٠ أيلول ٢٠٠٣

كنت أعبر جسر أللنبي مع زوجي وزملاء ـ العمل في رواق. وكنّا عائدين للتوّ بعد عشرة أيام رائعة ومريحة في القاهرة وشرم الشيخ بعيداً عن فلسطين المرهقة.

لزم مهنّد شهر واحد من العمل الشاقّ على الأقل لاستخراج كل وثائق السفر والتصاريح والفيز المطلوبة لموظّفي رواق الاثني عشر وأزواجهم وأطفالهم ـ ما مجموعه اثنان وعشرون شخصاً. وعلى الرغم من أنّنا 'مجموعة منسجمة وطنيًّا' (كلّنا فلسطينيّون نعيش تحت الاحتلال)، فإنّ لدينا سبع وضعيّات قانونيّة على الأقل فيما يتعلّق بوثائق السفر:

فلسطينيّون من الضفة الغربيّة يحملون جوازات سفر فلسطينيّة؛

فلسطينيّون من الضفّة الغربيّة يحملون جوازات سفر دبلوماسيّة فلسطينيّة VIP؛

فلسطينيّون من الضفّة الغربيّة يحملون جوازات سفر أردنيّة؛

فلسطينيّون من القدس (وهم مقيمون في إسرائيل لكنّهم ليسوا مواطنين إسرائيليّين) يحملون وثائق سفر إسرائيليّة؛

فلسطينيّون من «فلسطين ١٩٤٨» يحملون جوازات سفر إسرائيليّة؛

فلسطينيّون من الضفّة الغربيّة يحملون جوازات سفر كنديّة؛

فلسطينيّون من غزة يعيشون في الضفّة الغربيّة ويحملون جوازات سفر فلسطينيّة.

الفئة الوحيدة التي لم تكن بيننا هي فلسطينيّون يعيشون في قطاع غزة ويحملون جوازات سفر فلسطينيّة.

كان كل واحد من هؤلاء بحاجة إلى نوع من الترتيبات الخاصّة ونوع خاصّ من تصاريح السفر، لا بين رام الله وعمّان

والقاهرة فحسب، وإنّما أيضًا بين رام الله ـ حاجز قلنديا ـ حاجز أريحا ـ استراحة أريحا (لا أدري لماذا تسمّى استراحة، إنّها أشبه بالجحيم) وجسر أللنبي.

وبما أنّ اثنتين فقط من الفئات المذكورة أعلاه يحقّ لها استخدام مطار تل أبيب، لم يكن أمامنا خيار سوى السفر إلى القاهرة عن طريق عمّان. ومعظمنا، لا كلّنا، يحتاج إلى إذن من وزارة الداخليّة الأردنيّة، على الرغم من أنّنا مسافرون عابرون إلى القاهرة من الناحية التقنيّة.

ومعظمنا، لا كلّنا، بحاجة إلى فيزا سياحيّة للذهاب إلى القاهرة. ومعظمنا، لا كلنا، يحتاج إلى 'تصريح للحواجز' من الحكم العسكريّ في بيت إيل قرب رام الله. ويتيح هذا النوع من التصاريح للمرء عبور بعض لا كل الحواجز البالغ عددها ٣٢٠، والتي تشكّل الكانتونات الفلسطينيّة في الضفة الغربيّة، لكنّها لا تسمح بدخول القدس أو غزة. وتحتاج لهذه الغاية إلى نوع مختلف من التصاريح يتعذّر تقريبًا الحصول عليه.

وكان معظمنا، لا كلّنا، بحاجة إلى حجز مسبق قبل شهر في الحافلة التي تقلّهم من استراحة أريحا عبر النهر إلى الأردن. تستغرق هذه الرحلة أربع أو خمس ساعات، في حين أنّها تحتاج إلى عشر دقائق في الظروف العاديّة. وتحتاج الحافلة إلى حجز مسبق إذ لا يسمح سوى لحمولة ثلاث حافلات

(١٢٠ مسافراً) بعبور الجسر الآن - في حين كان يعبر الجسر إلى الأردن ما يصل إلى ٥٠٠٠ شخص قبل الانتفاضة(*). وبعضنا، لا كلّنا، انتظر ثلاث ساعات في مطار القاهرة قبل السماح له بالدخول.

كلّنا، لا بعضنا، قضينا وقتًا ممتعًا في القاهرة وشرم الشيخ. وكان أكثر ما استمتعنا به التمكّن من التنقّل بحريّة والسهر حتى وقت متأخّر من الليل. وقد تبيّن لنا أنّنا نسينا تمامًا ما تعنيه الحياة العاديّة.

الحمد للّه على السلامة

عندما وصلنا إلى حاجز قلنديا (وهو واحد من أربعة حواجز عند مداخل رام الله الأربعة)، لقينا ترحابًا حارًّا من الجنود الإسرائيليّين. فقد اضطررنا إلى النزول من سيّارة الأجرة التي أقلّتنا من أريحا، إذ لا يسمح لها بعبور حاجز قلنديا، وتحميل حقائبنا الكثيرة في كرّوسة (مركبة بدوّاسات). قلت، 'يا له من استقبال لطيف'. وفجأة شاهدنا جنديًّا إسرائيليًّا يركض وسط مئات من الفلسطينيّين المنتظرين لدخول رام الله أو مغادرتها. وفي أثناء الجري، كان الجنديّ يصوّب بندقيّته في كل اتجاه، ما دفع عشرات

* - انتفاضة أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ التي جاءت كردّ فعل على قيام شارون بزيارة الحرم الشريف في القدس الشرقيّة.

الفلسطينيّين إلى الاختباء خلف أي جسم يجدونه: خلف السيّارات، وخلف العربات في حالتنا، ورمى الفلسطينيّون الأكثر حذراً أنفسهم على الأرض. واصل الجنديّ إطلاق النار (والحمد لله في الهواء حتى الآن)، إلى أن فتح باب حافلة صغيرة متوقّفة في الطريق، وأمسك بفتى في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر وجرّه إلى قفص حديديّ صغير مخصّص للفلسطينيّين «المشاغبين». وسرعان ما نسينا أمر الفتى، مثل بقيّة الفلسطينيّين حولنا، وعدنا إلى ما كنّا نقوم به: نساوم الصبيّ سائق العربة على الخمسة عشر شيكلاً (ثلاثة دولارات) التي طلبها.

وخلال أقل من بضع ساعات، تبدّد كل ما حملناه معنا من رحلتنا الاستجماميّة إلى مصر، سوى البرونزاج (السمرة) الذي اكتسبناه في شرم الشيخ.

ـ ١٨ ـ

وجهة نظر لبوة

الأحد ٢٦ تشرين الأول ٢٠٠٣

'نمّورة... هل تريدين نونو (قضاء حاجتك)'؟

أسرعتُ نحو الباب. جرجرتُ قدميّ نصف نائمة لفتحه، فركضتُ نحو الحديقة. وفيما كنت أحضر قدحين كبيرين للشاي بالحليب، سمعت إطلاق نار من حاجز صردة على بعد أقلّ من كيلومتر واحد. حملت القدحين وذهبت إلى السرير. وعادت نمّورة أيضًا إلى فراشها قرب سريرنا. كان سليم يستمع إلى الأخبار وعيناه مغمضتان.

مشيت على رؤوس أصابعي وأنا أختار ملابسي. كنت بحاجة إلى ملابس أنيقة في ذلك الصباح، إذ سأظهر على التلفزيون

الأميركيّ، في محاولة يائسة لإقناع مشاهدي برنامج «٦٠ دقيقة» الذي يقدّمه بوب سايمون على قناة سي بي إس بالتأثير الرهيب الذي يُحدثه الجدار في حياتنا.

في وقت لاحق، قدت سيّارتي على طريق ترابيّة، يتبعني طاقم سي بي إس. وقفت مقابل سياج رافات الذي منعني وزملائي الآخرين في رواق من الوصول إلى مشاريع الترميم خارج رام الله.

'لا، لا علاقة لهذا الجدار الأخرق بأمن إسرائيل. انظر إليه. إنّه لا يفصل إسرائيل عن فلسطين. إنّه يفصل الفلسطينيّين عن فلسطين. فهذا الجدار، مثل معظم الحواجز الثلاثمئة والعشرين، لا علاقة له بأمن إسرائيل! إذا كانت إسرائيل تريد جدار فصل أمنيّ، يجب أن تبني الجدار وتقيم الحواجز عند حدود ١٩٦٧، لا داخل أرضنا. هذه أكبر سرقة للأرض والماء في تاريخ إسرائيل. إنّهم يزعمون فصل أنفسهم عنّا، وفي الوقت نفسه يستولون على ٥٥ بالمئة من أرضنا. هل تسمّي ذلك أمناً'؟ وجدت نفسي أصيح على بوب سايمون. وأعتقد أنّه ندم على اختيار امرأة في سنّ الإياس للتحدّث عن الانفصال.

بعد ظهر ذلك اليوم، حصلت على قيلولة طويلة. كانت طويلة جدّاً بحيث أنّني استيقظت في صباح يوم الاثنين.

الإثنين ٢٧ تشرين الأول

'نمّورة... نونو'؟

أسرعتْ نحو الباب، فتحته وأنا نصف مستيقظة، ركضتْ إلى الحديقة، قدحان كبيران من الشاي بالحليب. سمعت مروحيّة إسرائيليّة تجوب في سماء رام الله. حملت قدحي الشاي إلى السرير، عادتْ إلى فراشها، وكان سليم يستمع إلى الأخبار:

'الإدارة الأميركيّة تنتقد قيام إسرائيل ببناء جدار الأمن داخل الأراضي الفلسطينيّة، ومن ثم حرمان الفلسطينيّين من الوصول إلى أراضيهم الزراعيّة'.

هل أثّرت مقابلتي مع بوب سايمون (التي لم تبثّ بعد) على سياسات الإدارة الأميركيّة بالفعل؟

الثلاثاء ٢٨ تشرين الأول

كنت أحاول جاهدة إخفاء قلقي وخوفي عن ليلى شهيد، مفوّضة فلسطين في باريس، التي رافقتها في رحلتها إلى بلدة قلقيلية، على بعد خمسين كيلومتراً إلى الشمال من رام الله. أرادت أن تشاهد أسوأ ما في 'جدار الفصل'.

لم تكن المشكلة في أنواع التصاريح الثلاثة التي أحتاج إليها لأكون قانونيّة عندما أرافق ليلى في رحلتها، أو استحالة الحصول

على مثل هذه التصاريح من الجيش الإسرائيليّ خلال فترة وجيزة، بل في الحواجز العقليّة والنفسيّة، ونقاط التفتيش، وجدر الفصل التي أقمتها شخصيًّا داخل نفسي وحياتي وحولهما في رام الله المحاصرة. وعليّ أن أعترف أنّني كنت في حالة من الإنكار التامّ للوقائع القاسية للجدار الخرساني الذي يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار. وبدا لي الإنكار طريقة فعّالة للتعامل مع الوقائع التي لا تُطاق للحياة تحت الاحتلال.

بدا أن قيادة السيّارة «بشكل غير قانونيّ» داخل إسرائيل هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى قلقيلية. وكانت أيضًا الطريقة الوحيدة لتحدّي 'جدار أمن' شارون!

كان سنّي هو الذي سمح لنا بعبور حاجز قلنديا، وأناقة ليلى بعبور الحاجز الثاني إلى إسرائيل، وأتاح لنا الالتباس التامّ الذي أصاب الجنود الإسرائيليّين بشأن جواز سفر ليلى وجواز سفري الأردنيّ عبور نقطة الدخول والخروج الوحيدة لـ ٤٥,٠٠٠ مواطن من سكّان في قلقيلية. علمنا لاحقًا أنّنا محظوظون جدًّا بالعبور لأنّ الجيش الإسرائيليّ كان قد أغلق البوّابة في الأيام الاثني عشر السابقة.

'ارجع لورغا (لَوَرا)'، صاح الجنود علينا وعلى كل الآخرين الذين يحاولون دخول البلدة.

'إلى أين'؟ سألت ليلى.

'لا تستمعي إليه، إنّه أحمق، كل ما يريده إصدار الأوامر، وأوامره أكثر حماقة منه'، قالت امرأة مسنّة تقف ورائي مباشرة.

إنّنا لا نتلقّى الأوامر سوى من النساء المسنّات، لذا تابعنا حديثنا.

'هل أنتن من قلقيلية'؟ سألت ليلى الشابّات الثلاث الواقفات بقربها.

'نعم نحن من قلقيلية، لكنّنا ندرّس في مدرسة البنات بقرية جيوس المجاورة'.

قالت رفيقتها، 'الذهاب والإياب عذاب، علينا أن نعبر هذا الحاجز وحاجزاً آخر في جيوس. وعلينا ركوب أربع سيّارات أجرة للوصول إلى طلابنا ـ مش عيشة'.

وقالت المعلّمة الثالثة لليلى، 'والحاجز مغلق معظم الوقت'.

استمعت ليلى إلى المعلّمات الثلاث باهتمام. وراقبتُ صفّ النساء الطويل على الجانب الآخر من الحاجز. التقليد العربيّ الوحيد الذي يبدو أنّ الجنود الإسرائيليّين يعزّزونه، فيما يواصلون إذلالهم كل رجل وامرأة، هو الفصل بين الجنسين.

وفيما كانت جنديّتان إسرائيليّتان تفتّشان كل امرأة، انتقلت عيناي من وجه إلى آخر. شعرت أنّني أتشرّب المشاعر التي

تعبّر عنها وجوه هؤلاء النسوة لحظة امتداد يدي الجنديّة الإسرائيليّة إليهن: الغضب، والإحباط، والتعب، والأسف، والعجز، والإذلال، والتحدّي، والقرف، والاستياء.

كدت أنفجر.

قالت ليلى، 'انظري، هناك جنديّ إسرائيليّ يفتّش النساء المسكينات، إنّه أمر لا يصدّق'.

'لا يا لولو، إنّهما جنديّتان إسرائيليّتان'.

'حقًّا'؟

أعتقد أنّ كل الفروق الجنسانيّة تختفي بين المجنّدين والمجنّدات.

'تقدّمن إلى الأمام'، صاح الجنديّ الأحمق علينا.

تقدّمت المعلّمات الثلاث أولاً، ثم ليلى، وتبعتهن.

كان أبو معزوز في استقبالنا أنا وليلى، وهو مسؤول من بلديّة قلقيلية. وكان يعرف أنّنا نريد مشاهدة «جدار الفصل»، لذا قال بعد الترحيب بنا على الفور، 'أصبحنا مثل قنّينة الكوكا كولا مع السدادة. لقد سدّ الجيش الإسرائيليّ أو أغلق كل المداخل الأخرى إلى قلقيلية'. تساءلت إذا كان ذلك إعلانًا جيّداً لكوكا كولا!

بدأ ابو معزوز يعرّفنا على المنطقة. أشار إلى الشرق، 'أترون المستوطنة اليهوديّة هناك؟ هذه إيغال ألف وإلى جوارها إيغال بيت. والمستوطنة التي أمامنا سوفين. لقد سرق مستوطنو سوفين جرّافتنا، لكنّنا تمكنّا من استرجاعها'.

أردت أن أوقف أبا معزوز لأسأله كيف يمكن أن يسرق أحدهم جرّافة. لكنّني شعرت بالحرج من رؤية كل الأرض المسروقة أمام عينيّ ولا أسأل سوى عن جرّافة. امتنعت عن السؤال وتابعت الاستماع إلى أبي معزوز: 'أترون المستوطنة الكبيرة هناك، إلى الجنوب؟ تلك ألف مناشيه'.

سلكنا طريق نابلس، الشارع الرئيسيّ للتسوّق في قلقيلية. حملتني قلّة الناس في الشارع إلى السؤال عما إذا كانت البلدة خاضعة لمنع التجوّل.

'لا، إنّه رمضان، وبما أنّ الحاجز أقفل اثني عشر يومًا متواصلة، لم يعد الناس يغامرون بالدخول إلى قلقيلية أو الخروج منها'.

سارت بنا السيّارة أنا وليلى على طول الجدار الذي يحيط بقلقيلية تمامًا. وعلمنا أنّ ٤٥ بالمئة من أرض البلدة وتسع عشرة بئرًا من آبارها أصبحت الآن في 'الجهة الأخرى' من الجدار. ولكي يصل القرويّون إلى حقولهم، فإنّ عليهم عبور المدخل/المخرج

الوحيد لبلدتهم. ومع أنّنا كنّا في نهاية تشرين الأول، فإنّه لم يسمح للقرويّين بقطاف زيتونهم بعد.

وقف مزارع في الثانية والسبعين، يدعى أبو محمّد، بجوار الجدار الخرسانيّ القاسي الذي يرتفع ثمانية أمتار. كان يرتدي أكبر نظّارة مربّعة على الإطلاق. 'إنّني أقوم باستبدال أشجار الزيتون والنخيل والتين التي اقتلعها الإسرائيليّون لبناء هذا الجدار'. وأشار أبو محمّد نحو الجدار، ثم انحنى وتابع الحفر. في تلك اللحظة تساءلت إذا كان أبو محمد سيعيش ما يكفي من الوقت لرؤية هذه الأشجار البطيئة النمو وهي تزهر. ووددت لو أنّ لديّ نظّارة بنفس الحجم (ولكن داكنة) لأخفي دموعي عن وجه أبي محمّد المليء بالتجاعيد. وعندما هممت أنا وليلى بالابتعاد عن الجدار، سمعت أبا محمّد يقول، 'هذه المرّة الثالثة التي أبدأ فيها من جديد'،

منعتني الدموع المنهمرة من عينيّ من العودة لأستمع إلى المزيد.

الأربعاء ٢٩ تشرين الأول

'نعم نحبّ زيارة حديقة الحيوانات'، أجبت أنا وليلى بحماسة.

كنّا نعلم أنّ بلديّة قلقيلية ذات سياسة تقدّميّة ولديها العديد من المشاريع الرائدة. فقد عمد رئيس بلديّة قلقيلية العربيّ ورئيس

بلدية بلدة كفر سابا الإسرائيليّة المجاورة، وهو من حزب ميرتس، إلى توأمة البلدتين. وقدّم الإسرائيليّون التقدّميّون في كفر سابا التماسًا إلى حكومة شارون يدعونها فيه إلى أخذ الأرض اليهوديّة لإنشاء الجدار. لكن حديقة حيوانات! هذا مشروع رائد حقًّا ـ فليس هناك حديقة حيوانات أخرى في الضفّة الغربيّة وقطاع غزة.

بدأت جولتنا في حديقة الحيوانات بزرافة صغيرة رائعة نُقلت إلى هنا من جنوب إفريقيا. تساءلت إذا كانت هذه هديّة من المؤتمر الوطنيّ الإفريقيّ إلى الشعب الفلسطينيّ. وخلافًا لبقيّة الحيوانات في حديقة قلقيلية، بدت الزرافة الصغيرة غير مكترثة حيال الوضع السياسيّ، ربما لأنّها تستطيع الرؤية خلف الجدار.

إلى جانب الزرافة، جلست لبوة مسنّة عزيزة النفس على منصّة خرسانيّة وسط قفص صغير محاط بالأسلاك الشائكة. أُبلِغنا أنّها فقدت زوجها المحبوب مؤخّرًا. وما إن اقتربتُ من اللبوة وقبل أن أتمكّن من التفوّه بعبارات المواساة، حتى نظرت إلى عينيّ بشكل مباشر وقالت، 'تعرفين الآن ماذا يعني أن تعيشي في قفص، معزولة عن محيطك الطبيعيّ'.

'أعرف، وأنا آسفة حقًّا. إنّنا مدينون لك بالاعتذار'.

'لا بأس! الإسرائيليّون هم الذين يدينون لكلينا بالاعتذار'، أضافت اللبوة.

عانقت إحدانا الأخرى وبكينا.

لم يعد لديّ ما أقوله للبوة، لذا ابتعدت إلى قفص القردة.

في البداية، وقفت القردة التي يبلغ عددها ثلاثين تقريبًا ساكنة وبدت كئيبة مثل اللبوة وسوانا نحن الذي نعيش تحت الاحتلال. لكنّها سرعان ما شعرت بالإثارة، إذ إنّها لم تشاهد أي زائر منذ شهور، وبدأت تستعرض نفسها: تعلّق بعضها بأيديها، وبعضها بأذنابها، وتأرجحت قلّة منها بأرجلها، وقفز بعضها الآخر بين جدران القفص الأربعة. كان ذلك مؤثّرًا جدًّا حتى أنّني بكيت. ظهر خلفنا سعيد، القيّم عليها، حاملاً دلوين كبيرين مليئين بثمر البرسيمون. وسرعان ما اكتست أرض القفص بسجّادة برتقاليّة زغبة.

قال، 'بما أنّ المزارعين غير قادرين على بيع فاكهتهم وخضرهم في الأسواق خارج الجدار والحاجز، فإنّنا نقدّمه إلى القردة'.

وعندما أنهى سعيد شرحه، كان كل قرد يضع خمس أو ست حبّات برسيمون في حجره، ويدفع اثنتين أخريين أو ثلاث في فمه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحببت روح القردة.

تناولت حبّة برسيمون وانضممت إليها.

الخميس ٣١ تشرين الأول

أيقظني باكرًا ألم شديد في معدتي. أخرجت نمّورة لقضاء حاجتها، وعدت إلى الفراش بدون قدحي الشاي.

لم أستطع أن أعرف ما إذا كانت صورة الجدار الخرسانيّ المرتفع، أو صورة أبي محمّد وهو يزرع أشجار الزيتون إلى جانب الجدار، أو النظرة الحزينة للبوة في حديقة الحيوانات، أو الفلسطينيّ الذي تعرّض للضرب في قفص عسكريّ عند حاجز قلنديا، أو الدموع التي سالت بهدوء على وجنتي ليلى عندما قفلنا عائدين، هي التي سبّبت ألم معدتي الذي لازمني طوال يوم الخميس.

ولم تساعد بالطبع الطائرات الإسرائيليّة التي ظلّت تجوب سماء رام الله طوال ساعات.

عندما تمدّدت، تذكّرت ما قاله أريل شارون في سنة ١٩٧٣، حين سأله ونستون س. تشرشل الحفيد الثالث لرئيس الوزراء البريطانيّ الأسبق، كيف ستتعامل إسرائيل مع الفلسطينيّين:

'سنصنع منهم سندويش بسطرمة. سنقحم شريطًا من المستوطنات الإسرائيليّة بين الفلسطينيّين، ثم شريطًا آخر من المستوطنات عبر الضفّة الغربيّة، بحيث لا تستطيع الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة التخلّص منه بعد ٢٥ سنة'

وقد استغرق شارون خمس سنوات إضافيّة لوضع غلاف خرسانيّ حول سندويش البسطرمة.

الفهرس

مقدمة **٥**

القسم الأول **٩**

لم يكن مزاجي رائقًا ١١

الوداع يا أمي ٢٥

العودة إلى يافا ٣١

هويتي ملحمة السنوات السبع (١٩٨١ ـ ١٩٨٨) ٤٣

الجريء وغير الجميلة جدًّا ٦٩

حمّى التسوّق استباقًا لصواريخ صدّام ٨٧

أقنعة الميعاد ١١٣
فلسطين المزركشة ١٢٩
حياة كلب ١٤٥
ديالا واللقاء غير المنتظر ١٥٩

القسم الثاني ١٧١
كابوتشينو في رام اللّه ١٧٣
جيراننا الجدد ١٨١
رام اللّه تحت منع التجوّل ١٨٧
نابلس ـ اللقاء الذي لا يُطاق ٢٣٣
السيّد الرئيس ٢٤٩
شارون ومقلاة التيفال ٢٥٣
عشرة أيام من الاسترخاء في مصر ٢٦١
وجهة نظر لبوة ٢٦٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

تحكي هذه الرواية عن يوميات الاجتياح الإسرائيلي لرام اللّه عام ٢٠٠٢؛ عن حماةٍ في الثانية والتسعين من عمرها جاءت لتعيش مع البطلة وتتصرّف كما تتصرّف الحموات؛ عن استحالة الحب وثرثرة الجيران والجدار الفاصل؛ عن عبثيّة الحياة اليومية واحتضارها في بلد يحكمه نظام إسرائيلي قمعي بتصاريحه وحواجزه وعرقلته لحياة آلاف الفلسطينيين.

سعاد العامري معمارية ومؤسسة لمركز رواق، مركز الحفاظ على التراث المعماري برام اللّه. صدر لها العديد من الكتب حول الفن المعماري، وقد فاز كتاب شارون وحماتي بجائزة فياريجيو ـ فيرسيلا من إيطاليا. تُرجمت الرواية إلى ست عشرة لغة عالمية.

telegram @soramnqraa

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف رم الجندي